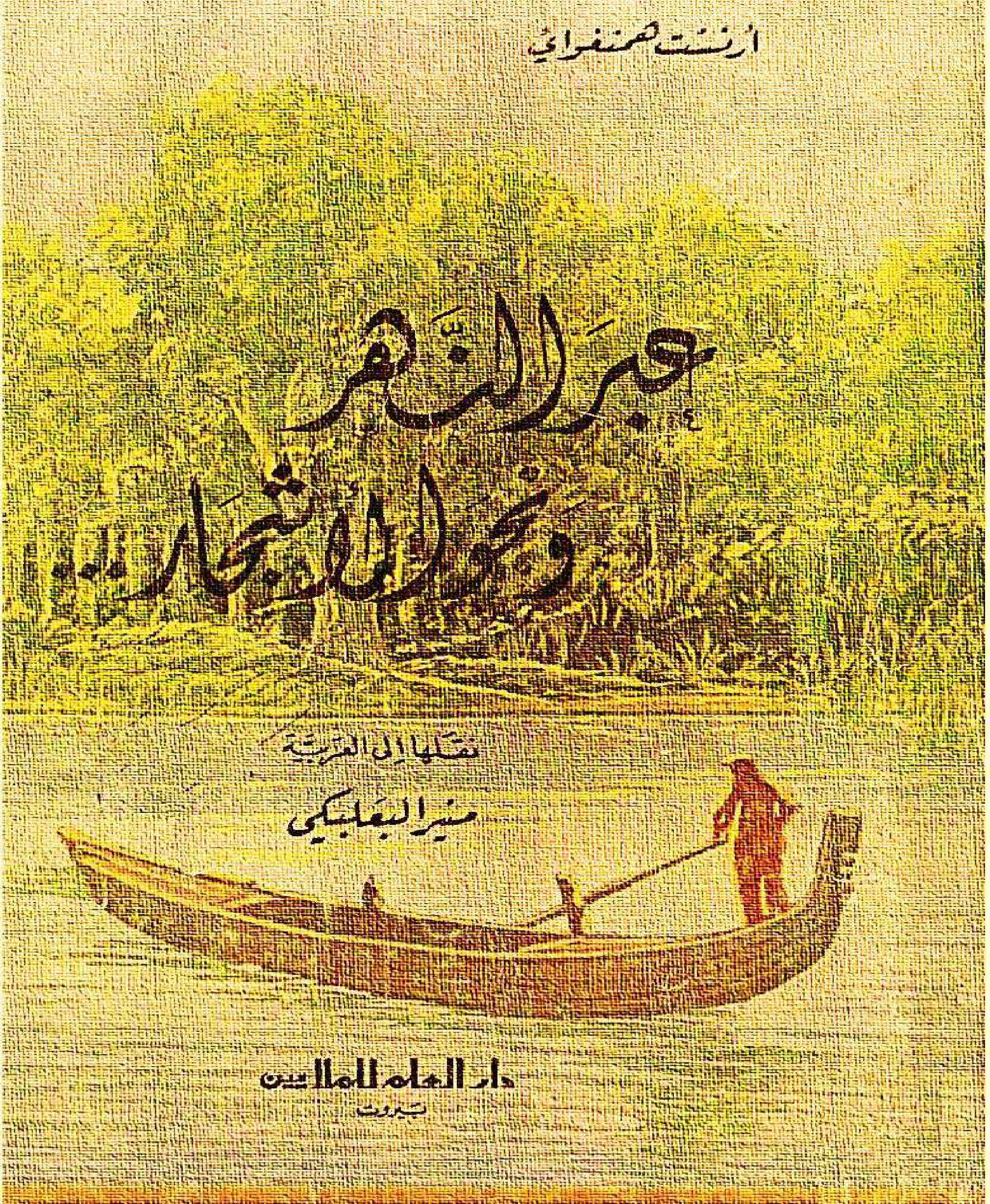

أرنست همنغواي
عبر النهر ونحو الأشجار
نقلها إلى العربية
منير البعلبكي
دار العلم للملايين
بيروت

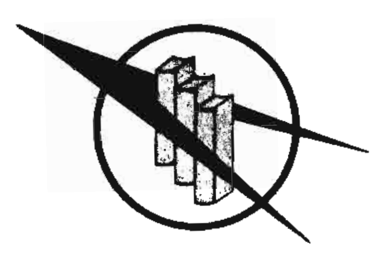
ACROSS THE RIVER
AND
INTO THE TREES
BY : ERNEST HEMINGWAY

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقياً : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان





أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢

أرنست همنغواي



نقلها إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين
بيروت

١

لقد انطلقنا قبل ساعتين من انبلاج الفجر ، وفي بادىء الأمر لم يكن من الضروري ان يُكسَر الجليد عبر القنال ، باعتبار ان زوارق اخرى كانت قد تقدمتها . وفي كل زورق كان السواريّ [١] واقفاً ، وسط الدجنّة ، عند مؤخر المركب وفي يده مجذافه الطويل ، فليس في ميسورك أن تراه : كان في وسعك ان تسمعه ليس غير . أما القنّاص فجلس على كرسيّ قنصٍ خفيض مثبّت فوق صندوق اشتمل على طعامه وخراطيشه ، وكانت بندقيتا القنّاص ، او بنادقه مُسنَدةً ، الى حِمل الطيور الخشبية الخادعة . وفي مكان ما من كل زورق كان عِدْلٌ يشتمل على بطة برية حيّة أو بطتين بريتين حيتين ، أو على بطة انثى وبطة ذكر . وفي كل زورق كان كلب يتنقل ويرتعد في قلق كلما سمع تصفيق اجنحة البط الذي كان يمرّ فوق رؤوس القوم في الدجنّة .

كانت أربعة زوارق قد صعّدت في القنال الرئيسية نحو اللاغون [٢] الكبير الذي في الشمال . وكان زورق خامس قد انعطف قبيل ذلك نحو قنالٍ جانبية . واستدار الزورق السادس ، الآن ، الى لاغونٍ ضحل ، ولم يكن ثمة مياه محطمة .

---

١ – نسبة الى سارية السفينة .

٢ – اللاغون ، Lagoon ، المستنقع او البحيرة الضحلة وخاصة ما اتصل منها بالبحر او بالنهر أو كان قريباً منها .

كان كل شيء جليداً ... جليداً انجمد منذ قريب ، خلال زمهرير الليل المفاجىء المفتقر الى الرياح . كان مطاطياً ، وكان ينحني مع طعنات مجذاف المراكبيّ . ثم انه كان من دأبه أن ينكسر بمثل حدة انكسار لوح من زجاج ، ولكن الزورق لم يحرز غير تقدم ضئيل .

— « أعطني مجذافاً ! » كذلك قال القناص الذي في الزورق السادس . لقد انتصب واقفاً وثبّت قدميه موازناً نفسه في حذر . كان في ميسوره أن يسمع البط ينطلق في الظلام ، ويستشعر ترنّح الكلب القلِقَ . والى الشمال سمع صوت تحطيم الثلج مقبلاً من الزوارق الاخرى .

وقال السواريّ القائم عند مؤخر المركب : « احترس ! لا تقلب الزورق رأساً على عقب . »

فقال القنّاص : « أنا ملاح ، ايضاً . »

وتناول الجذاف الطويل الذي قدّمه المراكبيّ اليه وعكَسَهُ بحيث يستطيع الامساك به من َنصْلِه . حتى اذا تشبّث بالنصل ، مال الى أمام وغرز مقبض الجذاف في الجليد . لقد استشعر قعرَ اللاغون الضحل الثابت ، وألقى بثقله فوق اعلى النصل العريض وامسك به بكلتا يديه ، جاذباً بادىء الأمر ، ثم دافعاً بعد ذلك ، حتى انكفأ ِسناد السارية الى المؤخرة ، وراح يسوق الزورق ُقدُماً لكي يحطم الجليد . وانكسر الجليد مثل رقاقات من البلور فيما كان الزورق يشق طريقه وسطه ، ويتقدم نحوه . وعند المؤخرة ، دفع المراكبيّ تلك الرقاقات الى أمام نحو المجاز المائع .

وبعد هنيهة التفت القناص ، الذي كان يبذل جهداً قاسياً موصولاً ويتصبب عرقاً في ثيابه الثقيلة ، الى المراكبيّ وسأله : « اين برميل القنّاصة ؟ »

— « هناك ، الى اليسار . في وسط الخليج التالي . »

— « أيتعيّن علي ان اتجه نحوه الآن ؟ »

- « كما تشاء . »

- « ماذا تعني بقولك : كما أشاء ؟ انت تعرف المياه . هل ثمة ماء لحملنا الى هناك ؟ »

- « المدّ منخفض . من يدري ؟ »

- « سوف ينبثق الفجر قبل ان نصل الى هناك إن لم نسرع . »

ولم يجب المراكيّ بشيء .

- « حسناً ، أيها الرجل التافه الفظّ » ، كذلك قال القنّاص في ذات نفسه . إننا في سبيلنا الى هناك . لقد قطعنا ثلثي الطريق الآن ، واذا كنت قلق البال حول اضطرارك الى العمل لكي تحطم الجليد لتعثر على الطيور ، فذلك مؤسف الى حد بعيد . »

وقال بالانكليزية : « انتقم لنفسك من هذا الوضع ، ايها الرجل التافه ! »

فسأله المراكي بالايطالية : « ماذا ؟ »

- « لقد قلت فلنمض . سوف تبزغ الشمس عما قريب . »

وانبلج الصباح قبل ان يبلغا البرميل الكبير ذا الاضلاع السنديانية الغارق في قعر اللاغون . كان مطوقاً بحاشية منحدرة من الارض يكسوها العشب ونبسات الحلفاء ، فصعّد القناص نحوها متأرجحاً في حذر ، مستشعراً ان الأعشاب المنجمدة كانت تتكسّر تحت قدميه . ورفع المراكيّ كرسي القنص الخفيض المشدود الى صندوق الخراطيش من الزورق وقدمها الى القنّاص ، الذي انحنى الى أمام ووضعها في قعر البرميل الكبير .

وتسلق القناص البرميل ودخل فيه ، وكان يرتدي حذاءه الطويل الساق المرتفع حتى الوركين وسترة عسكرية قديمة على كتفها الأيسر كتافة لم يفهمها احد ، مع مواضع ضئيلة خفيفة حيث كانت من قبل نجوم ثم نُزعت . وناوله المراكيّ بندقيتيه .

وأسند البندقيتين الى جدار البرميل ، وعلّق كيس خراطيشه الآخر بينهما ، مدلّياً اياه على كُلاّبتين مُثبّتتَيْنِ في جدار البرميل الغائر . ثم إنه أمال البندقيتين الى جانبي كيس الخراطيش .

وسأل المراكبيْ : « ألدَيك ماء ؟ »

فقال المراكبي : « لا ماء . »

— « هل نستطيع ان نشرب ماء اللاغون ؟ »

— « لا . انه غير صحي . »

كان القناص ظمآن من أثر التعب الذي اورثـه اياه تحطيم الجليد وقيادة الزورق . وأحسّ بالغضب يتملكه ، ولكنه كبح جماحه وقال :

— « هل استطيع ان اساعدك في الزورق على تحطيم الجليد لاطلاق الطيور الخشبية الخادعة ؟ »

فقال المراكبي : « لا » ، ودفع الزورق في وحشية مخرجاً اياه الى طبقة الجليد الرقيقة التي انفلعت وانشقت فيما كان الزورق يصعّد نحوها . وشرع المراكبي يهشم الجليد بنصل مجذافه ، ثم راح يلقي بالطيور الخشبية الخادعة خلفهُ والى جانبه .

إن مزاجه اليوم رائق ... كذلك قال القناص في ذات نفسه . وهو بهيمة كبيرة ، ايضاً . لقد عملتُ انا مثل فرس حتى انتهيت الى هنا . أما هو فاكتفى بدفع ثِقله ولم يزد . ما الذي يغيظه ، بحق الشيطان ؟ ان هذه هي مهنته ، أليست هي مهنته ؟

وسوّى كرسي القنص الخفيض بحيث ينعم بأقصى القدرة على التمايل ذات اليمين وذات الشمال ، وفتح صندوق خراطيش ، وملأ جيوبـه ، وفتح صندوق خراطيش آخر في كيس الخراطيش بحيث يستطيع أن يتناوله في يُسْر . وقبالتَهُ ، حيث انبسط اللاغون المتلألىء تحت أشعة الفجر الاولى ، كان الزورق الاسود وكان المراكبيّ الفارع الطول الضخم الجثة يهشم الجليد بمجذافه ويلقي بالطيور الخشبية الخادعة الى عرض الماء

وكأنه يتخلص من شيء قذر .

كانت خيوط الفجر قد غدت الآن اكثر اشراقاً ، ولقد اصبح في ميسور القناص ان يرى الحدود الخفيضة للنقطة القريبة عبر اللاغون . وكان يعلم أن وراء تلك النقطة مركزَي قنص آخرَين ، وأبعد الى الوراء كانت مستنقعات اضافية ، يليها البحر الطلق . وشحن بندقيته ، وتحرّى موقع الزورق الذي كان يقذف بالطيور الخشبية الخادعة .

ومن خلفِه ، سمع همس أجنحةٍ وافدة ، فجثم ، وتناول بندقيته اليمنى بيده اليمنى رافعاً بصره من تحت حافة البرميل ، ثم نهض ليطلق النار على البطتين اللتين كانتا تُسِفّان ، وقد كُبِحت اجنحتها ، هابطتين على نحو داكن في السماء الرمادية المعتمة ، منحرفتين نحو الطيور الخشبية الخادعة .

وخفض رأسه ، وحرّفَ البندقية في منحنى طويل الى ما وراء البطة الثانية بكثير . ثم انه رفع البندقية في رفق ، من غير ان يتحقق من نتيجة طلقتِهِ ـ رفعها عالياً الى يسار البطة الاخرى التي كانت تحلق الى اليسار ؛ وفيما كان يطلق النار رآها تطوي جناحيها وهي آخذة في الطيران وتسقط بين الطيور الخشبية الخادعة فوق الجليد المهشم . والتفت الى اليمين فرأى البطة الاولى رقعة سوداء على الجليد نفسه . لقد عرف أنه اطلق النار في عناية على البطة الاولى بعيداً الى يمين الزورق ،وعلى البطة الثانية عالياً جداً والى اليسار ، تاركاً البطة تحلق منحرفة الى اليسار لكي يستيقن من ان الزورق كان بعيداً عن خط النار . كانت اصابة مزدوجة رائعة ، حققها كما ينبغي له ان يحققها على وجه الضبط ، مع المراعاة والاحترام التامين لموقع الزورق . واستشعر ارتياحاً بالغاً فيما كان يعيد شحن البندقية .

وقال الرجل الذي في الزورق بصوت عال : « إسمع ! لا تطلق النار في اتجاه الزورق ! »

سوف اكون ابن عاهرة فاشلاً ، كذلك قال القناص في ذات نفسه . سوف اكون من غير ريب .

وقال بصوت عال مخاطباً الرجل الذي في الزورق : « ألقِ طيورك الخشبية الخادعة في الماء . ولكن ألقِها بسرعة . انا لن اطلق النار حتى تلقيها كلها . إلا فوق سمْت الرأس مباشرة . »

ولم يقل الرجل الذي في الزورق ايّ شيء يمكن ان يُسمع .

انا لا استطيع ان اتصور هذا ، كذلك قال القناص في ذات نفسه. إنه يعرف اللعبة . ويعرف اني قسمتُ العمل ، واكثر ، عند انطلاقنا . وانا لم اطلق النار في حياتي على اي بطة اطلاقاً أسلمَ وأحفـل بالعناية والاحتراس مما فعلت اليوم . فما باله ؟ لقد ابديت استعدادي لمعاونته في تحطيم الجليد وإلقاء الطيور الخشبية الخادعة الى الماء فليذهب الى الجحيم ! »

وهناك ، الى ناحية اليمين الآن ، كان المراكبي لا يزال يهشّم الجليد مغضباً ، ويلقي بالطيور الخشبية الخادعة بروح ترشح ببغضاء تجلّت في كل حركة من حركاته .

لا تدعه يُفسد عليك يومك ، كذلك قال القناص مخـاطباً نفسه . فلن يكون قنص كثير بحكم هذا الجليد ، اللهم الا إذا أذابته الشمس في ما بعد . ولعلك لن تفوز بعدُ بغير طرائد معدودات ، فلا تدعه يفسد عليك قنصك . انك لا تدري كم مرة سوف يقدّر لك أن تصطاد البط منذ اليوم ، فلا تدع ايّ شيء يفسد ذلك عليك .

وراقب السماء وهي تَتبرّق وراء تخوم المستنقع الطويلة ، ثم استدار في البرميل الغائر وسرّح بصره عبر اللاغون المتجمد وعبر الارض السبخة ، فرأى الجبال المكللة بالثلوج على مسافـة قصيّة ، واذ كان في وضع خفيض فـأن بصره لم يقع على اي سفح من سفوح الهضاب ، ونهضت الجبال على نحو مفاجىء من سطح السهل . وفيما هو يرنو الى الجبال ،

كان في ميسوره ان يستشعر نسيماً يداعب وجهه ، فعرف آنذاك ان الريح سوف تُقبل من هناك ، ناهضةً مع بزوغ الشمس ، وأن بعض الطيور لا بد أن تفِدَ من ناحية البحر عندما تزعجها الريح .

وكان المراكبي قد فرغ من اطـّراح الطيور الخشبية الخادعة ، وكانت تشكـّل عنقودين اثنين ، احدهما قدام القناص والى يساره نحو الموضع الذي ستشرق منه الشمس ، والآخر الى يمينه . عندئذ دلـّى انثى البط البري مع وترها ومرساتها ، فلم يكن من بطة القنص إلا أن نترت رأسها تحت الماء ، ثم رفعت رأسها وغطـّسته ، ونضحت ظهرها بالماء .

وصاح القناص مخاطباً المراكيَّ : « ألا تعتقـد ان من المستحسن ان نكسر مقداراً اضافيـاً من الجليد حول الحافـات ؟ ليس ثمة ماء كاف لاجتذابها . »

ولم يقل المراكبي شيئاً ، ولكنـه شرع يهشم اطراف الجليد المتثلمة بمجذافه . وكان تهشيم الجليد هذا غير ضروري ، ولقد عرف المراكبي ذلك . ولكن القناص لم يعرفه وقال في ذات نفسه : انا لا افهم هذا الرجل ، ولكن عليّ ان لا ادعه يفسد عليّ هذه الفرصة . ان من واجبي أن اصونها من العبث ، وأن لا أدعه يُقدم على ذلـك . فكل عيار ناري أطلقه الآن قد يكون آخر عيار مقدَّرٍ لي ان اطلقه ، وليس يجوز ان يُسمح لأي ابن عاهرة ان يفسد علي فرصتي هذه . ثم خاطب نفسه قائلاً : « اكبح جماح غضبك ، ايها الغلام ! »

٢

ولكنه لم يكن غلاماً . لقد كان في الخمسين من عمره ، وكولونيل مشاة في جيش الولايات المتحدة . ولكي يجتاز فحصاً طبياً كان قد تعين عليه أن يخضع له في اليوم السابق لمضيّه الى البندقية (فينيسيا) لقنص البط ، عمد الى ازدراد مقدار كاف من المنيتول هيكسانيترايت ابتغاء ... — حسناً انه لم يكن يعرف لماذا على وجه الضبط — ابتغاء النجاح ، كذلك قال في ذات نفسه .

وكان الطبيب كثير الشكوك . ولكنه دوّن نتيجة فحص القلب على الجهاز المسجل لخفَقَاتِهِ ، بعد أن اجراه مرتين اثنتين .

وقال : «أتدري ، يا « دك » . ان التسجيل لا يشير الى أية علة في القلب . إنه على العكس ينفي وجود العلة بما ينطق به من ارتفاع في الضغط الناشب في البصر والضغط الناشب في طاسة الرأس . »

— « لست افهم هذا الذي تتحدث عنه ، » كذلك قال القنّاص الذي لم يكن قنّاصاً ، آنذاك ، إلا باعتبار ما سيكون ، والذي كان كولونيل مشاة في الجيش الاميركي ، أُنزل من رتبته كجنرال .

وقال له الطبيب : « لقد عرفتك منذ عهد بعيد ، ايها الكولونيل . او لعل معرفتي اياك تبدو وكأنها ترقى الى عهد بعيد . »

فقال الكولونيل : « أجل إنها ترقى الى عهد بعيد . »

فقال الطبيب : « نحن نبدو مثل ناظمي الاغاني . ولكن حذار ان

تدع نفسك تتأثر بأي شيء ، أو ان تدع أيما شرارة تصيبك ، حين تذكي نشاطك اذكاء شديداً بالنيترو غليسيرين [1]. فلا بد ان يجعلك ذلك تجرّ سلسلة حديدية مثل شاحنة تسير ببنزين مغالى في تكريره . »

فسأله الكولونيل : « ألم تكن نتيجة تخطيط قلبي حسنة ؟ »

— « لقد كانت نتيجة التخطيط رائعة ، أيها الكولونيل . وفي استطاعتي ان اقول انها تشبه نتيجة تخطيط القلب عند رجل في الخامسة والعشرين بل تشبه نتيجة تخطيط قلب غلام في التاسعة عشرة . »

والواقع ان ذلك المقدار من المنيترول هيكسانيترايت كانت تُشعره في بعض الاحيان بشيء من الغثيان ، ولقد كان حريصاً على إنهاء تلك المقابلة . وكان تواقاً أيضاً الى ان يضطجع ويأخذ حبة سيكونال [2] . وقال في ذات نفسه : إن عليّ أن اؤلف كتابي الموجز عن فن الحركات الحربية الثانوية الخاصة بفصيلة المصابين بضغط الدم العالي . ليتني استطيع أن اخبره بذلك ! لماذا لا أسلِمُ نفسي ، بكل بساطة ، الى رحمة القضاء ؟ ولكن المرء لا يفعل ذلك ابداً — هكذا قال في ذات نفسه . المرء يزعم دائماً أنه غير مذنب .

وسأله الطبيب : « كم مرةً أُصبتَ في رأسك ؟ »

فأجابه الكولونيل : « انت تعلم انها المرة الحادية بعد المئتين . »

— « كم مرة ضُرِبت على رأسك ؟ »

فقال الكولونيل عندئذ : « هل تسألني ذلك لمصلحة الجيش أم بوصفك طبيبي ؟ »

— « بوصفي طبيبك . أنت لم تعتقد أني سأعمد الى «تدوير» ساعتك او تعبئتها ، أليس كذلك ؟ »

---

١ — سائل زيتي ثقيل شديد الانفجار يستعمل في صنع الديناميت . (المعرب)

٢ — السيكونال عقار منوّم . (المعرب)

– « لا ، يا ويس . متأسف . ولكن قل لي ما الذي اردت ان تعرفه على وجه الضبط ؟ »

– « الارتجاجات . »

– « الارتجاجات الحقيقية ؟ »

– « جميع المرات التي أحسست فيها بالبرد ثم لم تعد تتذكر شيئاً بعد ذلك . »

فقال الكولونيل : « لعلها عشرة ارتجاجات . بما في ذلك البولو . زد ثلاثة ارتجاجات او انقُصْ ثلاثة . »

فقال الطبيب : « يا لك من ابن عاهرة بائس عتيق ! » ثم اضاف « يا سيدي الكولونيل . »

فسأله الكولونيل : «هل استطيع ان انصرف الآن ؟ »

فقال الطبيب : « نعم ، يا سيدي . انت في صحة جيدة . »

فقال الكولونيل : « شكراً . هل ترغب في الاشتراك في صيد البط في المستنقعات التي عند مصب نهر تاغليامنتو ؟ قنص رائع . إن بعض الفتيان الايطاليين الممتازين الذين لقيتهم في كورتينا يملكونها . »

– « أهو المكان الذي يصيدون فيه دجاجات الماء ؟ »

– « لا ، انهم يصيدون بطاً حقيقياً في ذلك المكان . فتيان صالحون . قنص صالح . بطٌ حقيقي . بط بري ، 'بلبول '[1] بط اصلع . بعض الأوزّ . كمثل تلك التي عرفناها في الوطن حين كنا صغيرين» .

– « لقد كنتُ صغيراً في التاسعة والعشرين وفي الثلاثين . »

– « هذا اول شيء حقير سمعتك تقوله طول حياتي . »

– « انا لم أعنِ شيئاً من ذلك . كل ما عنيته هو اني لم أتذكر متى كان قنص البط حسناً . ثم إنني غلام من أبناء المدن . »

---

١ – البلبول : نوع من البط .

ـ « وتلك هي علتك اللعينة التي لا علة لك غيرهـا أيضاً . أنا لم أر في حياتي غلاماً من أبناء المدن يساوي فلساً واحداً . »

ـ « انت لا تعني ما تقول ، أليس كذلك ايها الكولونيل ؟ »

ـ « طبعاً لا . وانت تعرف جيداً اني لا اعني ذلك . »

فقال الطبيب : « انت في صحة جيدة ، ايها الكولونيل . أنا آسف لعدم تمكني من الذهاب للصيد . بل انني اجهل حتى اطلاق النار نفسه . »

فقال الكولونيل : « يا للجحيم . هذا لا يقدّم ولا يؤخر . والواقع أن سائر أفراد هذا الجيش ليشاركونك جهلك ذاك . اني اريد أن اصحبك معي . »

ـ « سوف اعطيك شيئاً آخر لدعم العقاقير التي تستعملها . . »

ـ « وهل ثمة شيء من ذلك ؟ »

ـ « ليس بمعنى حقيقي . ومع هذا ، فالعلماء منكبّون على إعداده . »

فقال الكولونيل : « دعهم ينكبّون . »

ـ « احسب أن هذا مسلك مشكور ، يا سيدي . »

فقـال الكولونيل : « اذهب الى الجحيم ! اواثق أنت من انك لا تريد الذهاب للقنص ؟ »

فأجابه الطبيب : «إن بطـتي لفي «لونشان» بشارع ماديسون . انه مكيف الهواء في الصيف ، دافىء في الشتاء ، وليس يتعين علي هناك ان انهض من فراشي قبل اول خيط من خيوط الفجر ، وان ارتدي ملابس تحتيّة صوفية . »

ـ « حسن جداً ، ايها الغلام المدينيّ . أنت لن تنفذ الى كنه الأشياء ، أبد الدهر . »

فقال الطبيب : « أنا لم ارغب في مثل هذا النفاذ قط . انت في صحة جيدة ، أيها الكولونيل » .

ـ « شكراً ، » كذلك قال الكولونيل ، وغادر الحجرة .

٣

كان ذلك أمسِ الأول ، أما أمسِ فكان قد امتطى متن السيارة من تريبستا الى البندقية على طول الطريق القديمة التي امتدت من مونتفالكون الى لاتيسانا وعَبَرَ الريف المسطّح . كان لديه سائق بارع ، وكان قد استرخى استرخاء كاملاً في مقعد السيارة الأمامي ، وراح يسرّح طرفه في ذلك الريف الذي عرفه منذ صباه الأول .

إنه يبدو الآن مختلفاً جداً ، كذلك قال في ذات نفسه . واحسب ان مردّ ذلك الى ان المسافات قد تغيّرت كلها . ان كل شيء يصبح أصغر بكثير عندما تتقدم بك السن . والى هذا ، فالطرق هي الآن أفضل من ذي قبل ، وليس ثمة غبار . أنا لم اجتزها في ما مضى إلا على متن شاحنة من الشاحنات . أما في سائر الأحوال الاخرى فكان من دأبنا أن نسلكها مشياً على الاقدام . واحسب ان ما بحثتُ عنه آنذاك كان رُقَعَ الظل عندما نكصنا على أعقابنا ، والآبار في أفنية المزارع . والخنادق ، ايضاً ، كذلك قال في ذات نفسه . لقد بحثتُ من غير ريب عن كثير من الخنادق .

وانعطفا ، وعَبَرا الى « تاغليامنتو » فوق جسر مؤقت . كانت الضفتان خضراوين ، وكان الناس يصطادون السمك على الشاطىء البعيد حيث يعمق النهر . وكان الجسر المنسوف يُصلَح بدمدمة مطارق مسمّرة . وعلى مبعدة ثمانمئة ياردة بدت المباني والمباني الملحقة التي دمرتها

الحرب والتي كانت الآن مجرد بيت ريفيّ خرب بناه «لونجينا» في يوم من الأيام .. اقول بدت حيث كانت وسائل التدمير قد أفرغت أحمالها .

وقال السائق : « انظر اليها . في هذا البيت تجد جسراً أو محطة للسكة الحديدية . فاذا ابتعدت نصف ميل من هنـا ، في أي اتجاه ، تجد كل شيء على هذه الشاكلة . »

فقال الكولونيل : « يخيّل الي ان العظـة المستفادة من ذلك هي : لا تبنِ لنفسك بيتاً ريفياً أو كنيسة أو تكلف « غيبوتو » [1] بأن يرسم لك أية لوحات جدارية - اذا كانت لديك كنيسة - على مبعـدة تقلّ عن ثمانمئة ياردة من أيّ جسر . »

فقال السائق : « كنت واثقاً من أنه لا بد أن يكون في ذلك عظة ، يا سيدي . »

كانا قد تخطّيا ، الآن ، الدارة المدمرة ، وانطلقا في الطريقة المستقيمة وشجراتُ الصفصاف النامية على مقربة من الخنادق لا تزال داكنة بحكم فصل الشتاء ، والحقول حافلةٌ بشجرات التوت . وأمامهما كان رجل يدير برجليه درّاجة ، مستعملاً كلتا يديه من أجل قراءة احدى الصحف .

فقال السائق : « اذا كان ثمة مدفعية ثقيلة فيتعين على العظة ان تقول ميلاً واحداً . اليس هذا قريباً الى الصواب ، يا سيدي ؟ »

فأجابه الكولونيل : « واذا كان ثمة قذائف موجَّهة يصبح من الافضل جعل المسافة مئتين وخمسين ميلاً . من الخير أن تزمّر ، الآن ، لراكب الدرّاجة . »

وامتثل السائق الأمرَ ، فتحوّل الرجـل الى جانب الطريق من غير ان يرفع بصره أو يمس مِقود الدراجة بيديه . وفيما هما يتجاوزانه ، حاول

---

١ - Giotto رسام ونحات فلورنسي شهير ، ولد حوالى عام ١٢٦٦ وتوفي عام ١٣٧٧ . (المعرب)

الكولونيل ان يرى أية صحيفة كان يقرأ ، ولكنها كانت مطوية . »

– « يخيل اليّ ان من الخير للمرء الآن ان لا يبني لنفسه بيتاً أنيقاً او كنيسة وأن لا يكلف من ذكرت برسم اللوحات الجدارية له – من كان هذا الذي ذكرته ؟ »

– « لقد ذكرت غيوتو . ولكن من الجائز ان يكون « بييرو ديلاّ فرانسيسكا »[1] أو « مانتينيا »[2] . وقد يكون ميكال آنجلو . »

فسأله السائق : « هل تعرف اشياء كثيرة عن الرسامين ؟ »

كانا الآن قد انتهيا الى جزء من الطريق ذي امتداد مستقيم ، وكانا مسرعين بحيث أختلطت المزارع – على نحو مشوّش تقريباً – بعضها ببعض ، وبحيث لم يكن في امكانك ان ترى إلا ما هو أمامك في المدى البعيد ، وما كان مقبلاً نحوك . كانت الرؤية الجانبية مجرد تكثيف للريف الخفيض المستوي في الشتاء . انا لست واثقاً من انني احب السرعة ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . ولقد كان خليقاً بـ «بروغهيل»[3] أن يكون في أسوأ حال لو تحتم عليه أن يرى الى الريف على هذا النحو.

– « الرسامين ؟ » كذلك اجاب عن سؤال السائق . « أنا لا اعرف عنهم إلا النزر اليسير ، يا بيرنهام . »

– « أنا جاكسون ، يا سيدي . ان بيرنهام هناك في مركز الاستراحة في كورتينا . انه مكان رائع ، يا سيدي . »

فقال الكولونيل : « لقد بدأت أخرف . اعذرني ، يا جاكسون .

---

١ – Piero Della Francesca رسام ايطالي ولد حوالى عام ١٤٢٠ وتوفي عام ١٤٩٢ (المعرب) .

٢ – Mantegna رسام ونقاش ايطالي ، ولد عام ١٤٣١ وتوفي عام ١٥٠٠ (المعرب)

٣ – Brueghel رسام فلاندري اشتهر بلوحاته التي تمثل جمال الريف ١٥٢٥ ؟ – ١٥٦٩ (المعرب) .

ذلك مكان رائع . وطعام جيد . انت تغالي في الامراع . ان احداً لا يزعجك . »

فأقرّه جاكسون على ذلك قائلا : « نعم يا سيدي » والآن ، ان السبب الذي من اجله سألتك عن الرسامين هو صور السيدة العذراء . لقد اعتقدت ان علـيّ ان ارى بعض اللوحات الفنية فلم يكن مني الا ان ذهبت الى ذلك المتحف الضخم في فلورنسة . »

– « الأوفيزي ؟ البيتّي ؟ »

– « سمّه ما شئت » لقد ذهبت الى اكبر تلك المتاحف . ولقد ظللت انظر الى تلك الرسوم الزيتية حتى شرعت صور السيدة العذراء تجري من اذنيّ . اقول لك ، أيها الكولونيل ، يا سيدي ، ان الرجل غير المتمتع بثقافة فنية حسنة لا يستطيع أن يرى عدداً كبيراً من صور السيدة العذراء من غير أن تثور أعصابه . لقد فهمتَ نظريتي ؟ أنت تعلم ولوع الناس بالأولاد ، وانه كلما قل الطعام المتوفر عندهم زاد عدد الأولاد الذين أنجبوهم أو الذين سوف ينجبونهم ... حسناً ، يخيلّ اليّ ان هؤلاء الرسامين كانوا في اغلب الظن محبين كباراً للاولاد ، مثل جميع الايطاليين . أنا لا اعرف اولئك الذين ذكرتهم منذ لحظة ، ومن أجل ذلك لا أُدْخِلهم ضمن نطاق نظريتي ، ولسوف تصحّحني على اية حال . ولكن يبدو لي وكأن صور السيدة العذراء هذه التي رأيت في الواقع كثيراً منها ، يا سيدي ... يبدو لي وكأن رسّامي هذه الصور العاديين كانوا ظاهرةً ما من ظواهر مسألة حب الأولاد هذه ، ان كنتَ فهمتَ ما أعنيه . »

– « مضافاً الى هذه الحقيقـة ، وهي انهم قَصَروا أنفسهم على الموضوعات الدينية . »

– « نعم ، يا سيدي . واذن ، فأنت تعتقد أن في نظريتي شيئاً من الصحة ؟ »

– « من غير ريب ، ولكني أحسب أنها معقّدة بعض الشيء . »

– « هذا طبيعي ، يا سيدي .. إنها مجرد نظرية تمهيدية . »

– « هل لديك أية نظريات اخرى في الفن ، يا جاكسون ؟ »

– « لا ، يا سيدي . أن نظرية الأولاد تلك هي أقصى ما فكرتُ فيه . ومع ذلك فأني أتمنى لو يرسمونَ بعض اللوحات الجيدة التي تمثل تلك الارياف المرتفعة المحيطة بمركز الاستراحة في كورتينا . »

فقال الكولونيل : « لقد وُلدِ تيتيان [1] هناك . أو هذا مايقولونه على الأقل . لقد هبطت ذلك الوادي وشاهدت المنزل الذي يُفترض أنه وُلد فيه . »

– « هل كان موطناً رائعاً ؟ »

– « ليس الى حد بعيد . »

– « حسناً ، لو أنه رسم بعض اللوحات التي تمثل ذلك الريف المحيط بمركز الاستراحة هنـاك ، مع تلك الصخور المصطبغة بلون الغروب ، ومع شجرات النخيل ، والثلج ، وجميع تلك الابراج المستدقة .. »

فقال الكولونيل : « الكامبانيلات [2] . مثل ذلك البرج الذي تراه أمامك عند سيفيا . »

– « حسناً ، لو أنه رسم أيما لوحات جيدة فعلاً تمثل ذلك الريف اذن لحرصتُ كل الحرص على شراء بعضها منه . »

فقال الكولونيل : « لقد رسم بعض النسوة الفاتنات . »

فقال السائق : « لو كنت أملك محششة ، أو نُزُلاً على الطريق ، أو خاناً من الخانات ، لكان في استطاعتي أن استعمل واحـــدة من تلك اللوحات . أما اذا حملت الى البيت صورة امرأة ما ، فعندئذ

---

١ – Titian رسام ايطالي عظيم ، ولد حوالى عام ١٤٧٧ وتوفي عام ١٥٧٦ .

٢ – campaniles لفظة ايطالية تعني ابراج الاجراس ، وقـد ابقيناها بلفظها الاجنبي لأن المؤلف عمد الى شرحها على لسان الكولونيل كما يلاحظ القاريء . (المعرب)

تطردني زوجتي من راولنز الى بافالو . ولسوف أكون سعيداً اذا وصلت الى بافالو سالماً . »

– « في استطاعتك ان تقدّمها الى المتحف المحليّ . »

– « كل ما عندهم في المتحف المحـليّ نصال سهام ، وخوذ حربية ، ومُدىً تسلخ جلد الرأس ، وجماجم مختلفة ، وسمك متحجر ، وبيبات (أو غلايين) تبغ كان يستعملها الهنود الحمر ، وصور فوتوغرافية لجونستون آكل الأكباد ، وجلد رجل شرير كانوا قد شنقوه وكان احد الأطباء قد سلخه عنه سلخاً . وهكذا ترى أن تعليق أيما لوحة من تلك اللوحات النسوية ، في ذلك المتحف ، هو من باب وضع الشيء في غير محله . »

فسأله الكولونيل : « هل ترى برج الاجراس التالي القائم هناك عبر السهل ؟ سوف أريك مكاناً هناك حيث كان من دأبنـا أن نقاتل عندما كنتُ غلاماً . »

– « وهل قاتلت هنا ، ايضاً ، يا سيدي ؟ »

فقال الكولونيل : « أجل . »

– « من كان مسيطراً على تريبستا في تلك الحرب ؟ »

– « الكراوتس .[١] النمساويين أعني . »

– « وهل استولينا نحن عليها في وقتٍ ما ؟ »

– « لم نستولِ عليها إلا عند نهاية الحرب ، بعد ان انتهى كل شيء . »

– « ومن كان مسيطراً على فلورنسا وروما ؟ »

– « نحـــن . »

– « حسناً ، يخيـل اليّ أننا لم نكن في حـــال رديئة الى حد لعين آنذاك . »

فقال الكولونيل في لطف : « قل سيدي . »

---

١ – the Krauts

فسارع السائق الى القول : « أنا آسف ، يا سيدي . لقد كنت في الغرفة السادسة والثلاثين ، يا سيدي . »

– « لقد رأيتَ الكتافة . »

– « كنت افكر في الرابيدو [1] ، يا سيدي . أنا لم أرِدْ ان اكون وقحاً أو قليل الاحترام . »

فقال الكولونيل : « لا ، انت لم ترد ذلـــك . كنت تفكر في الرابيدو ليس غير . اسمع ، يا جاكسون ، ان كل من سلخ فترة طويلة في الجندية كان له « رابيدو » خاص به ، أو اكثر من رابيدو واحد . »

– « لم يكن في امكاني أن آخذ اكثر من واحد ، يا سيدي . »

واخترقت السيارة مدينة سان دونا دي بيافا البهيجة . كانت عامرة وجديدة ، ولكنها لم تكن اكثر قبحاً من مـــدن الغرب الاوسط في الولايات المتحدة ، وكانت مزدهرة مبتهجة بقدر ما كانت فوسّالتــا ، القائمة هناك على منبع النهر ، بائسة كئيبة ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . ألم تتعافَ فوسّالتا من داء الحرب العالمية الأولى البتة ؟ أنا لم ارها قط قبل ان تدمَّر ، كذلك قال في ذات نفسه . لقد قصفوها قصفاً عنيفاً قبل الهجوم الكبير في الخامس عشر من حزيران (يونيو) عام ثمانية عشر . ثم قصفناها نحن قصفاً قاسياً حقاً قبل ان نستردها . وتذكـَّرَ كيف بدأ الهجوم من مونتاستيه ، واجتـــاح فونايس ، وفي ذلك اليوم الشتوي تذكـَّر كيف جرت الامور ذلك الصيف .

ومنذ بضعة أسابيع خلَتْ كان قد جاس خلال فوسّالتا ، وكان قـــد مضى فسلكَ الطريق الغائرة بحثاً عن الموضع الذي كان قد اصيب فيه ، عند ضفة النهر . ولم يكن من العسير عليه أن يجد ذلكَ الموضع بسبب من التواء النهر ، وفي المكان الذي كان مركز المدفعية الثقيلة قائماً فيه

---

[1] – نهر في ايطالية . (المعرب)

كانت الفجوة التي أحدثها الانفجار في الارض مكسوة بعشب ناعم. كانت قد حصدتها بعض الخراف او الماعز حتى بدت أشبه بوهدة اصطناعية في ميدان غولف. هنا كان النهر يجري بطيئاً، وكان ازرق موحلاً. وقد اكتنف القصب حافاته. واذ لم تقع عين الكولونيل على احد فقد جلس القرفصاء، وراح ينظر عبر النهر من الضفة التي لم يكن في ميسورك ان تُطلع فيها رأسك في ضوء النهار، واسترخى في عَيْن ذلك الموضع الذي كان قد قرّر، من طريق تحديد المكان بالمَسْح التثليثي، أنه جُرح فيه على نحو بليغٍ لثلاثين سنة خلت.

— «جهد ضئيل»، كذلك قال في صوت عالٍ مخاطباً النهر وضفة النهر اللذين كانا كئيبين بسَكينة الخريف، نديّيْنِ بأمطاره. «ولكنه جهدي أنا.»

ونهض وأجال طرفه في ما حوله. لم يكن في مدى البَصَر احد، وكان قد غادر السيارة هناك في الطريق الغائرة قبالة آخر وأحزن بيت اعيد بناؤه في فوسالتا.

— «الآن سوف اتمّ اقامة النُّصب التذكاري»، كذلك قال موجهاً الخطاب الى الموتى ليس غير، واخرج من جيبه مطواة كبيرة عتيقة من مطاوي سولنجن[1] كتلك التي يحملها سُرّاق الصيد الالمان. وثُبّتَت شفرتها عند الفتح، فما كان من الكولونيل إلا ان برَمَها وحفر حفرة أنيقة في التربة الندية، ونظف المطواة على فردة حذائه العسكري اليمنى ثم أقحم في الحفرة ورقة نقدية سمراء من فئة العشرة آلاف لير، ثم طمرها بالتراب ووضع العشب الذي كان قد اقتلعه فوقها.

وقال: «هذه عشرون سنة، بخمسمئة لير للسنة الواحدة، من أجل «المدالية الفضيـة للبسالة العسكرية» Medaglia d'Argento al Valore

١ – مدينة في غرب المانيا شهيرة بفولاذها.

Militaire . إن الـ « في . سي » .V.C [1] ليغلّ عشرة جنيهات ، في ما أعتقد . والـ « دي . اس . سي » D.S.C [2] عقيم لا ينتج شيئاً . أمـا النجمة الفضية فمجانية . ولسوف احتفظ بالباقي . »

إنه رائعٌ الآن ، كذلك قال في ذات نفسه . إنه يشتمل على زبل ، ومال ، ودم . انظر كيف ينمو العشب . والحديد مغروس في الارض الى جانب رِجـــل جينو ، ورجَليْ راندولفو الاثنتين ، ورَضْفتي [3] اليمنى . انه نُصبٌ رائع . نصب يتمتع بكل شيء . خِصب ، ومال ، ودم ، وحديد . وهو يبدو لي وكأنه أمة . حيث يوجـد الخصب ، والمال ، والدم ، والحديد ؛ تلك هي ارض الوطن . ومع ذلك فنحن في حـاجة الى فحم حجري . يتعين علينا أن نجيء بشيء من الفحم الحجري .

ثم انه نظر عَبْرَ النهر الى البيت الابيض الذي أعيد بناؤه والذي كان في وقت مضى حجارة صغيرة ، وبصق في النهر . كانت بصقة طويلة ، ولقد افتعلها افتعالاً .

وقال : « لم يكن في ميسوري أن أبصق تلك الليلة وما بعدهـــا طوال فترة غير قصيرة . ولكني أبصق الآن أحسن ما يكون البصق بالنسبة الى رجل لا يمضغ اللـُبان . »

وقال : « استيقظ يا بنيّ . استدر بها واسلكِ الطريق المفضية الى تريفيزو . لن نحتاج الى خريطة في هذا الجزء من البلاد . سوف ارشدك الى الاتجاه عند كل منعطف . »

---

١ – يقصد وسام « صليب فيكتوريا » Victotia Cross (المعرب) .

٢ – يقصد وسام «صليب الخدمة الممتازة» Distinguished Service Cross (المعرب) .

٣ – الرضفة : عظم الركبة المتحرك .

٤

كان الآن في سبيله الى البندقية ، محتفظاً برباطة جأشه على نحـــو صارم ، غير مفكر في حاجته الملحة إلى ان يكون هناك . وكانت سيارة «بيوويك» الكبيرة قد اجتازت الجزء الاخير من مدينة «سان دونا» ، وتقدمت نحو الجسر القائم فوق نهر «بيافا» .

وعَبرا الجسر ، وانتهيا الى الجانب الايطالي من النهر ، فرأى الطريق القديمة الغائرة كرة اخرى . كانت الآن ممهدة وغير جلية ، كما كانت على طول النهر . ولكنه استطاع أن يلمح المواقع القديمة . والآن وعلى كل جانب من جانبي الطريق المستقيمة المستوية المكتنَفَة بالقناة والتي انطلقا فيها بسرعة بالغة ، كانت شجرات صفصاف القناتين اللتين اشتملتا في وقت ما على جثث القتلى . كانت قد جرت مذبحة عظيمة في ختـــام الهجوم ، وكان بعضهم قد اصدر أمره ـ لتحرير الطريق والمواقع القائمة على ضفة النهر ، في ذلـــك الجو القائظ ـ بأن تلقى جثث القتلى في القناتين . ولكن أبواب القناتين كانت لا تزال ، لسوء الطالع ، في أيدي النمساويين ، عند مصب النهر ، وكانت موصدة .

وهكذا حُرمت المياه القدرة على الحركة ، إلا قليلاً ، فلبثت الجثث هناك فترة طويلة ، طافيةً منتفخةً وقد تمدّد بعضها على الظهر وبعضها على الصدر ، بصرف النظر عن القومية والجنسية ، حتى تضخمت تضخماً

هائلا . وأخيراً ، بعد انشاء الحكومة ، رفعتها جيوش العمال من هناك ، تحت جنح الظلام ، ودفنتها على مقربة دانيـــة من الطريق . والتمس الكولونيل مزيداً من الاخضرار غير بعيد عن الطريق ولكن بصره لم يقع على شيء من ذلك . بيد أنه كان في القناتين كثير من البط والاوزّ ، وكان الناس يصطادون السمك فيها على طول الطريق .

لقد اخرجوا الجثث كلهـا من هناك على أية حـــال ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، ودفنوها في تلك المقبرة الكبيرة المحـاذية لـ « نيرفيزا » .

وقال الكولونيل للسائق : « لقد حاربنا هنا يوم كنت غلاماً . »

فقال السائق : « إنه ريف شديد الاستواء الى حد لعين يجعله غير صالح للقتال . هل استوليتم على ذلك النهر ؟ »

فأجابه الكولونيل : « أجل . لقد استولينا عليه ، ثم خسرناه ، ثم استرجعناه كرّة أخرى . »

– « ليس ثمة أي خطّ حديديّ هناك ، على مدى ما يسرح النظر . »

فقال الكولونيل : « تلك كانت هي المشكلة كان عليك أن تستعمل حدوداً حدّيّةً لم ترها ، فقد كانت بالغة الصّغَر ، وخنادق ، وبيوتاً ، وضفاف قنوات ، ووشائع [1] . كان ذلك الريف اشبه شيء بنورمانديا ، إلا انه اشدّ منها استواءً . واحسب أن القتال هنـــاك كان اقرب ما يكون الى القتال في هولندة . »

– « ليس من ريب في ان هـــذا النهر لا يشبه نهر « رابيـــدو » في شيء . »

فقال الكولونيل : « لقد كان نهراً عتيقاً صالحاً . فهناك في عاليته

---

١ الوشيع : سياج من نباتات يحمل حول الحديقة صيانة لها من الطارئين .

كان غزير المياه آنذاك ، قبل أن تنفـّذ هذه المشاريع الكهربائية كلها . وكانت له مجارٍ كثيرة معقدة شديدة العمق بين الحصى والحصباء حين يمسي ضحلاً . »

كان يعلم كم هو مضجرٌ أن يتحدث أيما امرىءٍ عن الحرب التي خاضها الى أيما امرىء آخر فكفّ عن الكلام عليها . إن الناس يفهمون الحرب من زاويتهم الشخصية دائماً ، كذلك قال في ذات نفسه . وإن أحداً لا يُعنى بها ، على نحو تجريديّ ، ما خلا الجنود ، وما أقلّهم . انك تصنعهم صنعاً ، والجنود الصالحون يُقتلون في ساحة المعركة . والى هذا ، فهم يبحثون دائماً عن شيء عنيف بحثاً يجعلهم لا ينظرون أبداً ولا يصغون ابداً . إنهم لا يفتأون يفكرون في ما سيقولونه وفي ما قد يعود عليهم به ذلك القول من تقدّم أو فائدة . ولم يكن ثمة اي حكة في إضجار هذا الغلام ، الذي لم يكن – رغم شعار المشاة و « القلب الارْجواني »[1] والاشياء الاخرى التي يحملها – جندياً بأية حال ،لكن مجرد رجل ألـْبس بالرغم منه بزة عسكرية ، ثم اختار البقاء في الجيش لأغراضه الخاصة .

وسأله الكولونيل : « ماذا كنت تعمل في الحياة المدنية ، يا جاكسون ؟ »

– « كنت شريكاً لأخي في مرأب في راوالنز ، بولاية ويومنغ ، يا سيدي . »

– « وهل ستعود الى هناك ؟ »

فقال السائق : « لقد ُقتِل أخي في المحيط الهادىء ، ولم يكن الغلام

---

١ – Purple Heart مدالية اميركية تمنح لكل من جرح خلال الخدمة العسكرية . (المعرب)

الذي تولى ادارة المرأب غلاماً نافعاً . وهكذا خسرنا ما كنا قد انفقناه على تأسيسه . »

فقال الكولونيل : « هذا مؤسف . »

– « انت على حق الى حد لعين في قولك انه مؤسف » . كذلك قال السائق ثم اضاف : « سيدي » .

ورفع الكولونيل بصره ليرى الى الطريق .

كان يعلم أنهما ان واصلا الانطلاق في هذه الطريق فسوف يصلان ، عما قريب ، الى ذلك المنعطف الذي كان ينتظر بلوغه . ولكنه كان نافد الصبر .

وقال للسائق : « افتح عينيك جيداً وانعطف الى يسارك على الطريق التي تبعد بنا عن بوابة المكوس هذه . »

– « هل تعتقد ان هذه الطرق المنخفضة سوف تصلح لانطلاق هذه السيارة الكبيرة ، يا سيدي ؟ »

فقال الكولونيل : « سوف نرى . يا للجحيم ، أيها الرجل ، ان السماء لم تمطر هذه الاسابيع الثلاثة . »

– « أنا لا اطمئنّ الى هذه الطرق الجانبية في هذا الريف الخفيض . »

– « اذا ما تعذر علينا السير في تلك الطرق فسوف أكلف الثيران باخراجك منها . »

– « لقد كنت افكر في السيارة ليس غير ، يا سيدي . »

– « حسناً ، فكّرْ في ما قلته لك ، وانعطف عند أول طريق تجدها الى يسارك اذا بدا لك أن ذلك امرٌ عمليّ . »

فقال السائق : « ذلك يبدو أشبه شيء بانبثاق المرء ... من الوشائع . »

– « ليس ثمة شيء وراءك البتة . كل ما عليك ان تفعله هو ان تقود السيارة الى ما وراء المنعطف بقليل ، ولسوف أعبرُ والقي نظرة . »

وترجّل من السيارة ، ومشى عبر الطريق العريضة الصلبة السطح

والقى نظرة على الطريق الضيقة القذرة ، وقد قامت الى جانبها القناة لمتدفقة ، ونهض خلفها الوشيع الكثيف . وخلف الوشيع رأى بيتاً خفيضاً أحمر قائماً وسط مزرعة ، وعلى مقربة منه عنبر ضخم . كانت الطريق جافة . ولم يكن فيها حتى أخاديد عربات نقل . ثم إنه انقلب عائداً الى السيارة .

وقال : « إنها جادة مشجّرة . أقلِعْ عن القلق . »

- « امرك ، يا سيدي . انها سيارتك ، يا سيدي . »

فقال الكولونيل : « أدري . وأنا لم أفرغ بعد من دفع أقساطها . قل لي ، يا جاكسون ، هل تعاني دائماً هذا العنت كله كلما انتقلت من طريق سلطانية الى طريق ثانوية ؟ »

- « لا ، يا سيدي . ولكن ثمة فرقاً كبيراً بين سيارة جِيب وبين سيارة منخفضة الأحشاء مثل هذه . هل تعرف ما هو ارتفاع هيكل هذهِ السيارة وترسها التفاضلي (ديفيرنسيال) عن الأرض ؟ »

- « ان عندي في صندوق السيارة مجرفة وبعض السلاسل . انتظر حتى ترى الى أين نحن ذاهبان بعد أن نغادر البندقية . »

- « وهل سنجتاز الطريق كلها بهذه السيارة ؟ »

- « لست ادري . سوى أرى . »

- « فكر في حواجز الاصطدام التي زُوّدت بها سيارتك ،يا سيدي . »

- « سوف نختصر هذه الحواجز ، كما يفعل الهنود الحمر في اوكلاهوما . انها الآن مثقلة بالحواجز . بل انها مثقلة اكثر مما ينبغي بكل شيء ما خلا المحرك .. ان لها محركاً رائعاً ، يا جاكسون . »

- « انه رائع من غير شك ، يا سيدي . وانه لمن المتعة أن يقود المرء هذا المحرك الضخم فوق الطرق الصالحة . وهذا هو السبب الذي من أجله لا اريد أن يصيبها أيّ شيء . »

- « هذا جدّ جميل منك ، يا جاكسون . والآن كفّ عن التألم . »

— « لست أتألم ، يا سيدي . »
فقال الكولونيل : « حسن . »
ولم يكن هو الآخر متألماً ايضاً . لأنه رأى في تلك اللحظة ، خلف خط الاشجار السمراء المتراصّة القائم أمامه ، مركباً شراعياً يجري . كان مركباً شراعياً كبيراً أحمر ، منحرفاً الى ادنى انحرافاً حـاداً ، متهادياً في أناة خلف الاشجار .
لماذا يهز نياط قلبك ، دائماً ، ان ترى شراعاً يجري في الريف ؟ كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . لماذا يهز نياط قلبك أن ترى الثيران الكبار ، البِطاء الشاحبة ؟ لا ريب في ان ذلك راجع الى تهاديها ، بقدر ما هو راجع الى مظهرها ، وحجمها ولونها .
ولكن مشهد بغل ضخم رائع ، او صفٍ من بغال النقل في حالة جيدة ، خليق به ان يهز نياط قلبك أيضاً . وكذلك شأنُ القَيُّوط[1] ، كلما قدّر لي أن أرى قيُّوطاً ، وشأن الذئب ، الذي يمشي كما لا يمشي ايّ حيوان آخر ، رمادياً واثقاً من نفسه ، حاملاً ذلك الرأس الثقيل ذا العينين الراشحتين بالعداوة والبغضاء .
— « هل قدّر لك ان ترى ايما ذئب في راولنز ، يا جاكسون ؟ »
— « لا ، يا سيدي . لقد انقرضت الذئاب قبل ايامي . لقد دسُّوا لها السم في الطعام . ولكن القيّوط عندنا كثير . »
— « هل تحب القيوط ؟ »
— « انا احب ان اسمع صوته في الليل . »
— « وكذلك أنا . إني احب ذلك اكثر من اي شيء آخر ، ما خـلا رؤية مركب شراعي يتهادى في مياه الريف . »
— « هو ذا مركب يفعل ذلك ، هناك ، يا سيدي . »
فأجابه الكولونيل : « في قناة سايل . انه مركب نقل شراعي

---

١ — القيوط coyote : ضرب من الذئاب الاميركية .

ذاهب الى البندقية . الريح تهب من ناحيـة الجبال الآن وهي تدفعـه دفعاً حسناً . ومن المحتمل ان يشتد البرد الليلة اذا استمرت الريح في الهبوب ، ولا بد ان تجلب عدداً كبيراً من البط . انعطف الى يسارك ، هنا ، ولسوف ننطلق في محاذاة القناة . ان هناك طريقاً جيدة . »

ـ « لم يكن ثمة ، في مسقط رأسي ، صيد بط يستحق الذكر . ولكن ثمة صيداً وافراً في نبراسكا على محاذاة البلاتّا [1] »

ـ « اتريد أن تصطاد البط في المكان الذي نقصد اليه ؟ »

ـ « لست اعتقد ذلك ، يا سيدي . انا لست قناصاً بارعاً ، واني لأوثر البقاء في تلك السترة القصيرة الفضفاضة . إنه صباحُ يوم من ايام الأحد ، كما تعلم . »

فقال الكولونيل : « أعلم . في استطاعتك ان تبقى في تلك السترة حتى الظهر ، اذا شئت . »

ـ « لقد جئت بدوائي المزيل للطفـح الجلدي . ان عليّ ان أنام نوماً عميقاً . »

فقال الكولونيل : « لست واثقـاً من انك ستحتاج اليه . هل جئت بشيء من جرايات الطوارىء أو من « العشرة في واحد » ؟ من المحتمل ان يَطْعموا مآكل ايطاليةً ، كما تعلم . »

ـ « لقد جئت ببعض المعلبات لأكمال النقص وباشياء قليلة أخرى لتقديمها اليهم . »

فقال الكولونيل : « هذا حسن . »

كان الآن ينظر قدامه ليرى أين تلتقي طريق القناة بالطريق السلطانية الرئيسية كرة اخرى . وهناك كان واثقاً من انه سوف يراها في يوم صاحٍ كيومِهِ ذاك . وعبر الأراضي السبخة ـ السمراء مثل تلـــك

---

[1] ـ Platte نهر معروف في نبراسكا الوسطى ، بالولايات المتحدة . (المعرب)

الاراضي المنبسطة عند مصابّ المسيسيبي حول «بيلوت تاون» في الشتاء، وقد انحنت قصباتها تحت ريح الشمال العنيفة – رأى برج الكنيسة المربع في تورشيلو، وبرج اجراس بورانو السامق خلفه . كان البحر ازرق أردوازياً، وكان في ميسوره ان يرى اشرعة اثني عشر مركباً من مراكب النقل المتهادية مع الريح في اتجاه البندقية .

سوف يتعين عليّ ان انتظر حتى نعبر نهر «ديز» فوق «نوغيرا» لأراها احسن رؤية، كذلك قال في ذات نفسه . انه لمن الغريب ان أتذكر كيف قاتلنا بعيداً هناك على طول القناة، ذلك الشتاء، لكي ندافع عنها من غير أن نراها قط . ثم اني وجدت نفسي، ذات مرة، على ابواب نوغيرا، وكان الجو صافياً بارداً كشأنه اليوم، ورأيتها عبر المـــاء . ولكن لم ادخلها قط . ومع ذلك فهي مدينتي، لأني قاتلت من اجلها يوم كنت غلاماً . والآن وقد بلغت من العمر نصف قرن يعرف الناس اني قاتلت من اجلها واني شريك لهم في ملكيتها، وهم يحسنون معاملتي .»

وسأل نفسه : «أتحسب ان هذا هو السبب الذي من اجله يحسنون معاملتك ؟»

ربما، كذلك قال في ذات نفسه . لعلهم يحسنون معاملتي لاني كولونيل غِرّ من رجال المعسكر المُنتصر . ولكني لا اصدّق هـذا . وعلى اية حال فلست ارجو ان يكون الأمر كذلك . هذه ليست فرنسة، كذلك قال في ذات نفسه .

هناك قاتلتَ شاقاً طريقك الى مدينة تحبها .. مدينة تحاذر محاذرة شديدة ان تكسر فيها شيئاً، وتحاذر، فوق هذا – ان كنت حصيفاً راجح العقل – ان ترجع اليها لانك سوف تلقى فيها بعض الرجـــال العسكريين الذين سينقمون منك انك شققت طريقك اليها بقوة السلاح .

عاشت فرنسة وعاشت البطاطا المقلية . حرية ، ارتشاء ، وبلاهة ! [1] ذلك هو **الصفاء** Clarté العظيم الذي يتّسم به التفكير العسكري الفرنسي. إنهم لم يُطلعوا مفكراً عسكرياً منذ «دو بيك» Du Picq . ولقد كان كولونيلاً فاشلاً لعينـــاً ايضاً . **مانجين** Mangin ، **ماجينو** Maginot **وغاملان** Gamlin . اختاروا من يحلو لكم ، ايها السادة . هي ذي ثلاثة مذاهب . الاول يقول : انا اضربهم على الأنف . الثاني يقـــول : أنا اختبيء وراء الشيء الذي لا يحمي جناحي الأيسر . الثـالث يقول : أنا اخبيء رأسي في الرمل مثل النعامة ، واثقاً من عظمة فرنسة كدولة عسكرية ثم اولي الادبار .

إن قولي « أولي الادبار » ليؤدي المعنى في كثير من الدعابة والظَّرْف . وليس من ريب ، كذلك قال في ذات نفسه ، انك كلما غاليت في تبسيط الاشياء كان حكمك ظالماً . تذكَّرْ جميع العسكريين النابهين الذين أطلعتهم « المقاومة » ؛ تذكَّرْ ان « فوش » برع في القتال والتنظيم معاً ، وتذكَّرْ كم كان الناس رائعين . تذكّر اصدقاءك الحميمين ، وتذكَّرْ موتاك . تذكَّرْ اشياء كثيرة ، وخيرَ اصدقائك كرة اخرى ، وأروع الناس الذين تعرفهم . لا تكن لاذعاً ولا مغفلاً . وأيّ صلة لهذا بالجندية كصناعة ؟ عَدِّ عن هذا ، كذلك قال في ذات نفسه . فأنت تقوم برحلة للترويح عن النفس .

وقال : « هل أنت سعيد ، يا جاكسون ؟ »

— « نعم ، يا سيدي . »

---

١ — هذه الجملة المنضدة بحرف اسود اثبتها المؤلف بلفظها الفرنسي هكذا :

Vive la France et les pommes de terre frites . Liberté , Venalité, et Stupidité .

– « حسن . سوف ننتهي عما قريب الى مشهد أريدك أن تراه . وليس عليك الا ان تسرّح طرفك فيه . ان العملية كلها سوف تكون غير مؤلمة البتة . »

لست ادري لأي غرض يُناكدني الآن ، هكذا قال السائق في ذات نفسه . ألمجرد أنه كان « بريغادير جنرال »[1] في يوم من الأيام يظن أنه يعرف كل شيء ؟ ولو قد كان ناجحاً في النهوض باعباء رتبته العسكرية تلك فلمَ لم يحتفظ بها ؟ لقد خُفِق خفقاً شديداً جعله مزيجاً من بلادة وخَبَل .

وقال الكولونيل : « هو ذا المشهد ، يا جاكسون . أوقفِ السيارة عند جانب الطريق ، ولنلقِ نظرة . »

ومشى الكولونيل والسائق الى الجانب البندقي (الفينيسي) من الطريق ، والقيا نظرة عبر اللاغون[2] الذي كانت تُلهبه سياط الريح القارسة الهوجاء المنبعثة من الجبال ... تلك الريح التي جعلت خطوط المباني كلها حادة الزوايا فهي واضحة من وجهة هندسية .

وأومأ الكولونيل قائلاً : « هي ذي تورشيلو قِبالتنا مباشرة . في ذلك المكان عاش الناس الذين اخرجهم القوط الغربيون من البر الأصلي . لقد شيدوا تلك الكنيسة التي تراها هناك ببرجها المربّع . وانما عاش ثمة في يوم من الايام ثلاثون الف نسمة ، وقد بنوا تلك الكنيسة لكي يمجدوا إلـٰههم ويعبدوه . وبعد أن بنوهـا غصّ مصبّ نهر « سايل » بالطميْ ، أو غيّر الطوفان معالمه ، فاذا بكامل تلك الارض التي انتهينا

---

١ – في الجيش الاميركي ، مرتبة بين الكولونيل والجنرال . (المعرب)

٢ – المستنقع أو البحيرة الضحلة وخاصة ما اتصل منها بالبحر أو قرب منه .

اليها منذ لحظات مُغرقة ، واذا بها تُطلّع البعوض وتُمنّى بالملاريا . وشرع الناس كلهم يموتون ، وهكذا اجتمع شيوخ القوم وقرّروا الارتحال الى موطن صحيّ يمكن الدفاع عنه بالمراكب ، موطن يتعذر على القوط الغربيين وعلى اللومبارديين وغيرهم من قطاع الطرق أن يبلغوهم فيه ، لأن قطاع الطرق هؤلاء لم تكن لديهم أية قوة بحرية . وكان غلمان تورشيلو كلهم ملاّحين ماهرين . وهكذا نقلوا حجارة بيوتهم كلها في مراكب شراعية ، مثل تلك التي رأيناها منذ لحظة ، وبنوا البندقية . »

وأمسك عن الكلام . ثم قال : « هل أوقع الضجر في نفسك ، يا جاكسون ؟ »

ـ « لا ، يا سيدي . لم تكن لديّ أي فكرة عن بُناة البندقية الأولين . »

ـ « انهم غلمان تورشيلو . كانوا قوماً أشداء ، وكان لهم في البناء ذوق رفيع . لقد اقبلوا من موطن صغير عند الشاطىء يدعى كاوورل . ولكنهم وُفقوا الى حمل جميع سكان المدن والقرى المجاورة على اتّباعهم عندما اجتاحها القوط الغربيون . ولقد كان فتىً تورشيلياً ذلك الذي كان يهرّب الاسلحة الى الاسكندرية ، والذي وفق الى اكتشاف المكان الذي دفن فيه القديس مرقص فهرّب جثمانه تحت حمل من لحم الخنزير الغضّ لكي يعجز حرس الكفار عن صدّه . وهذا الفتى حمل رفات القديس مرقص الى البندقية ، وذلك القديس هو شفيعهم ، ولقد بنوا له كاتدرائية . ولكنهم كانوا في تلك الفترة قد أوغلوا ، في تجارتهم ، في اتجاه الشرق الى درجة جعلت الصبغة البيزنطية تغلب على فنهم المعماري في ما يخيّل اليّ . إنهم لم يبنوا ما هو افضل منها إلا في نشأتهم الاولى في تورشيلو . انظر . هي ذي تورشيلو هناك حقاً . »

ولقد كانت هناك حقاً .

ـ « ان ساحة القديس مرقص هي حيث تسرح اسراب الحمام ، وحيث تقوم تلـك الكاتدرائية الضخمة التي تبدو وكأنها قصر من قصور السينما . أليست تبدو كذلك ؟ » .

ـ « تماماً ، يا جاكسون . انت على قبة ذلك القصر ، اذا كنت تتصورها هكذا . والآن انظر الى ما وراء تورشيلو فسوف ترى برج الاجراس الرائع فوق بورانو ، ذلك البرج الذي لا يقل ميلانـاً عن برج بيزا المائل . ان بورانو هذه جزيرة صغيرة مكتظة بالسكان أكثر مما ينبغي ، حيث النسوة يصنعن وشياً رائعـاً ، وحيث الرجال يصنعون صـور الطفل يسوع ويشتغلون طوال ساعات النهار في مصانع الزجاج في تلك الجزيرة المحاذية التي تراهـا الى الوراء مع برج الاجراس الآخر ، والتي هي جزيرة مورانو . انهم يصنعون في ساعات النهار زجاجاً رائعاً للأثرياء من الناس في ارجاء العالم كله ، ثم يفيئون الى منازلهم بالزوارق البخارية الصغيرة ويصنعون صور الطفل يسوع . ان احداً منهم لا يخرج مع امرأتـه في الليل . وهم يصيدون البط ، في الليل ، ايضاً ، ببنادق كبيرة ، هناك على طول حـافة الاراضي السبخة في هذا اللاغون الذي تنظر عَبْرَهُ الآن . فأنت تسمع طلقات بنادقهم ، في الليالي المقمرة ، خلال ساعات الليل بطولهـا . »

وأمسك عن الكلام .

ـ « والآن حين تنظر الى ما وراء مورانو ترى البندقية . تلك هي مدينتي . ان ثمة اشياء اخرى كثيرة كان في استطاعتي أن أريك اياها . ولكني اعتقد ان من واجبنا الآن ، في اغلب الظن ، أن ننطلق بالسيارة . ولكن ألقِ نظرة أخيرة وطويلة عليها . هذا هو المكان الذي تستطيع

ان ترى منه كيف حدث ذلك كله . ان احداً لا ينظر اليها من هنا البتـــة . »

– « انه مشهد جميل . شكراً لك ، يا سيدي . »

فقال الكولونيل : « أو . كي . [1] فلننطلق بالسيارة . »

---

١ – O ·K . وتعني : حسن .

٥

ولكنه ظل ينظر اليها ، ولقد كانت جميلة في نظره هازّة لمشاعره كشأنها يوم كان في الثامنة عشرة ورآها اول مرة غيرَ فـاهم اي شيء منها وغير عارف من امرها إلا انها كانت جميلة . كان الشتاء قد أقبل قارساً شديد البرد ذلك العام ، وكانت جميع الجبـــال بيضاء خلف السهل . وكان النمساويون قد استشعروا ضرورة اقتحام خطوط عدوّهم عند الزاوية التي شكـّل فيها نهرُ «سايل» وقاعُ نهر بيافا القديم خطوطَ الدفاع الوحيدة .

لو كنت تسيطر على قاع الـ «بيافا» القديم آنذاك اذن لكان وراءك نهر «سايل» تنكفىء اليه اذا عجز الخط الاول عن الصمود . ووراء الـ «سايل» لم يكن شيء غير سهل مترامي الأطراف ، وشبكة طرق جيدة تفضي الى سهل «فينيتو» وسهول لومبارديا ، ولقد شنّ النمساويون هجومهم مرةً ومرةً في اواخر فصل الشتاء لكي يحاولوا بلوغ هذه الطريق الممتازة التي كانا ينطلقان الآن فيهـا بسيارتها والتي تؤدي الى البندقية مباشرة . وذلـــك الشتاء كان الكولونيل – الذي لم يكن يومئذ غير ملازم ثانٍ ، وفي جيشٍ اجنبي ، وهو ما جعله دائماً في ما بعدُ موضع ارتياب طفيف في جيش بلاده نفسه وجعل حياته العسكرية بعيدة عن النجاح – اقول ذلك الشتاء بطـــوله كان الكولونيل يشكو

التهاباً في الحنجرة . وانما نشأ ذلك الالتهاب في الحنجرة من المكث في الماء اكثر مما ينبغي . لم يكن في ميسورك آنذاك ان تنجو من البلل ، ولقد كان خيراً لك ان تبتلّ بسرعة وأن تظلّ مبتلاً على نحو موصول .

كان حُسن التنسيق يُعوز الهجوم النمساوي ، ولكنهم كانوا يواصلونه في غير انقطاع وكانوا مُحْنَقَين ، فكان عليك بادىء الأمر أن تتلقى القصف الذي كان مفروضاً فيه ان يشلّ نشاطك ، حتى اذا انحسرت موجة القصف القيت نظرة فاحصة على مواقعك وأحصيتَ رجالك . ولكن لم يكن لديك متسع من الوقت للعناية بالجرحى ، اذ كنت تعلم ان الهجوم سوف يُستأنف في الحال ، ثم انك قتلت الرجال الذين اقبلوا مخوّضين في الاراضي السبخة رافعين غداراتهم فوق الماء ، متقدمين بمثل بطء المخوّض في الماء حتى الخصر .

ولو انهم لم يوقفوا القصف عندما بدأ ـ كذلك قال الكولونيل ، الذي كان مجرد ملازم ثان آنذاك ، في ذات نفسه في كثير من الاحيان ـ فلست أدري ما الذي كان في وسعنا ان نفعله . ولكنهم كانوا يوقفونه دائماً ، ثم يستأنفونه بين يَديْ الهجوم .

ولو قد خسرنا نهر «بيافا» القديم وانكفأنا الى نهر «سايل» اذن لصوبوا نيرانهم الى خط القتال الثالث ؛ على الرغم من ان الاحتفاظ بهذين الخطين كان متعذراً ، وكان الواجب يقتضيهم ان ينقلوا مدافعهم كلها الى مقربة دانية جداً وأن يمطروهما بقنابلهم طوالَ فترة هجومهم والى ان يتم لهم إحداث ثغرة في صفوفنا . ولكن مجنوناً ذا رتبة رفيعة يكون على رأس الهجوم دائماً ، والحمد لله . كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، ولقد قاموا بذلك على نحو منجّم متقطّع .

وطوال ذلك الشتاء ، وفيما كان يشكو التهاباً حادّاً في الحنجرة ، قتل رجالاً مزوّدين بأحمال من القنابل معلقّة بكلاليب شدّت تحت

اكتافهم ، حاملين رزماً ثقيلة مصنوعة من جلد العِجل ، وُخوَذاً على شكل دلو . كانوا هم العدوّ .

ولكنه لم يُبغضهم البتة . لا ، ولم يكن بقادر على ان يضمر أيّ حقد عليهم . كان يقود رجاله وقد طوّق حجرته بجورب عتيق نُقِع بزيت التربنتين ، ولقد صدّوا الهجمات بنار الغدّارات وبالبنادق الاوتوماتيكية التي كانت لا تزال في متناولهم ، أو التي كانت لا تزال صالحة للاستعمال ، بعد القصف . لقد علّم رجاله كيف يطلقون النار ، بالمعنى الحقيقي للتعبير ، وهي براعةٌ نادرة في الجيوش الاوروبية ، وعلّمهم ان يكونوا قادرين على النظر الى العدوّ حين يُقبل . واذ كان ثمة دائماً فترات هادئة يصبح فيها اطلاق النار حراً ، فقد أتقنوا ذلك وبرعوا فيه .

بيد أنه كان عليك دائماً ان تحصي وتحصي سريعاً بعد القصف لكي تعرف كم قانصاً بقي لديك . ولقد اصيب ثلاث مرات ذلك الشتاء ، ولكنها كانت كلها جراحاتٍ صغيرة اقتصرت على لحم الجسد ولم تكسر العظم ، وكان قد أمسى على أتم اليقين من حصانته الشخصية بعد ان وثق من أنه كان من حقه أن يُقتَل في قصف المدفعية الثقيلة الذي كان يسبق الهجمات دائماً . وأخيراً اصيب اصابة حقيقية والى الأبد . ان اياً من جراحاته الأخرى لم يقدّر لها ان تفعل به ما فعله هذا الجرح البليغ . يخيلّ اليّ أن ذلك لا يعدو ان يكون ضياعَ الحصانة ، كذلك قال في ذات نفسه . حسناً ، إن هذه لخسارة ضخمة على أية حال .

لقد عَنَتْ هذه البلاد شيئاً كثيراً عنده ، اكثر مما يُحسن أو يستطيع ، أبد الدهر ، الافضاء به الى احد من الناس ؛ ولقد استوى الآن في السيارة سعيداً لأنه سوف يجد نفسه ، بعد نصف ساعة اخرى ، في البندقية . وأخذ قرصَيْ « منيتول هيكسانيترايت » فمنذ أن غدا قادراً دائماً على البَصْق ، ابتداء من عام ١٩١٨ ، أصبح في ميسوره ان يأخذ هذه الأقراص من غير ماء .

وسأل السائقَ : « كيف انت ، يا جاكسون ؟ »
– « عظيم ، يا سيدي . »
– «أسلُكْ الطريق الخارجية اليسرى عندما نبلغ المنعطف المفضي الى ميستر، ولسوف يكون في ميسورنا ان نرى المراكب على طول القناة ونجتنب السير في خط المواصلات الرئيسي هذا . »
فقال السائق : « نعم ، يا سيدي . هل لك ان تنبهني حين نبلغ المنعطف ؟ »
فأجابه الكولونيل : « طبعاً . »
كانا يقتربان من «ميستر» في سرعة ، وكان ذلك اشبه شيء بالذهاب الى نيويورك لأول مرة قدّر لكِ ان تذهب فيها الى هناك ، في الأيام الخالية ، حين كانت مشرقة ، بيضاء ، جميلة . لقد انسللت الى هناك خلسة ، كذلك قال في ذات نفسه . ولكن هذا كان قبل ان تصبح سماؤها ملبدة بالدخان . نحن ذاهبان الى مدينتي ، كذلكَ قال في ذات نفسه . وحق المسيح ، انها لمدينة محببة الى القلب .
واستدارا عند المنعطف الأيسر ، وحاذيا القناة حيث شُدّت مراكب صيد السمك ، ونظر الكولونيل اليها وكان قلبه مبتهجاً بسببٍ من الشِباك السمراء واشراك السمك المصنوعة من أغصان مجدولة ، وصفوف السفن الجميلة النظيفة . ولم يكن ذلك لأنها جدّ ماتعة . الى الجحيم بكل ما هو جد ماتع . لقد كانت جميلة الى حد لعين ليس غير .
واجتازا صف المراكب الطويل في القناة البطيئة التي حملت الماء من الـ «برينتا» ، وفكر في امتداد الـ «برينتا» الطويل حيث كانت الدارات الضخمة ، بمروجها وحدائقها وشجرات الدُلب وشجرات السرو . إني لأتمنى لو أُدْفَنُ هناك ، كذلك قال في ذات نفسه . أنا أعرف المكان معرفة حسنة جداً . ومع ذلك فلست أعتقد أن في امكاني ان ارتّب هذه المسألة . لست ادري . انا اعرف أناساً قد يجيزون لي أن أدفن

في جبانتهم . سوف أسأل البرتو . ولكنه قد يظن ان هـــذا تفكير سوداويّ .

وكان قد فكر منذ فترة بعيدة في جميع المواطن الرائعة التي يتمنى لو يدفن فيها ، متسائلاً : تُرى في اية رقعة من رقاع الارض اودّ أن أفنى بحيث أشكـّل جزءاً منها لا يتجزأ ؟ إن القسم المنتن المتعفن من شخصي لن يدوم ، في الواقع ، دهراً طويلاً ، كذلك قال في ذات نفسه ، وعلى اية حال فأنت مجرد ضربٍ من التبن الذي يُصطنع لوقاية النباتات الصغيرة من الحر أو البرد ، وحتى العظام سوف تكون ذات نفع آخر الامر . إني لأحبُّ ان أُدفن عند حافة الاراضي التابعـــة لذلـــك البيت العتيق الانيق ، ولكن على مرأى منه ومن الشجرات الكبيرة الفارعة الطول . ولست أحسب ان ذلك سينطوي على كبير ازعـــاج لهم . ان في ميسوري أن أصبح جزءاً من الارض التي يلعب فيهـــا الاطفال في الأمسيات ، أما في الأصباح فلعلهم ان يكونوا لا يزالون يدرّبون خيلهم على الوثوب ، ولعل حوافر هـــذه الخيل أن تقرع ارض الحلبة ، ولعل الاطروط[1] ان يثب في البركة حين يشرع الذباب في التفقيص .

وكانا قد أمسيا الآن فوق الطريق المرتفعة الممتدة من ميستر الى البندقية حيث مصانع « بريدا » البشعة التي تذكرّك بمدينة هاموند في انديانا .

وسأله جاكسون : « ماذا يصنعون هناك ، يا سيدي ؟ »

فأجابه الكولونيل : « الشركة تصنع القاطرات في ميلانو . ان القوم هنا يصنعون قليلاً من كل شيء في الحقل التعديني . »

كان مشهد « البندقية » بشعاً الآن ، وكان الكولونيل يكره دائمــاً

---

١ – ضرب من السمك

هذه الطريق المرتفعة ، لولا أنها كانت توقع بعض المتعة في نفسك ، وتتيح لك رؤية القنوات والعوامات الخاصة بأرشاد السفن .

وقال لجاكسون : « هذه المدينة تكسب رزقها بعرق جبينها . لقد كانت في غابر الزمان ملكة البحار ، وابناؤهـا أولو بأس شديد ، وهم يبالون بالاشياء اقلّ مما يبالي كل من سوف يُقدَّر لك ابد الدهر أن تلتقيه . انها مدينة أقسى من شِييَنّ [1] حين تعرفها معرفة جيدة ، وكل امرىء فيها بالغ اللطف والتهذيب . »

– « انا لا اميل الى القول إن شيينّ مدينة قاسية ، يا سيدي . »

– « حسناً ، انها أقسى من كاسبر [2] . »

– « هل تعتبر كاسبر مدينة قاسية ، يا سيدي ؟ »

– « انها مدينة بترولية ، انها مدينة لطيفة . »

– « ولكني لا اظنها قاسية ، يا سيدي . أو أنها كانت في ايما يوم يوم من الايام قاسية . »

– « حسن ، يا جاكسون . لعلنا ندور في حلقتين مختلفتين . أو لعل لكل منا مفهوماً للكلمة مختلفاً . ولكن مدينة البندقية هذه ، وكل مَنْ فيها لطيف مهذّب ، لا تقلّ قسوةً عن « كوك سيتي » ، بولاية مونتانا ، في أيام « أولد تايمرز فيشفراي [3] . »

– « ان ممفيس هي التي تمثل فكرتي عن المدينة القاسية . »

– « انها تمثل هذا الضرب من المدن كما تمثله تشيكاغو . ممفيس ليست قاسية عليك إلا اذا كنت زنجياً . أمـــا تشيكاغو فقاسية شمالاً ،

---

١ – Cheyenne عاصمة ولاية ويومنغ Wyoming بالولايات المتحدة الاميركية (المعرب)

٢ – Casper مدينة في اواسط ولاية ويومنغ بالولايات المتحدة الاميركية (المعرب)

٣ – لعلها أسم حانة أو نحوها . (المعرب)

وجنوبـــاً - ليس هناك شرق - وغرباً . ولكن القوم كلهم يعوزهم التهذيب . أما في هذه البلاد فاذا أردت في أي يوم مــن الايام ان تعرف مدينة قاسية حقاً ، مدينة يعرف الناس فيهـا كيف يأكلون ، أيضاً ، فاذهب الى مدينة بولونيا . »

- « انا لم اذهب الى هناك قط . »

فقال الكولونيل : « حسناً ، هنــاك مرأب «فيات» حيث نؤوي السيارة ، في استطاعتك ان تترك المفتاح في المكتب . انهم لا يسرقون. ولسوف امضي الى الحانة ريثما تؤوي السيــارة فوق . ان لديهم أناساً سوف يجيئوننا بالحقائب . »

- « هل تحسب ان من الحكمة ان تترك بندقيتك وعدة القنص في السيارة ، يا سيدي ؟ »

- « من غير ريب . انهم هنا لا يسرقون . لقد قلت لك ذلك مرة . »

- « لقد أردتُ أن اتخذ الاحتياطات الضرورية ، يا سيدي ، لصيانة ممتلكاتك الثمينة . »

فقال الكولونيل : «انت نبيل الى حدٍّ يجعلك نتنــــاً في بعض الأحيان . انزع الوسخ من اذنيك واسمع ما اقوله لك اول مرة . »

فقال جاكسون : « لقد سمعتك يا سيدي . » ونظر اليه الكولونيل نظرةً ترشح بالتأمل وبطريقته الفتاكة المألوفة .

ليس من ريب في انه ابن عاهرة حقير ، كذلك قـال جاكسون في ذات نفسه ، وإن في ميسوره ان يكون ظريفاً الى حد لعين .

- « اخرج حقيبتي وحقيبتك وأوقفها هناك .وافحص زيتك ، وماءك ، وعجلاتك . » قال الكولونيل ذلك ومشى عبر اسمنت مدخل الحانـة الملطخ بالزيت والمطاط .

٦

وحين دخل الحانة كان يجلس الى المائدة الاولى ثري ميلانيّ[١] من أثرياء الحرب ، بدينٌ جافٍ كما لا يستطيع احد غير ابناء ميلانو ان يكون ، والى جانبه خليلته الفاتنة ذات المظهر المترف . كانا يعاقران شراب الـ «نيغرونيس» ، وهو مزيج من الفيرموت وماء سيلتزر المعدني ، وتساءل الكولونيل عن مقدار الضرائب التي احتال الرجل لعدم دفعها لكي يشتري تلك الفتاة الناعمة ذات السترة الطويلة المصنوعة من فرو النمس الثمين ، وتلك السيارة المكشوفة التي كان قد رأى سائقها يتقدم بها خلال المنحدر الطويل الملتوي لكي يُقفل عجلاتها ، بعدُ ، خشية الانزلاق . وحدّق الرجل وصاحبته اليه بتلك الطريقة غير المهذبة التي ُعرف بها نوعها ، فألقى عليهما التحية ، في فتور ، وقال لهما بالايطالية : «آسف لكوني ارتدي بزة عسكرية . ولكنها بزة عسكرية ، وليست لباساً رسمياً . »

ثم انه ولاّهما ظهره ، من غير أن ينتظر حتى يرى اثر ملاحظته في نفسيهما ، وتقدم نحو المشرب . ومن المشرب كان باستطاعتك ان تراقب امتعتك ، كما كان المتهالكان على الربح المحرم يراقبان امتعتهما .

أغلب الظن انه «كوماندااتور»[٢] ، كذلك قال في ذات نفسه .

---

١ – من مدينة ميلانو.

٢ – فارس من ذوي الرتب العالية.

إنها تحفة جميلة الى حد لعين حقاً . ليت شعري كيف تكون الحال لو قدّر لي ذات يوم ان املك من المال ما يمكّنني من أن اشتري لنفسي شبيهاتهـــا كلهن ، ومن أن ألبسهنّ فراء النمس الثمين ؟ حسناً سوف ادفع ثمن التي عندي ، كذلك قال في ذات نفسه ، وفي استطاعتهن ان يذهبن ويشنقن انفسهن .

وصافحه الساقي (البارمان) . كان هذا الساقي فوضوياً ولكنه لم يجد حرجاً البتة في ان يكون الكولونيل كولونيلاً . كان مبتهجاً بذلك معتزاً به ودوداً من جرّائه ، وكأنه كان للفوضويين كولونيل أيضاً . وخلال الأشهر العديدة التي انقضت على تعارفهما بدا ، بطريقة ما ، وكأنه يستشعر أنه قد اخترع ، أو على الأقل شيد ، الكولونيل كما يجدر بالمرء ان يكون سعيداً بالمشاركة في تشييد برج اجراس ، وحتى في تشييد الكنيسة القديمة في تورشيلو .

وكان الساقي قد سمع الحديث ، او بالأحرى التقرير الرتيب الخـــالي من الحياة ، الدائر على المائدة ، وكان بالغ السعادة .

وكان الكولونيل قد طلب ، من طريق المنضدة المتحركة ، شيئاً من «جِن» [١] غوردون ومن الكامباري . وقال الساقي : «الشراب آتٍ في تلك الأداة التي تُدفع باليدين . كيف يجري كل شيء في تريستا ؟»

- «على الوجه الذي تتخيله ، تقريباً .»

- «انا لا اقوى حتى على التخيل .»

فقال الكولونيل : «اذن لا تجهد نفسك ، وهكذا لن تصاب بداء البواسير ابد الدهر .»

- «لو كنتُ كولونيلاً لما باليتُ بهذا الداء .»

---

١ - الجن والكامباري campari ضربان من الاشربة المسكرة . (المعرب)

ـ « أنا لا ابالي به البتة . »

فقال الساقي : « سوف تُستحَق مثل جرعة من ملح انكليزي . »

فقال الكولونيل : « لا تخبر باسياردي المبجل . »

وضحك هو والساقي لهـذه النكتة لان باسياري المبجل كان وزير الدّفاع في الجمهورية الايطاليـة . كان في مثل سنّ الكولونيل ، وكان قد ابلى في الحرب العالميـة الأولى بلاء حسناً ؛ وكان قد قاتل أيضاً في اسبانية بوصفه قائد كتيبة حيث عرفه الكولونيل عندما كان هو نفسه مراقباً . وكانت الجدّية التي غلبت على باسياردي المبجـل طوال توليّه وزارة الدفاع في بلدٍ لا سبيل الى الدفاع عنه موضع تندّر الكولونيل والساقي معاً . فقد كان كل منهما رجلاً عملياً ، وكان في مجرد تخيّلهما ذلك الرجلَ يدافع عن الجمهورية الايطالية ما يثير تفكيرهما .

وقال الكولونيل : « يبدو لي أن الأمر مضحك هناك . ولست أجد أي بأس في ذلك . »

فقال الساقي : « يتعين علينا أن نُمَكْنِنَ[1] باسياردي المبجل . وأن نزوده بالقنبلة الذرية . »

فقال الكولونيل : « ان لديّ ثلاثاً منها في مؤخر السيارة . انها من الطراز الجديد الكامل غير المنقوص . ولكننا لا نستطيع تركه اعزل من السلاح . يتعين علينا ان نزوّده بميكروب داء الجمرة وبسِمّات الأطعمة . »

وقال الساقي : « ليس في استطاعتنا ان نخذل باسياردي المبجل . فلأن يحيا المرء يوماً واحداً مثل أسد من الاسود خير له من ان يحيا مئة عام مثل خروف من الخراف . »

فقال الكولونيل : « خيرٌ لنا ان نموت واقفين على اقدامنا من ان

---

١ – mechanize ، أي ان تزوده بالعتاد الميكانيكي . (المعرب)

نحيا راكعين على رُكَبنا . على الرغم من انــه من الافضل لك ان تسارع الى الانبطاح على بطنك اذا أردت ان تظل على قيد الحياة في مواطن كثيرة . »

ــ « لا تقل أيّ شيء هدام ، أيها الكولونيل . »

فقال الكولونيل : « سوف نخنقهم بأيدينا العزلاء . ان مليون رجل سوف يسارعون الى حمل السلاح هذه الليلة . »

فسأله الساقي « أيّ سلاح ؟ »

فقال الكولونيل : « كل ما سيقع في متناولهم . انه مجرد مشهد من مشاهد المسرحية الكبرى . »

في تلك اللحظة بالذات وفد السائق ووقف بالباب . وادرك الكولونيل انه لم يراقب ، فيما كانا يتندران ، باب الحانة ، ولقد كان يضيق دائماً بأية غفلة تبدر منه فتنسيه التعلق بأسباب الاحتراس والأمن .

ــ « ما الذي يبقيك هنـاك ، بحقّ الجحيم ، يا جاكسون ؟ هيّا اشرب كأساً . »

ــ « لا . اشكرك يا سيدي . »

يا لك من غرّ مغالٍ في الغرارة ، كذلك قال في ذات نفسه . ثم اضاف مصحّحاً موقفه : ولكن من الخير لي أن أكفّ عن مناكدته .

ــ « لن تنقضي دقيقة واحدة حتى نكون قد ذهبنا » . كذلك قال الكولونيل . « لقد كنت اتعلم الايطالية من صديقي هذا » . والتفت ليرى الى الميلانيّيْن العائشين على الربح المحرّم . ولكنهما كانا قد انصرفا .

لقد بدأت أصبح فاتر الهمة الى حد رهيب ، كذلك قال في ذات نفسه . ان ايما امرىء سوف يكون قادراً الآن على ان يغلبني في ايما يوم من الايام . وربما باسياردي المبجل نفسُه .

وسأل الساقيَ في اقتضاب : « بكم أنا مدين لك ؟ »

فأنبأه الساقي ، ونظر اليه بعينيه الايطاليتين الحكيمتين . انه لم يكن

مرحاً الآن ، برغم أن اسارير المرح كانت واضحة المعالم في حيثما شمّت زوايا عينيه . أنا ارجو ان لا يكون قد ألمّ به أيما خلل ، كذلك قال الساقي في ذات نفسه . أنا اضرع الى الله ، أو ايما شيء آخر ، ان لا يكون قد أصابه مكروه حقيقي .

وقال : « الى اللقاء يا زعيمي . »

فقال الكولونيل : « الى اللقاء . جاكسون ، سوف نهبط المنحدر الطويل ثم نتجه الى الشمال تماماً من المخرج الى حيث أرْسِيت الزوارق البخارية الصغيرة . الزوارق المصقولة أعني . هناك حمال لنقل الحقيبتين . إن من الضروري أن ندعهم يحملونها ما داموا يملكون امتيازاً خاصاً بذلك . »

فقال جاكسون : « نعم ، يا سيدي . »

وخرج من الباب ، ولم يلتفت أي منهما الى أحد .

وعند المهبط المفضي الى الماء نفح الكولونيل الرجل الذي حمل الحقيبتين بشيء من المال . ثم أجال بصره في ما حوله بحثاً عن مراكبيّ يعرفه

ولم يتبيّن الرجل الذي كان في اقرب الزوارق البخارية اليه ، ولكن المراكبي قال : « طاب يومك ، يا زعيمي . أنا الأول . »

ـ « ما الأجرة الى غريتي ؟ »

ـ « انت تعرف ذلك جيداً كما اعرفه ، يا زعيمي . اننا لا نساوم . لدينا تعرفة رسمية . »

ـ « ما هي التعرفة ؟ »

ـ « ثلاثة آلاف وخمسمئة لير . »

ـ « لقد كان في استطاعتنا ان نركب الزورق البخاري الصغير بستين ليراً . »

فقال المراكبي الذي كان رجلاً متقدماً في السن ، ذا وجه احمر ولكنه غير صفراويّ المزاج : « وليس ثمة ما يمنعك من ذلك . انهم لا

يأخذونك الى الـ «غريتّي» ، ولكنهم سوف يقفون بك عند المهبط الذي وراء حانة هارّي ، وفي استطاعتك ان تتلفن طالباً من الـ «غريتي» أن يبعث اليك بمن يحمل امتعتك . »

وأي شيء سأشتريه بالثلاثة آلاف وخمسمئة لير اللعينة ؛ وهذا رجل رجل عجوز طيب .

- « هل تريدني أن ارسل ذلك الرجل الى هناك ؟ » وأومأ الى رجل عجوز متهدم كان يقوم بمهام غريبة ويسعى بالرسائل حول الاحواض ، مستعداً دائما لإسداء المعونة غير الضرورية لِمرْفق المسافر الصاعد او النازل ومستعداً دائماً للمساعدة حين لا تكون ثمة اي حاجة لمساعدة ، باسطاً يده بقبعته اللبادية العتيقة فيما هو ينحني انحناءة الاحترام بعد اداء العمل الذي لا حاجة اليه . « انه سوف يقودك الى الزورق البخاري الصغير . إن ثمة واحداً سيُقبل بعد عشرين دقيقة . »

فقال الكولونيل : « الى الجحيم به ! خذني الى الغريتّي . »

فقال المراكبي : «بكل سرور !»

وخفض الكولونيل وجاكسون رأسيهما ودخلا الزورق البخاري الذي بدا وكأنه مركب من مراكب السباق . كان مصقولاً على نحو مشعٍّ ، وكان مصوناً بكثير من العناية ، مُسيَّراً بمحرّكٍ بحريّ كان في الأصل محرك «فيات» صغيراً خدم طوال مدته المحددة له في سيارة طبيب من اطباء الأقاليم ثم اشْتُرِي من مقابر السيارات ؛ جبّانات الافيال الميكانيكية تلك التي هي الشيء الذي لا بد أن تقع عليه في عالمنا هذا قرب أيما بقعة آهلة بالسكان . وبعد ذلك اعيد تكييفه وخُلق خلقاً آخر ليستهل هذه الحياة الجديدة في قنوات هذه المدينة .

- « كيف تجد هـــذا المحرك ؟ » كذلك سأله الكولونيل . كان في ميسوره ان يضجّ مثل دبابة ، او مثل مدمرة دبابات ، اثخنتها الاصابات ، لولا ان ضجيجه كان مُنَمْنَماً بسبب من فقدان القوة .

فأجابه المراكبيّ : «بين بين» ، وحرّك يده الطليقة بإيماءة متوازية .

– « يتعيّن عليك أن تصطنع اصغر طراز تخرجه شركة يونيفرسال . ذلك هو احسن واخف محرك بحري أعرفه . »

فقال المراكبي : «اجل» ان ثمة بعض الأشياء الصغيرة التي يتعين عليّ أن آتي بها .»

« لعل سنتك هذه ان تكون سنة خصبة . »

– « هذا ممكن دائماً . ان كثيراً من المتهالكين على الربح المحرّم يفِدون من ميلانو ليقامروا في « الليدو » . ولكن أيّاً منهم لا يركب متن هذا الزورق ، مرتين اثنتين ، عن عمد . وهو ، كمركب ، ممتاز أيضاً . إنه مركب مليح حسن البنية . طبعاً ، انه ليس جميلاً مثل غندول . ولكنه يحتاج الى محرك . »

– « قد استطيع أن آتيك بمحرك « جيب » . محركٍ حُكِم عليه بعدم الصلاح ولسوف يكون في امكانك أن تسوّيه وتصلحه . »

فقال المراكبيّ : « لا تتحدّث عن أشياء كهذه . أن اشياء مثل هذه لا تحُدث . أنا لا أريد ان افكر في ذلك . »

فقال الكولونيل : « في استطاعتك ان تفكر فيه . أنا اقول الحقيقة . »

– « انت تعني ما تقول . »

– « من غير ريب . انا لا أضمن أيّ شيء ، ولكني سوف ارى ما الذي استطيع ان افعله في هذه السبيل . كم ولداً لك ؟ »

– « ستة . صبيّان وأربع بنات . »

– « يا للجحيم . يخيَّل اليّ انك لم تؤمن بالنظام .[1] ستة اولاد فقط ؟ »

---

١ – يقصد النظام الفاشيستي ، وكان موسوليني قد دعا ابناء الامة الايطالية الى الاكثار من انجاب الاطفال ووضع الجوائز لتشجيعهم على ذلك ، (المعرب)

ـ « لا ، انا لم اؤمن بالنظام . »

فقال الكولونيل : « لستَ مكلفاً ان تتظاهر أمامي بذلك . فقد كان جدّ طبيعي بالنسبة اليك ان تؤمن بالنظام فعلاً . أتحسب أني أضطغن على رجل ما ، بسبب من ذلك ، بعد أن كسبنا الحرب ؟ »

كانوا ينطلقون الآن في الجزء الرتيب من القناة ، الذي يمتدّ من « بياتزال روما » الى « كافوسكاري » برغم أن أياً من اجزائها ليس رتيباً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .

ليس من الضروري أن يكون المشهد كله قصوراً أو كنائس . إنه ليس رتيباً من غير ريب ، والتفت الى اليمين ، الجانب الأيمن من الزورق ، كذلك قال في ذات نفسه . أنا فوق الماء . كانت بناية طويلة خفيضة سائغة . وكان الى جانبها مطعم .

يتعين عليّ أن أحيا هنا . ولسوف يكفيني راتب التقاعد للعيش في بحبوحة . لا حاجة بي الى قصر غريتي . كل ما اريده هو حجرة في بيت كهذا والمد والجزر والمراكب الغادية الرائحة . ان في استطاعتي عندئذ ان أطالع الصحف صباحاً ، واطوّف ماشياً في المدينة قبل الغداء ، وامضي كل يوم لأرى لوحات تينتوريتو [1] في الاكاديمية واذهب الى « مدرسة سان روكو » ، وأتناول الطعام في الحانات الرخيصة الجيدة خلف السوق ، أو ربما استطاعت المرأة التي تدبر شؤون البيت ان تطهو في الامسيات .

يخيّل اليّ ان من الافضل لي أن أتناول طعام الغداء في الخارج وأن انعم بشيء من رياضة المشي . إنها مدينة ملائمة للمشي . بل لعلها خير المدن من هذه الناحية ، في ما اعتقد ، فأنا لم أتمشّ فيها ذات مرةٍ إلا

---

١ – Tintoretto فنّان بندقي (فينيسي) ١٥١٨ – ١٥٩٤ . (المعرب)

ونعمتُ بمتعة . هذا شيء استطعت ان اتعلمه على احسن وجه ، كذلك قال في ذات نفسه ، ومن ثم يُلمّ بي ذلك . »

انها مدينة غريبة معقدة ، وان السير من ايما جزء منها الى أي جزء آخر خيرٌ من حل احاجي الكلمات المتقاطعة . وانه لمن الاشياء القليلة التي تشرّفهم أنهم احترموها .

وحق المسيح ، أنا أحبها ، كذلك قال ، واني لاستشعر أعظم السعادة لأني اسهمتُ في الدفاع عنها وانا غلامٌ غِرّ لم تتم له معرفةٌ باللغة وافيةٌ ، ولم اكن قد رأيتها من قبل قط حتى كان ذلك اليوم الصاحي ، من ايام الشتاء ، عندما انكفأت لأضمّد ذلك الجرح اليسير ، فرأيتها تنبثق من البحر . يا للجحيم ، كذلك قال في ذات نفسه ، لقد ابلينا بلاءً حسناً ، ذلك الشتاء ، عند ملتقى خطوط السكك الحديدية.

لشد ما أتمنى لو احارب من اجلها كرة اخرى ، كذلك قال في ذات نفسه ، وانا أعرفُ ما أعرف الآن ، ونحن نملك ما نملك الآن . ولكنهم سوف يستولون عليها من جديد ، والمشكلة الأساسية ستظل هي هي ، ولن يكون ثمة من جديد غير هذا السؤال : من الذي يسيطر على الاجواء ؟

وكان طوال هذا الوقت يتأمل مقدّم الزورق المرهق الجميل الصّقال المُطلّم بالنحاس على نحو دقيق — وقد لُمّع النحاس كله تلميعاً فاتناً — وهو يشق عباب الماء الأسمر ، ويواجه مشكلات السير الصغيرة .

لقد مضَوْا تحت الجسر الأبيض ، وتحت الجسر الخشبي الذي لم يتمّ انشاؤه بعد . ثم انهم غادروا الجسر الأحمر الممتدّ الى اليمين وجرَوْا تحت اول جسر أبيض شاهق . وانتهوا الى الجسر الحديدي الأسود المخرّم القائم فوق القناة المفضية الى ريو نووفو [1] ، واجتازوا الدعامتين

---

١ — Rio Nuovo او «النهر الجديد» (المعرب)

اللتين شدّت كل منهما الى الاخرى بالسلاسل ولكن من غير أن تتماسا : مثلنا نحن ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . لقد رأى الى تيار الماء يندفـع نحوهم ، ولاحظ كيف ثلمّت السلاسل الخشبَ وأبْلَتْهُ منذ ان رآهما أول مرة . وقال في ذات نفسه : هذه حالنا نحن . وهاتان الدعامتان نُصبان تذكاريان لنا . وما اكثر النصب التذكارية المشيدة لنا في قنوات هذه المدينة !

ثم انهم واصلوا تقدمهم في تؤدة حتى المصباح الكبير القـــائم عند يمين المدخل المفضي الى « القناة الكبرى » حيث بدأ المحرك يحتضر احتضاره المعدني الذي أحدث زيادةً طفيفة في السرعة .

عندئذ انحدر تحت الاكاديمية بين الدعائم التي اجتازوها ، وقد كاد ان يمسّها ، زورق من زوارق الديزل أسودُ مُثْقَـل بأحمال الحطب المقطّع قِطعاً قصيرة غليظة لكي تُستعمل وقوداً في بيوت « المدينة البحرية » الرطبـة .

وسأل الكولونيل المراكبيَّ : « هذا الحطب من خشب الزان ، اليس كذلك ؟ »

— « من خشب الزان وغيره من الخشب الأرخص منه والذي لا اذكر في هذه اللحظة اسمه . »

— « خشب الزان للنار المكشوفة كفحم الانتراسيت للموقد . من اين يقطعون خشب الزان ذاك ؟ »

— « انا لست جبلياً . ولكني احسب أنه يأتي مما وراء « باسّانو » على الضفة الأخرى من الـ « غرابّا » . لقد ذهبت الى الـ « غرابا » لأرى اين دُفن اخي . لقد صُرِع في حملة شنوها من « باسّانو » ، ولقد ذهبنا الى المقبرة الكبيرة . ولكنا رجعنا من طريق « فيلتر » . كان في استطاعتي أن ارى ثمة غابات ملتفةً عند الجانب الآخر فيما انت تهبط الجبال الى

الوادي . لقد هبطنا تلك الطريق العسكرية ، وكانوا آنذاك يجرّون مقادير ضخمة من الحطب . »

ـ « في اية سنة قتِل اخوك على نهر الغرابّا ؟ »

ـ « عام الف وتسعمئة وثمانية عشر . كان وطنياً ، ألهبه الاستماع الى حديث دانونزيو [1] ، ولقد تطوّع قبل أن يُدعى أترابه الى الخدمة العسكرية . اننا لم نعرفه في ايما يوم معرفة حسنة جـــداً لأنه قضى نحبه في سرعة بالغـــة . »

ـ « كم ولداً كنتم ؟ »

ـ « كنا ستة . لقد فقدنا اثنين وراء الـ « ايزونزو » [2] ، وواحداً على الـ « بينزيزّا » ، وواحداً على نجد الكارسو . ثم فقدنا هذا الاخ الذي أتحدث عنه على الـ « غرابّا » ، وبقيت انا وحدي . »

فقال الكولونيل : « سوف آتيك بمحرّك الـ « جيب » ذاك كاملاً غير منقوص ، أما الآن فلنقلع عن التفكـير السوداوي ولنبحث عن جميـع المواطن التي يقيم فيها اصدقائي . »

كانوا يصعّدون الآن في «القناة الكبرى» ، ولقد كان من اليسير عليك أن ترى اين يقيم اصدقاؤك .

وقال الكولونيل : « ذلـــك هو قصر الكونتيسّا داندولو . »

ولم يقل ، بل فكّر مجرد تفكير ، انها تخطّت الثمانين ، وانهـــا بهيجة النفس مثل فتـــاة في مقتبل العمر ، ولا تستشعر اي خوف من الموت . انها تصبغ شعرها ليستحيل لونــه الى احمر ، وهـــو يبدو

---

١ – Gabriele D'Annunzio (١٨٦٣ – ١٩٣٨) مؤلف وجندي ايطـــالي اشتهر بمغامراته ووطنيته الملتهبة . (المعرب)

٢ – Isonzo نهر يؤلف جزءاً من الحدود بين ايطاليا ويوغوسلافيا . (المعرب)

جميلاً جداً . انها رفيق طيب ، وامرأة رائعة .

كان قصرها بهيّ الطلعة ، شُيِّد على مبعدة غير يسيرة من القناة ، وجُعِلت في مقدمته حديقة ، وبُني له مهبط الى البحر خاصٌ به ، حيث أقبلت في اوقات مختلفة غناديل[1] كثيرة تحمل على متونها اناساً جذلين مبتهجين لمـّا تنقشع الغشاوة عن أعينهم ولكن اكثرهم كان مبتهجـاً لأنه كان على وشك الاجتماع بالكونتيسـّا داندولو .

والآن ، وفيما هم يصعـّدون في القناة ، في وجه الريح الباردة المقبلة من ناحية الجبال ، وقد بدت البيوت واضحة حادّة الزوايا كشأنها في يوم من ايام الشتاء ـ ولقد كان يومهم ذاك شتوياً من غير ريب ـ رأوا سحر المدينة وجمالها . ولكن ذلك كان مرتبطاً ، في ذهن الكولونيل ، بمعرفته كثيراً من الناس الذين عاشوا في القصور ؛ او بمعرفته ـ إن لم يكن في تلك القصور من يقطنها الآ ن ـ لأي غرض كانت هذه المواطن المختلفة قد اصطُنِعت .

هناك يقوم قصر والدة آلفاريتو ، كذلك حدّث نفسه ، ولكنـــه لم ينطق بهذه الكلمات .

إنها لا تطيل الإقامة هناك ابداً ، وهي تقضي معظم أيامها في البيت الريفي قرب تريفيزو ، حيث توجد أشجار كثيرة . لقد سمثتْ عَطل «البندقية» عن الاشجار . كانت قد فقدت رجلاً ممتـازاً ، فليس يثير شوقها الآن إثارة حقة غيرُ الفعالية والنشاط .

ولكن الاسرة اعارت القصر ، ذات يوم ، لجورج غوردون ـ اللورد بايرون[2] ـ وليس ينام الآن احد في سرير بايرون او في السرير الآخر

---

١ ـ جمع غندول .

٢ ـ الشاعر الانكليزي المعروف . (المعرب) .

الذي في الدور الادنى حيث كان من دأبه ان يضطجع مع زوجة الغناديلي[1] . انهما لم يكونا مقدسين أو مخلّفَين اثريين . لا ، لقد كانا مجرد سريرين زائدين لم يستعملا في ما بعد لاسباب مختلفات ، او ربما احتراماً للورد بايرون الذي كان جدّ محبوب في هذه المدينة على الرغم من جميع الاخطاء التي ارتكبها . ان عليك ان تكون غلاماً طياشاً في هذه المدينة لكي تُحَبّ ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . انهم لم يبالوا قط ، اقلّ مبالاة بروبرت براوننغ[2] ، أو بمسز روبرت براوننغ ، أو بكلبهما . فهؤلاء لم يكونوا بنادقة برغم كل ما تميّزت به كتاباته عنها من براعة . ولكن ما الغلام الطياش ، كذلك سأل نفسه . إنك تستعمل اللفظة على نحو يُعوزه الأحكام الى حدّ يجعل من الخير لك أن تحاول تحديدها . أنا أحسب ان الطياش هو الرجل الذي يضع تمثيليته ثم ينفق عليها المال . أو هو مجرد الرجل الذي ينفق المال على تمثيليته . وأنا لا افكر الآن بالمسرح ، كذلك قال في ذات نفسه . برغم كل ما قد ينطوي عليه المسرح من متعة .

ومع هذا ، كذلك قال في ذات نفسه ، وقد بَصُرَ الآن بالدارة الصغيرة القائمة على مقربة من الماء جدِّ دانية ، فبدت في عينيه بشعة مثل مبنى قد تراه وانت على متن أحد القُطُر الحديدية التي تنقل الركاب من ثغر الهافر أو ثغر تشيربورغ عندما تبلغ في طريقك الى العاصمة تلك الضاحيةَ القائمة على ابواب باريس . كانت مغطاةً بأشجار يعوزها التنسيق ، ولم تكن موطناً ترغب في الاقامة فيه اذا ملكت القبول والرفض . ومع هذا فقد عاش هو هناك .

لقد أحبوه لموهبته ، ولأنه كان رديئاً ، وكان شجاعاً . كان غلاماً

---

١ – الغناديلي : الرجل الذي يجذف في الغندول .

٢ – Browning شاعر انكليزي كبير ، ١٨١٢ – ١٨٨٩ . (المعرب)

يهودياً لا يملك شيئاً ، ومع ذلك فقد ألهب البلاد بموهبته ، وببلاغته . لقد كان أشدّ بؤساً من أيما شخصية عرفتُها وأكثر حقارة . ولكن الرجل الذي افكر فيه لأقارنه به لم يقامر قط وقد خاض غمار الحرب ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . والواقع ان غابرييل دانونزيبو (لقد تساءلت دائماً تُرى ما اسمه الحقيقي ، كذلك فكّر الكولونيل ، لأن أحداً لا يسمّى دانونزيبو في بلاد عملية ، ولعله لم يكن يهودياً ، وأية اهمية ليهوديته أو لايهوديته) كان قد تنقّل من سلاح من اسلحة الجيش الى سلاح ، كما تنقّل من ذراعي امرأة الى ذراعي امرأة .

وكانت جميع اسلحة الجيش التي خدم دانونزيبو في صفوفها سائغة مستعذبة ، ولقد انجز رسالته فيها بسرعة ويسر ، ما عدا سلاح المشاة . لقد تذكّر كيف فقد دانونزيبو احدى عينيه في حادث ارتطام بينما كان يطير – بوصفه مراقباً – فوق تريستا أو « بولا » وكيف أنه حجب بعد ذلك عينه الضائعة تلك بعصابة ما حجباً موصولاً ، وكيف ان الناس الذين لم يعرفوا حقيقة الأمر ، ذلك بأن احداً آنذاك لم يكن يعرف تلك الحقيقة ، حسبوا أن رصاصة اصابتها في الـ « فيليكي » أو « سان ميشيل » ، أو ايما موطن وخيم آخر وراء « الكارسو » حيث مات كل من تعرفه أو اصيب بعجزٍ مُقعِد . ولكن دانونزيبو كان ، في الحق يبلي بلاءً بطولياً في الاشياء الاخرى . إن الجندي المنتظم في سلاح المشاة يتقن صناعة غريبة ، كذلك قال في ذات نفسه . لعلها اغرب الصناعات قاطبة . لقد طار غابرييل ، ولكنه لم يكن طياراً . لقد انخرط في سلاح المشاة ولكنه لم يكن جندياً من الجنود المشاة ، وكانت المظاهر دائماً واحدة . »

وتذكّر الكولونيل ذات يوم عندما وقف دانونزيبو ، على رأس فصيلة من فصائل الهجوم ، فيما كان المطر يهطل في احد فصول الشتاء المتطاولة

الى ما لا نهاية ، حين كان المطر لا يفتأ يهطل على نحو موصول ، او على الأقل حين كان يهطل على نحو موصول كلما استعرضت القوات أو وُجّهت اليها الخُطَب ، وكان دانونزيبو بعينه المفقودة ، المحجوبة بعصابة ، ووجهه الابيض الابيض مثل بطن سمكة من «سمك موسى» طازجة قُلبت في السوق ظهراً لبطن فليس يُرى جانبها البُنيّ وقد بدت وكأنها ماتت منذ ثلاثين ساعة يهتف صائحاً : « الموت ليس كافياً ! » وكان الكولونيل – وكان آنذاك مجرد ملازم ثانٍ – قد قال في ذات نفسه : « يا للجحيم ! وما الذي يطلبونه منا اكثر من ذلك ؟ »

ولكنه كان قد استمع الى الخطاب في غير انقطاع . وفي الختام ، عندما طلب المقدّم دانونزيبو . وهو كاتب وبطل وطنيّ ، بطل حقيقي مشهود له بذلك إن لم يكن بدّ من أن يكون لنا ابطال ، وكان الكولونيل لا يؤمن بالأبطال – من قواته أن يقفوا دقيقة صمت اجلالاً لموتانا الماجدين ، وقف هو متصلباً وقفة الإجلال والاحترام . ولكن فصيلته التي لم تكن قد تتبّعت الخطاب ، اذ لم يكن ثمة آنذاك مكبرات صوت ، وكانت على مبعدة لا تمكنها من سماع الخطيب ، استجابت استجابة رجل واحد خلال فترة الصمت اجلالاً لموتانا الماجدين بهتاف صارخ مدوٍّ «فليحي دانونزيبو !»

لقد سبق لدانونزيبو ان خَطَبَهُمْ قبل الانتصارات ، وقبل الهزائم ، ولقد عرفوا ان عليهم ان يهتفوا كلما تمهل الخطيب او أمسك عن الكلام .

وكان الكولونيل – بوصفه ملازماً ثانياً محباً لفصيلته آنذاك – قد شاركهم وهتف بلهجة الأمر «فليحي دانونزيبو ! » صافحاً بذلك عن جميع اولئك الذين لم يستمعوا الى المحاضرة او الخطاب أو الخطبة ، ومحاولاً – بقدْر ما يستطيع ملازم ثانٍ ان يحاول أي شيء غير الصمود في موقع يتعذّر الدفاع عنه أو أداء دوره الخاص في هجومٍ ما بشيء من الذكاء – ان يشاركهم جريمتهم .

ولكنه كان الآن يمرّ بالمنزل الذي عاش فيه الغلام المضنى العجوز مع ممثلتِهِ الكبيرة ، المحزونة ، التي لم تنعم قط بحبّ الناس كما ينبغي لها أن تنعم ، وفكّرَ في يديها الرائعتين ، وفي محيّاهـا القُلـّب الذي لم يكن جميلاً ولكنه كان قـــادراً على أن يمنحك الحب والمجد والبهجة والكآبة جميعاً ، وفي الطريقة التي كان باستطاعة منحنى زندها أن يسحق بها قلبك ، وقال في ذات نفسه : يا للمسيح ! لقد ماتا ، ولست أعرف حتى ذلك الموضع الذي دُفن فيه كل منهما . ولكني ارجـو من غير ريب ان يكونا قد استمتعا بالاقامة في ذلك المنزل .

وقال : «جاكسون ، هذه الدارة الصغيرة القائمة الى اليسار كانت مِلْكاً لغابرييل دانونزيو ، الذي كان كاتباً عظيماً .»

فقال جاكسون : « نعم ، يا سيدي . أنا سعيد بأن اعرف ذلك عنه . إني لم اسمع به قط من قبل . »

فقال الكولونيل : « سوف احيطك علماً بما كتب اذا ما رغبت في يوم من الأيام في قراءة آثاره . إن ثمة بعض الترجمات الجيدة لآثاره . »

فقال جاكسون : « شكراً ، يا سيدي . اني لأحب ان اقرأه كلما وجدت متسعاً من الوقت . ان له لمنزلاً جميلاً عمليّ السّمة . ما الأسم الذي قلت لي إنه كان يحمله ؟ »

فأجابه الكولونيل : « دانونزيو . كاتب . » .

واضاف في ما بينه وبين نفسه ـ غير راغب في أن يشوّش جاكسون ، أو أن يعقّد الاشياء كما قد عقّدها على صاحبه مراتٍ عديـدة في ذلك اليوم : كاتب ، شاعر ، بطل وطني ، صائغ جَدَلية الفاشيّة ، معجب بنفسه الى حد فظيع ، طيّار ، آمرٌ ـ أو راكب ـ في طليعة مراكب الهجوم النسّافة السريعة ، مقدّم (ليوتنان كولونيل) في سلاح المشاة من غير ان يعرف كيف يقود سرية بل من غير ان يعرف كيف يقود فصيلة

على نحو صحيح ؛ مؤلف الـ Notturno [1] العظيم المحبوب الذي نحبه ، ورجل غرّ .

وأمامهم الآن كان «معبَر» للفناديل عند الـ « سانتا ماريا ديل جيغليو » ، ووراء ذلك كان حوض الـ « غريتي » الخشبي .

ـ « هذا هو الفندق الذي سننزل فيه يا جاكسون . »

وأشار الكولونيل الى القصر الحلو الصغير الوردي اللون ، المؤلف من ثلاثة ادوار ، والمتاخم للقناة . كان من قبل تابعاً « للفندق الكبير » ، ولكنه امسى الآن فندقاً مستقلاً ـ فندقاً ممتازاً أيضاً . ولعله كان خير الفنادق ، اذا كنت غير راغب في من يتملقك ، أو يضايقك من طريق المغالاة في العناية بك ، أو من طريق المغالاة في التذلل لك ، في مدينة حافلة بالفنادق الكبرى . ولقد كان الكولونيل يحب ذلك الفندق .

وقال جاكسون : « يخيل الي أنه جيد . »

فقال الكولونيل : « اجل ، انه جيّد . »

ومضى الزورق البخاري ببسالة في محاذاة دعائم الحوض الخشبية . إن كل حركة يقوم بها ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، هي انتصار بسالة تلك الماكينة المعمّرة . اننا لا نملك اليوم خيول حرب مثل « المترحل العجوز old Traveller » أو مثل « ليزيت Lysette » ماربوت الذي قاتل شخصياً ، في معركة « ايلو » . ان لدينا بسالة القضبان البالية التي تأبى أن تنقصم ، وبسالة رأس الاسطوانة الذي لا ينفجر ، على الرغم من ان له ملء الحق في الانفجار وما اليه .

وقال جاكسون : لقد « انتهينا الى الحوض ، يا سيدي » .

---

١ ـ وتعني بالايطالية : ليليّ ، أو ذو صلة بالليل .

ـ « يا للجحيم ، والى اين تريدنا ان ننتهي اذن ايها الرجل ؟ اقفز الى اليابسة ريثما ادفع الى هذا الرياضي حسابه . »

والتفت الى المراكبيّ وقال : «لقد اتفقنا على ثلاثة آلاف وخمسمئة لير ، أليس كذلك ؟ »

ـ « نعم ، يا زعيمي ! »

ـ « انا لن انسى مسألة محرك الـ «جيب» الطاعن في السن . خذ هذه واشترِ لفرسك بعض الشوفان . »

وسمع الحمال ، الذي كان يحمل الحقيبتين من جاكسون ، هذا الكلام وضحك .

ـ « ليس ثمة بندقي واحد مستعد لأن يُصلح من شأن فرسه » .

فقال المراكبي : « إنها لا تزال تجري . »

فقال الحمال : « ولكنها لا تكسب ايّ سباق . كيف انت ، يا زعيمي ؟ »

فأجابه الكولونيل : « في حال لا استطيع ان تكون على خير منها . كيف حال اعضاء المنظمة ؟ »

ـ « جميع الاعضاء بخير . »

فقال الكولونيل : « حسن . سوف أدخل وأرى المايسترو الأعظم . »

ـ « انه ينتظرك ، يا زعيمي . »

فقال الكولونيل : « فلنوفرّ عليه الانتظار ، يا جاكسون . في استطاعتك أن تمضي الى الردهة ، مع هذا السيد ، وتطلب اليهم ان يسجلوني بين نزلائهم . » ثم التفت الى الحمال وقال : « حاول ان تؤمّن للرقيب (السرجانت) حجرة . إننا سنقضي هذه الليلة فقط في هذا المكان . »

ـ « كان البارون آلفاريتو يبحث عنك هنا . »

ـ « سوف التقيه في حانة هاري . »

ـ « حسن ، يا زعيمي . »
ـ « اين المايسترو الأعظم ؟ »
ـ « سوف ابحث لك عنه . »
ـ « قل له انه يستطيع ان يجدني في المشرب . »

٧

وكان المشرب يقع عبر ردهة الـ «غريتي» مباشرةً ، على الرغم من أن لفظة «ردهة» ـ كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ـ لم تكن هي التعبير الملائم لوصف ذلك المدخل الأنيق . وفكّر : ألم يصف غيبوتو دائرة ؟ لا ، لقد كان ذلك في الرياضيات . وكان خير ما تذكره وأحبّه من النوادر المتصلة بذلك الرسام قول غيبوتو ، وهو يرسم الدائرة الكاملة : « لقد كانت سهلة » . من الذي قال ذلك ـ بحق الجحيم ـ وأين ؟

ـ « طاب مساؤك ، ايها المستشار الخاص . » كذلك قال للساقي الذي لم يكن عضواً في المنظمة مدفوعَ الراتب على نحو كامل ، والذي لم يكن الكولونيل راغباً مع ذلك في اغضابه . «اية خدمة استطيع أن أسديها اليك ؟ »

ـ « اشرب يا زعيمي . »

وأطل الكولونيل من نوافذ المشرب وبابه وسرّح بصره في مياه « القناة الكبرى » . كان في استطاعته ان يرى مَرْبَطَ الغناديل الكبير الأسود ، وظلالَ اضواء الأصيل المتأخر الشتوية على صفحة المـــاء الذي عبثت به الريح . وعَبْرَ القناة كان القصر العتيق ، وكان مركب شراعي اسود عريض من مراكب نقـــل الخشب يصعّد في القناة ، وكان مجذافها

الاماميان العريضان يناضلان ضد موجة ما ، على الرغم من أن الريح كانت تدفع المركب من خِلاف .

فقال الكولونيل : « إسقني كأساً من المـارتيني المزّاء الى أبعد حد . مارتيني مزدوج . »

في تلك اللحظة وفد المايسترو الاعظم من الحجرة . كان يرتدي ملابسه الرسمية كنادلٍ أكبر ، وكان وسيماً حقاً كما ينبغي للرجل ان يكون ، وكانت انفعالاته الباطنيـــة مسطورة على محيّاه ، فابتسامته تنبعث من فؤاده ، أو من أيما مكان يمكن اعتباره مركز جسده ، وتطفو في صراحة وجمال على السطح ، الذي هو وجهه .

كان ذا وجه وسيم وانف طويـــل مستقيم كالذي يتميز به أبناء ذلك الجزء من فينيتو [1] الذي هو موطنه . وكانت له تانك العينان الرقيقتان البهيجتان الصادقتان وذلـك الشعر الابيض الوقور المتّسقة مع سنّهِ ، وكانت أعلى من سنّ الكولونيل بسنتين اثنتين .

وتقدّم متبسّماً ، ودوداً ، وعلى نحـو تآمريّ برغم ذلك كله ، اذ كان كل منهما يشارك الآخر كثيراً من أسراره ، وبسط يده التي كانت يداً ضخمة طويلة ، قوية ، ذات اصابع شبيهة ِبمِبْسَط [2] الصيدلي ، مصونةً في عناية على نحو لائق بمركزه ، أو قل على نحو يحتمه مركزه . وبسط الكولونيل ، بدَوْره ، يَده التي اصابها الرصاص مرتين فشوهها تشويهاً طفيفاً . وهكذا تمت المصافحة بين اثنين من سكان « فينيتو » السابقين ، وكلاهما أخ للآخر بوصفه عضواً في الجنس البشري ، ذلك النادي الوحيد الذي يدفعان الرسوم اليه دون ايّ نادٍ آخر ، وكلاهما أخ للآخر ايضاً في

---

١ – Veneto مقاطعة في شمال شرقي ايطالية . (المعرب)

٢ – اداة اشبه بسكين عريضة يبسط بها الصيدلي عقاقيره ويخلطها .

حبه لبلدٍ عريق كثيراً ما يتقاتل الناس من اجل الاستيلاء عليه فيخرج دائماً منتصراً في هزيمته ، بلدٍ كانا كلاهما قد دافعا عنه في شبابهما .

وكانت مصافحتهما طويلة الى حد كافٍ لإشعارهما ، في قوة ، متعة اللقاء وحرارته ، ثم قال رئيس النـُدُل : « يا زعيمي ! »

فقال الكولونيل : « أيها المايسترو الأعظم ! »

ثم ان الكولونيل سأل المايسترو الأعظم أن يشاركه الشراب ، ولكن المايسترو الأعظم قال إنه لا يستطيع لانشغاله في أداء عمله . كان ذلك متعذراً ، وكان محظوراً أيضاً .

فقال الكولونيل : « .... [1] المحظور ! »

فقال المايسترو الأعظم : « طبعاً . ولكن على كل امرىء أن يذعن لأحكام واجبه ، والقواعد هنا معقولة ، وعلينا جميعاً أن نعمل وفقها ؛ أنا على الخصوص . انها مسألة وصية . »

فقال الكولونيل : « إنهم لم يجعلوك مايسترو أعظم لغير ما سبب » .

ـ « اعطني كأساً صغيرة من « الكاربانو »» كذلك قال المايسترو الأعظم للساقي الذي كان لا يزال خارج المنظمة لسبب صغير غـير محدّد وغير منصوص عليه . « لكي اشربه على صحة المنظمة . »

وهكذا كرع الكولونيل والمايسترو الأعظم كأسيهما في سرعة خاطفة مخالفـَيْن في ذلك الأوامر ، منتهكين مبدأ الوصية والمـَثـَل في القيادة . انهم لم يتعجلا ذلك ، وإن القلق لم يعصف بالمايسترو الأعظم . لقد اصطنعا السرعة في ذلك بكل بساطة .

وقال الكولونيل : « والآن فلنناقش شؤون المنظمة . »

فقال المايسترو الأعظم : « إننـا نفعل هذا . وإلا أعلنت ان ذلك كذلك . »

---

١ ـ هنا موضع شتيمة مقذعة محذوفة في الاصل الانكليزي ايضاً . (المعرب)

فقال الكولونيل : « تابع . »

وكانت المنظمة ، وهي جمعية خيالية محض ، قد انشئت إثر سلسلة من الحادثات بين المايسترو الاعظم ، والكولونيل ، وكان اسمها

El Ordine Militar, Nobile y Espirituoso de los Caballeros de Brusadelli

أي المنظمة العسكرية النبيلة والمقدسة لفرسان بروساديلي . وكان كل من الكولونيل ورئيس النُدُل يتكلم الاسبانية ، واذ كانت هذه اللغة خير اللغات لانشاء منظمات الفرسان فقد اصطنعاها في تسمية هذه المنظمة التي دُعيت على اسم رجل ميلانيّ متكالب على الربح المحرم ، من اصحاب البليارات المتهربين من دفع الضرائب ، الرديئي السمعة الى ابعد الحدود . رجل كان – خلال نزاع على الملكية – قد اتهم زوجته الشابة ، على نحو علنيّ وأمام هيئة المحكمة ، بأنها حرمته القدرة على التمييز من طريق مطالبها التناسلية المتطرفة الى حد استثنائي .

فقال الكولونيل : « ايها المايسترو الأعظم ، هل جاءتك اية رسالة من قائدنا ، قائدنا الموقر ؟ »

– « ولا كلمة . انه صامت في هذه الايام . »

– « لا ريب في أنه يفكر . »

– « لا ريب . »

– « لعله يضع الخطة لأعمال جديدة أشد إمعاناً في الخزي والعار . »

– « لعله . إنه لم يكتب الي اية كلمة . »

– « ولكن في ميسورنا أن نثق به . »

– « الى ان يموت . » كذلك قال المايسترو الاعظم . « وبعد ذلك سيكون في ميسوره ان يتحمّص في جهنم ، ولسوف نمجّد ذكراه . »

وقال الكولونيل : «جيبورجي ! قدّم الى المايسترو الأعظم كأساً صغيرة اخرى من الكاربانو . »

وقرعا الكأس بالكأس .

وصاح الكولونيل : « جاكسون ، انت الآن على ارض المدينة ، وفي استطاعتك ان توقّع هنا من اجل الطعام . انا لا اريد ان اراك حتى الساعة الحادية عشرة ، غداً ، في الردهة إلا اذا اصابك بلاء ما . هل لديك مال ؟ »

– « نعم يا سيدي » كذلك قال جاكسون ثم اضاف في ما بينه وبين نفسه : ان ابن العاهرة هذا مخبول كما يقولون ، من غير ريب . لقد كان في استطاعته ان يناديني بدلاً من ان يعمد الى الصياح .

وقال الكولونيل : « لا اريد ان أراك . »

كان جاكسون قد دخل الحجرة ووقف أمامه متظاهراً بالانتباه .

– « لقد سئمتُ النظر اليك ، لأنك مستسلم للهمّ ، ولأنك لا تعرف المرح . امرح بعض الشيء اكراماً للمسيح ! »

– « سمعاً وطاعة ، يا سيدي . »

– « هل تفهم ما قلت ؟ »

– « نعم يا سيدي . »

– « أعِدْه على مسمعي ! »

– « رونالد جاكسون ، ت ٥ ، الرقم المتسلسل ١٠٠٦٧٨ ، سوف يثبت وجوده في ردهة فندق غريتي هذا في الساعة ١١،٠٠ غداً صباحاً ، ولست ادري التاريخ يا سيدي ، ولسوف يغرب عن وجه الكولونيل ، ويأخذ بأسباب المرح . أو ، » كذلك اضاف ، « سوف يبذل كل جهد ممكن لبلوغ هذه الغاية . »

– « انا متأسف ، يا جاكسون . » كذلك قال الكولونيل . « اني ...[1] »

---

١ – موضع شتيمة مقذعة محذوفة في الاصل ايضاً .

فقال جاكسون : «ارجو ان اخالف الكولونيل في رأيه بنفسه .»

فأجابه الكولونيل : «شكراً ، يا جاكسون . ربما لم اكن كذلك . أرجو أن تكون على صواب . والآن اخلع عن نفسك ادرانها . ان لك حجرة هنا ، او يجب ان يكون لك ، وفي استطاعتك ان توقّع من اجل الطعام . والآن حاول أن تمرح بعض الشيء .»

فقال جاكسون : «سمعاً وطاعة ، يا سيدي .»

حتى اذا انصرف قال المايسترو الاعظم للكولونيل : «مَن الغلام ؟ أحد اولئك الأميركيين المحزونين ؟»

فأجابه الكولونيل : «نعم . وحق المسيح ان لدينا عـــدداً منهم كبيراً . انهم محزونون ، منافقون ، متخمون ، يعوزهم التدريب . واذا كان التدريب يعوزهم فالذنب في ذلك ذنبي انا . ولكن لدينا نفراً من المتازين ، ايضاً .»

ـ «هل تعتقد ان في استطاعتهم ان يخوضوا غمار معارك الـ «غرابا» ، والـ «باسوبيو» ، والـ «باسّو بيافا» كما خضناها نحن ؟»

ـ «المتازون منهم يستطيعون . وربما على نحو افضل . ولكنك تعرف انهم ، في جيشنا ، لا يذهبون الى حد اطلاق النـــار لأحداث الجراح المتعمدة إحداثاً ذاتياً .»

فقال المايسترو الأعظم : «يا للمسيح !» لقد تذكـّر هو الكولونيل اولئك الجنود الذين قرروا انهم لا يريدون أن يموتوا ، غير مفكرين ان من يموت يوم الثلاثاء غير مضطر الى ان يموت الجمعة ، وكيف كان احد اولئك الجنود يلف بكيس رمل رجل زميل له مطوّقة بعصابة ساق لكي لا يترك اي اثر لحروق بارود ، ثم يطلق النار على صديقه من مسافة يعتقد ان في استطاعته ان يصيب منها رَبلة ساقه من غير ان

يصيب العظم ، ثم يطلق النار مرتين فوق المتراس تبريراً لتلك الاصابة . كان كل منهما يعرف ذلك ، ومن اجل هذا وبسبب من كرهٍ حقيقي عميق لكل الذين افادوا من الحرب وربحوا المغانم من ورائها عمدا الى انشاء تلك المنظمة .

لقد عرفا كلاهما ـ وهما اللذان أحبّ كل منهما الآخر واحترمه ـ كيف كان الفتيان الفقراء الذين لم يكونوا راغبين في الموت يقتسمون محتويات علبة من أعواد الثقاب لإيذاء أنفسهم على نحو ينجيهم من المشاركة في الهجوم الدمويّ التالي على خط النار .

لقد عرفا اشياء عن الفتيان الآخرين الذين كانوا يضعون قطع العشرة سنتيمات النقدية تحت آباطهم لكي يصابوا باليرقان . وعرفا ، ايضاً أشياء عن الفتيان الأثرياء الذين كانوا يعمدون في مختلف المدن الى حَقن البارافين تحت رَضفات رُكبهم لكي يجتنبوا الذهاب الى الحرب .

ولقد عرفنا كيف كان الثوم يُصطنع لاحداث بعض الآثار التي تمكّن المره من التخلف عن القيام بهجوم ما ، وعرفا جميع الحيل الاخرى او الكثرة العظمى من الحيل الاخرى . ذلك بأن احدهما كان رقيباً (سرجانت) والآخر كان ملازماً ثانياً في سلاح المشاة ، وكانا قد حاربا في المواقع الرئيسية الثلاثة ، على الـ «باسوبيا» و الـ «غرابا» و الـ «بيافا» ، حيث كان ذلك كله مفهوماً .

وكانا قد شاركا ، ايضاً ، في الجزرة الحمقاء الأقدم عهداً والتي دارت رحاها في الـ «ايزونزو» و الـ «كارسو» . ولكنهما كانا كلاهما خجلين بأولئك الذين أمروا بأحداث تلك الجزرة ولم يفكرا بها إلا كشيء احمق مخزٍ يجب أن يُنسَى ، وتذكرها الكولونيل تِقْنياً كشيء يتعلم منه اشياء وأشياء . وهكذا انشأ الآن منظمة فرسان بروساديلي ، تلك المنظمة النبيلة المقدسة ، وكانت تضم خمسة اعضاء ليس غير .

وسأل الكولونيل المايسترو الأعظم : « ما أنباء المنظمة ؟ »

– « لقد رقينا الطاهي في الـ «ماغنيفيشانت» Magnificent الى رتبـــة كوماندااتور [1] لقد تصرّف تصرُّف رَجُلٍ ثــلاث مرات في عيد ميلاده الخمسين . ولقد قبلتُ تقريره من غير تحقيق . انه لم يكذب طول عمره.»

– « اجل ، انه لم يكذب طوال عمره . ولكنها مسألة يجب عليك ان لا تطلق العنان فيها لنزعتك الى التصديق . »

– « لقد صدّقته ، كان يبدو منهوك القوى . »

– « في استطاعتي ان أتذكرّه يوم كان غلاماً طيّاشاً ، ولقد دعوناه آنذاك الرجل الضخم ذا اللون الكرزيّ . »

– « وأنا ايضاً . » Aneh 'io

– « هل لديك أية خطط بعينها تستطيع المنظمة أن تقـــوم بتنفيذها خلال الشتاء ؟ »

– « لا ، ايها القائد الأعلى . »

– « هل تعتقد أن علينا أن نرفع آيات الولاء لباسياردي المبجل ؟ »

– « كما تشاء ؟ »

فقال الكولونيل : « فلنرجىء ذلـــك . » وفكـّر الكولونيل لحظة ثم طلب كأساً آخر من المارتيني الصِّرف .

– « هل تعتقد ان في امكانـنــا ان ننظم مظاهرة ولاء في موقع تاريخيّ ما ، مثل سان ماركو (القديس مرقص) او الكنيسة العتيقة في تورشيلو تكريماً لشفيعنا العظيم ، بروساديلي ، الموقر ؟ »

– « لست واثقاً من ان السلطات الدينية سوف تجيز ذلك في هذه اللحظة . »

---

١ – فارس عالي الرتبة .

ـ « اذن فلنطرّح كل فكرة تقول بالقيام بمظاهرات عامة خلال هذا الشتاء ، ولنعمل ضمن نطاق مِلاكاتنا العسكرية ، لمصلحة المنظمة . »

فقال المايسترو الأعظم : « هـذا هو الموقف الأسلم . سوف نعيد تنظيم قواتنا . »

ـ « وكيف انت ، شخصياً ؟ »

فقال المايسترو الأعظم : « هائل ! ان لديّ ضغط دم واطئاً ، وقُرَح مَعِدة ، وعليّ ديون . »

ـ « هل انت سعيد ؟ »

فقال المايسترو الأعظم : « دائماً . أنا احب عملي حباً شديداً ، واني لألتقي شخصيات استثنائية ممتعة ، وكثيراً من البلجيكيين ايضاً . إنهم ما نملكه هذا العام بدلاً من الجراد . اما في الاعوام السابقة فقد كان عندنا الألمان . ما العبارة التي قـال فيها قيصر : « وأشجع هؤلاء هم البلجيكيون » ؟ ولكنهم ليسوا افضلهم بزةً . الا توافقني ؟ »

فقال الكولونيـل : « لقد رأيتهم في بزّة حسنة ، في بروكسل . عاصمةٌ بهيجة ممتلئة المعدة . انتِصرْ ، او انكِسرْ ، او انسحبْ . »

ـ « كان ينبغي لنا أن نقاتل في الفلاندر ، في الايام الحالية . »

فقال الكولونيل : « اننا لم نولد في الأيام الحالية . وهكذا لم يكن في استطاعتنا ، اوتوماتيكياً ، أن نقاتل آنذاك . »

ـ « لشدّ ما أتمنى لو استطعنا ان نقاتل مع الكوندوتييري [١] ، عندما كان كل ما يتعين علينا ان نعمله هو أن نتفوق عليهم بحُسْن الرأي فتستسلم قواتهم . إن في استطاعتك ان تقدح زناد الفكر ، وفي استطاعتي ان

---

١ – Condottieri في ايطاليـة وغيرها ، وخصوصاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ضباط محترفون أو زعماء جنـود مرتزقة ، كانوا يعملون في خدمـة الامراء المتحاربين والدويلات المتحاربة . (المعرب)

انقل اوامرك . »

— « لو تحققت أمنيتك اذن لكان علينا أن نستولي لهم على بضع مدن لكي نحترم مقدرتنا على قدح زناد الفكر . »

فقال المايسترو الاعظم : «ولكان خليقاً بنا أن ننهب تلك المدن ، اذا ما دافعوا عنها . على أي المدن كنت تفضل ان تستولي ؟ »

فأجابه الكولونيل : « ليس على هذه . لقد كان خليقاً بي أن اوثر الاستيلاء على «فيسينتزا» ، و «بيرغامو» ، و «فيرونا» . وليس من الضروري ان ألتزم هذا الترتيب . »

— «وعلى مدينتين اخريين ايضاً . »

فقال الكولونيل : «ادري» . كان قد عاد ، الآن ، كولونيلاً كرة اخرى وكان سعيداً . « لقد تصورت ان من الخير لي ان اقوم بالتفاف حول «بريشيا» ، وانها لا بدّ ان تسقط من تلقاء ذاتها . »

— « وكيف انت ، ايها القائد الأعلى ؟ » كذلك قال المايسترو الأعظم . ذلك بأن هذا الاستيلاء على المدن كان قد نقله الى مجـــال لا يفهم من شؤونه شيئاً .

كان لا يستشعر الغربة في بيته الصغير في تريفيزو ، المحاذي لمياه النهر المتدفقة تحت الاسوار العتيقة . لقد تماوجت الطحالب مع التيـــار ، وتربصت الأسماك تحت ستار الطحـــالب ثم انقضت على الحشرات التي لامست الماء عند الغسق . وكان لا يستشعر الغربة ، ايضا ، في جميع العمليات التي لا تحتاج الى اكثر من سَرية واحدة فهو يفهمها على نحو واضح كمثل فهمه الوجه الافضل لتقديم صحاف الطعام على مائدة صغيرة .

ولكن ما إن عاد الكولونيل كولونيلاً كرة اخرى ، كما قد كان من قبل ، وشرع يفكر بلغة بعيدة جداً عن فهمه ُبعدَ حساب التفاضل

والتكامل عمن لا يعرف غير الحساب ، حتى استشعر انه غريب عن هذه الاجواء ، وأن محادثتها أمست متكلفة ، وتمنى لو يرجع الكولونيل الى الكلام على الاشياء التي عرفاها معاً يوم كانا ملازماً ثانياً ورقيباً .

وسأله الكولونيل : « وما الذي كان خليقاً بك ان تفعله بشأن مانتوفا ؟ »

— « لست ادري ، يا زعيمي . انا لا اعرف مَنْ تقاتل ، ولا القوى التي يملكونها ، ولا القوى الخاضعة لأمرتك . »

— « لقد حسبت انك قلت إننا كنا من جماعة الكوندوتييري [1] ، واننا أقمنا قاعدتنا في هذه المدينة أو على الـ « بادوفا » .

فقال المايسترو الأعظم ، ولم يكن قد تضاءل بأية حال : « يا زعيمي ، أنا لا ادري شيئاً ، في الحق ، عن الكوندوتييري . ولا كيف قاتلوا آنذاك . كل ماقلته هو اني كنت أتمنى لو اني قاتلت تحت إمرتك في تلك العهود . »

— « لم يعد ثمة شيء من مثل تلك العهود . » كذلك قال الكولونيل ، وتحطمت الرُقية .

يا للجحيم ! ربما لم يكن ثمة ايما رقيَةٍ البتّة ، كذلك فكّر الكولونيل . وقال لنفسه : « الى الجحيم بك ! اقلع عن هذا التفكير ، وكن مخلوقاً بشرياً بعد أن بلغت من العمر نصف قرن . »

وقال للمايسترو الأعظم : « خذ كأساً اخرى من الكاربانو . »

— « أعتقد انك سوف تجيز لي ان ارفض ، يا زعيمي ، بسبب قرحة المعدة ، أليس كذلك ؟ »

---

١ – انظر الحاشية على ص ٧٢

ـ « اجل ، اجل ، طبعاً . يا غـــلام ، ما اسمك ، جيبورجي ؟ ايتني بكأس آخر من المارتيني الصِرْف » . ثم اضاف بالايطالية : « كأس آخر جد صِرْف . صرف ومضاعف . Secco , molto secco e doppio »

تحطيم الرقى ، كذلك قال في ذات نفسه . ان هذه ليست هي صناعتي . صناعتي هي قتل الرجال المسلحين . والرقية يجب ان تكون مسلحة اذا كان لي أن أحطمها . ولكننا قتلنا اشياء كثيرة لم تكن مسلحة . حسناً ، يا محطم الرقى ، اسحب كلامك . »

وقال : « ايها المايسترو الأعظم ، انت لا تزال مايسترو أعظـم ، والى الجحيم بالكوندوتييري ! »

ـ « لقد ذهبوا الى الجحيم منذ سنوات عديدة ، ايها القائد الأعلى . »

فقال الكولونيل : « هذا صحيح تماماً . »

ولكن الرقية كانت قد تحطمت .

وقال الكولونيــل : « سوف اراك على العشاء . مـــا عندكم من الوان الطعام ؟ »

ـ « سوف يكون عندنا كل ما ترغب فيه ، فأذا اعوزنا شيء بعثنا بمن يأتيك به . »

ـ « هل لديكم شيء من الهليون الطازج ؟ »

ـ « انت تعلم اننا لا نستطيع أن نحصل عليه في هذه الشهور . انه يأتينا في نيسان ، ومن باسّانو . »

فقال الكولونيل : « اذن فكّرْ لي بطعام ما ، ولسوف أطْعَمُهُ . »

فسأله كبير النُدُل : « كم شخصاً ستكونون ؟ »

فأجابه الكولونيل : « سوف نكون اثنين . متى تقفلون المطعم ؟ »

ـ « سوف نقدّم اليك طعام العشاء في أيما ساعة متأخرة تودّ ان

تلتناول الطعام فيها » .

فقال الكولونيل : « سوف احاول ان اكون هناك في ساعة معقولة . الى اللقاء أيها المايسترو الأعظم » . وابتسم وبسط للمايسترو الاعظم يده الشائهة .

فقال المايسترو الأعظم : « الى اللقاء ، ايها القائد الأعلى ، » وعادت الرقية الى الوجود ، وكانت كاملة تقريباً .

ولكنها لم تكن كاملة تماماً ، ولقد عرف الكولونيل ذلك وقال في ذات نفسه : لماذا اتصرف دائماً وكأنني نغل ؟ ولماذا لا استطيع ان ارجيء صناعة الحرب هذه ، وانقلب الى رجل كريم صالح كما وددت دائماً ان اكون ؟

أنا احاول دائماً ان اكون عادلاً ، ولكنني فظ ، واني لوحشيّ ، وليس معنى هـذا اني اقمت خطوط الدفاع ضد ..... ان عليّ ان اكون رجلاً أفضل يجري في عروقه مقدار من دم الخنازير أقلّ ، في الفترة القصيرة التي بقيتْ لي على ظهر هذه الارض . وقال في ذات نفسه) : « سوف نجرب ذلك الليلة » . ثم اضاف : « من ؟ واين ؟ وليساعدني الله على ان لا اكون طالحاً . »

ـ « جيبورجي ! » كذلك قال للساقي ، الذي كان ذا وجه أبيض كوجه المجذوم ، ولكنه خلوٌ من الورم وعاطل عن البريق الفضيّ .

والواقع ان جيبورجي لم يكن يحب الكولونيل كثيراً ، أو لعله كان مجرد ابن من ابناء مقاطعة بييدمونت ، فهو لا يحب احداً حباً حقيقياً . وهو شي غير مستغرب في الاقوام الباردين الوافدين من ارض واقعة على الحدود بين بلدين . ان اولئك الاقوام لا يثقون بأحد ، ولقد عرف الكولونيل ذلك ، وكان لا يتوقع من فاقد الشيء ان يعطيه .

ـ « جيبورجي ! » كذلك قال للساقي ذي الوجه الشاحب . سجل هذه الأشياء على حسابي ، من فضلك . »

وانصرف ، ماشياً كما تعوّد دائماً أن يمشي ، في ثقة مغالىً بها بعض الشيء ، حتى في الاحوال التي كانت فيها تلك الثقة غـــير ضرورية . وبعزمه المجدّد دائماً على ان يكون كريماً ، محتشماً ، وصالحـاً ، القى التحية على بواب الفندق ، وكان صديقاً له ، وعلى المدير المساعد ، الذي كان يتكلم اللغة السواحلية ، وكان في وقت ما اسير حرب في كينيا ، وكان رجلا من أشد الناس قرباً الى القلب ، فتى وسيماً يمور غضارةً ونضارةً ، فتىً واسع التجربة ، ولعـــله لم يكن بعد قـد انضوى تحت راية «المنظمة» .

وسأله : «وكيف حال الفـــارس الرسمي Cavaliere ufficiale الذي يدير هذا الفندق ؟ صديقي ؟ »

فأجابه المدير المساعد : «انه ليس هنا الآن » ثم اضاف : «مؤقتاً طبعاً . »

فقال الكولونيل : « احمل اليه تمنياتي . وابعث معي من يدلني على حجرتي . »

ـ « انها الحجرة المعهودة . الا تزال راغباً فيها ؟ »

ـ « نعم . هل احطت الرقيب (السرجانت) بعنايتك ؟ »

ـ « انه ينعم بعناية حسنة . »

فقال الكولونيل : «حسن . »

ومضى الكولونيل الى حجرته يصحبه الغلام الذي حمل حقيبته .

ـ « من هنا يا زعيمي ! » كذلك قال الغلام عندما توقف المصعد

في شيء من الاختلال الهيدروليّ (المائي) عند الدور الأعلى.

وسأله الكولونيل: «ألا تستطيع ان تسّير المصعد كما ينبغي له ان يُسَيَّر؟»

فأجابه الغلام: «لا، يا زعيمي. ان التيار لا يستقر على حال.»

٨

ولم يقل الكولونيل شيئاً ، وتقدم الغلامَ مجتازاً الرواق . كان رواقاً واسعاً ، عريضاً ، عالي السقف . وكان ثمة فسحة طويلة ظاهرة بين أبواب الحجرات على جانب «القناة الكبرى» . وطبيعي ، وقد كان قصراً ، ان لا يكون ثمة حجرات عاطلةٌ من المشاهد الفاتنة ، ما خلا الحجرات المخصصة للخدم .

ووجد الكولونيل المسافة طويلة ، على الرغم من انها قصيرة جداً . حتى اذا برز النادل المكلف بالسهر على الحجرة ، قصيراً اسمر ذا عين زجاجية مستقرة في محجر عينه اليسرى ، لماعاً ، غير قادر على ان يبتسم ابتسامته الكاملة الحقيقية فيما كان يدير المفتاح الكبير في القفل ، تمنى الكولونيل لو ينفتح الباب في سرعة أعظم .

وقال : « إفتَحْه ! »

فقال النادل : « سوف افعل ، يا زعيمي . ولكنك تعرف هذه الاقفال . »

أجل ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . أنا أعرفها ، ولكنني أتمنى لو يُوَفَّق الى فتحه .

– « كيف حال اسرتك ؟ » قال هذا للساقي الذي كان قد فتح الباب على مصراعيه بحيث أمسى الكولونيل ، وقد اجتاز العتبة ، ضمن

نطاق الحجرة ذات الخزانة العالية الداكنة، ولكن المزودة بمرايا حسنة، وذات السريرين الجيدين ، والثريا الضخمة ، والاطلالة — من خلال النوافذ التي لا تزال مغلقة — على مياه « القناة الكبرى » التي عبثت بها الريح . »

كانت القناة الآن رمادية كالفولاذ ، تحت ضوء الشتاء الخاطف الواهن .

وقال الكولونيل : « آرنالدو ، افتح النوافذ ! »

— « ان ثمة رياحاً شديدة ، يا زعيمي ، والحجرة رديئة التدفئة بسبب من ندرة الطاقة الكهربائية . »

فقال الكولونيل : « بسبب من ندرة الامطار . إفتح النوافـــذ . افتحها كلها . »

— « كما تريد ، يا زعيمي . »

وفتح النادل النوافذ ، فاندفعت ريح الشمال الى الحجرة .

— « أرجوك ان تتلفن لمكتب الادارة وأسألهم ان يصلوني بهذا الرقم . »

فتلفن النادل ، فيما كان الكولونيل في الحمام .

وقال : « الكونتيسة ليست في البيت ، يا زعيمي . انهم يعتقدون انك قد تجدها في حانة هاري . »

— « انك تجد كل شيء معروف على سطـــح الارض ، في حانة هاري . »

— « أجل يا زعيمي ، ما عدا السعادة ، ربما . »

فأكد له الكولونيل قائلاً : « بل لأني لأجد فيها السعادة ايضاً . السعادة ، كما تعلم ، هي عيد غير ثابت التاريخ . »

فقال النادل : « أنا أعي ذلك . لقد جئتك بشراب كامباري مرير وبزجاجة غوردون جين . هل أعِدّ لك كأس كامباري مع الجن والصودا ؟ »

فقال الكولونيل : « أنت غلام طيب . من اين جئت بها ؟ من

المشرب ؟ »

ـ « لا . لقد اشتريتها خلال غيبتك لكي لا تضطر الى انفاق المال في المشرب . المشرب غال جداً . »

فأقرّه الكولونيل على هـذا بقوله : « اني اوافقك . ولكن ليس ينبغي لك أن تنفق مالك الخاص على غرض كهذا . »

ـ « انتهزتُ فرصة . ولقد انتهزنا كلانا كثيراً من الفرص . إن زجاجة « الجن » كلفتني ٣٢٠٠ لير ، وهي شرعية . أمـــا الكامباري فكلفتّني ثمانمئة . »

فقال له الكولونيل : « أنت غلام طيب جـــداً . كيف كانت البطـّات ؟ »

ـ « إن زوجتي لا تزال تتحدث عنها حتى الآن . فنحن لم نفز في ايما يوم من الايام بشيء من البط البري ، لأنه غال جداً ولا ينسجم مع طريقة حياتنا . ولكن واحداً من جيراننا علمّها كيف تطهوها ، ولقد شاركنا اولئك الجيرانُ انفسهم في أكلها . انا لم اعرف من قبل قط أن في استطاعة أيما شيء ان يكون لذيذ الطعم الى هذا الحد . فما ان تطبق أسنانك على شرحة صغيرة من اللحم حتى تستحوذ عليك بهجة تكاد ان تكون ممتنعة على التصديق . »

ـ « ذلك هو رأيي ، ايضاً . فليس ثمة مـــا هو ألذّ في الحلوق من ذلك البط السمين الآتي من وراء الستار الحديدي . وأنت تعلم أن خط طيرانه هو عبر حقول القمح الواسعة المنبسطة على الدانوب . ان ما لدينا هنا يمثل هجرة صغيرة من هجرات الطيور ، ولكنها كانت ولا تزال ، منذ ما قبل اختراع البنادق ، تتخذ السبيل نفسها . »

فقال النادل : « أنا لا اعلم شيئاً عن اطلاق النار من أجل القنص . لقد كنا قوماً معدمين اكثر مما ينبغي . »

ـ « ولكن كثيراً من الناس الذين لا يملكون مالاً يخرجون للقنص

في الـ « فينيتو » .

ـ « أجل . من غير ريب . ان المرء ليسمعهم يطلقون النار طوال الليل . ولكننا كنا أفقر من أن نقدر على ذلك ؛ لقد كنا أفقر مما تستطيع ان تعلم ، يا زعيمي . »

ـ « أعتقد في استطاعتي ان أعلم . »

ـ « ربما » ، كذلك قال النادل . « لقد احتفظت زوجتي بالريش كله ، وقد سألتني أن اشكرك . »

ـ « اذا ما نعِمنا بعد غدٍ بيوم محظوظ فلا بد أن نفوز بمقدار وافر من البط الكبير ذي الرؤوس الخضراء . قل لزوجتك اننا ، اذا واتانا الحظ ، فسوف يكون لدينا بطّ شهيّ المذاق ، جميل الريش ، سمين كالخنازير بفضل ما أصابه عند الروس من غذاء . »

ـ « ما رأيك في الروس ، إن لم يكن من قلة الذوق أن اسألك ، يا زعيمي ؟ »

ـ « انهم اعداؤنا المقبلون . وهكذا فأنني ، كجنديّ ، على استعداد لأن اقاتلهم . ولكنني أحبهم كثيراً ، ولم اعرف طوال حياتي شعباً أروع منهم ولا أشدّ شبهاً بنا . »

ـ « ان الحظ لم يُسعدني قط بمعرفتهم . »

ـ « سوف تسْعد بمعرفتهم ، أيها الغلام . سوف تسعد . إلا اذا اوقفهم باسياردي المبجل عند خط الـ « بيافا » ، الذي هو نهر لم يعد يشتمل على شيء من الماء . لقد سَيفنوه [1] للأغراض المائية الكهربائية . ولعل باسياردي المبجل أن يحارب هناك . ولكني لا أعتقد أنه سوف يواصل الحرب فترة طويلة . »

---

١ ـ Siphon أي سحبوا مياهه بطريقة السيفنة أو باستعمال السيفون .

ـ « انا لا اعرف باسياردي المبجل . »

فقال الكولونيل : « أنا أعرفه . »

ـ « اسألهم ان يتلفنوا الى حانة هاري ويروا اذا كانت الكونتيسة هناك . فأن لم تكن فاطلب ان يتلفنوا الى البيت كرة أخرى . »

وتناول الكولونيل الكأس التي اعدّها آرنالدو ، النادل الزجاجيّ العين ، من أجله . كان غير راغب فيها ، ولقد عرف أنه لن يسيغها . ولكنه تناولها ... تناولها بشراسته الخنزيرية البرية القديمة كما سبق له ان تناول كل شيء طوال حياته ، وتقدم بمثل خطى الهرّ - على الرغم من انه الآن هرّ طاعن في السن ـ نحو النافذة المفتوحة ، وأطلّ على « القناة الكبرى » التي كان لونها قد اخذ يستحيل الآن الى رمادي غامق ، فكأنّ « ديغا » [٢] كان قد رسمها في يوم من أشد ايامه إمعاناً في الكآبة .

ـ « اشكرك على الشراب شكراً جزيلا » ، كذلك قال الكولونيل ، فهزّ آرنارلو ـ الذي كان يتحدث بالتلفون ـ برأسه ، وافترت شفتاه عن ابتسامته الزجاجية العين .

وقال الكولونيل في ذات نفسه : ليته لم يضطر الى اصطناع تلك العين الزجاجية . انه لم يحب - كذلك قال في ذات نفسه ـ إلاّ اولئك الذين قاتلوا او الذين شُوّهوا .

لقد كان الناس الآخرون رائعين ، ولقد احبَبْتَهم وشدّتك اليهم اواصر صداقة متينة . ولكن لم تكن تستشعر الحنان والحب الحقيقيين إلا نحو اولئك الذين كانوا هناك ، والذين تلقّوا العقاب الذي يتلقاه كل من يلبث هناك فترة طويلة .

وإذن فأنا مولع بالمشوّهين ، كذلك قـال في ذات نفسه ، وهو

---

٢ - Degas رسام فرنسي ١٨٣٤ - ١٩١٧ .   (المعرب)

يرتشف الشراب غير المرغوب فيه . وكل ابن عاهرة مصاب اصابة قاسية ـ وهو مصير كل من يلبث هناك ـ خليقٌ بأن يحظى بحبي .

أجل ، كذلك قال الجانب الآخر ، الطيب ، من شخصيته . انت تحبهم .

وقال في ذات نفسه : إني لأوثر ان لا احب احداً . اني لأوثر أن أمرح وألهو .

فقال له الجانب الآخر الطيب من شخصيته : « ولكنك لن توفق الى المرح واللهو ما دمت لا تحب . »

حسن جداً . انا احب اكثر من اي ابن عاهرة على قيد الحياة ، كذلك قال الكولونيل ولكن ليس بصوت عال .

اما بصوت عال فقال : « الى اين وصلت في هذه المخابرة التلفونية ، يا آرنالدو ؟ »

فقال النادل : « سيبريياني لم يأت بعد . انهم يتوقعون مجيئه في كل لحظة ، ولقد ابقيت الخطّ مفتوحاً انتظاراً له . »

فقـــال الكولونيل : « اجراء باهظ النفقة . احصل لي على بيان بالموجودين هناك ، لكي لا نضيع الوقت . انا اريد ان اعرف على وجه الضبط من يوجد هناك . »

فتحدث آرنالدو ، باحتراس ، من خلال فم التلفون .

وغطى فم التلفون بيده وقال : « انا اتحدث الى إيتور . هو يقول إن البارون آلفاريتو ليس هناك . الكونت آندريا هناك ، وهو مخمور بعض الشيء ، يقول ايتور ، ولكنه ليس مخموراً الى حد لا يمكّنكما من اللهو معاً . ومجموعة السيدات اللواتي يُقبلن كل اصيل هنّ هناك ، وثمة أميرة يونانية انت تعرفها واناس كثيرون لست تعرفهم . وحثـــالة من القنصلية الاميركية ، ما برحوا هناك منذ الظهر . »

ـ « قل له أن يتلفن لك عندما تنصرف الحثالة وعندئذ أفِدُ عليهم . »

وتحدث آرلاندو بالتلفون ، ثم التفت الى الكولونيل الذي كان يطل من النافذة على قبة الـ «دوغانا» وقال : «إيتور يقول انه سوف يحاول ان يزحزحهم عـن مواقعهم ، ولكنه يخشى أن لا يرتاح سيبريياني الى ذلك . »

ـ « قل له ان لا يصرفهم . فهم غير مضطرين الى العمل هذا الاصيل ، وليس ثمة ايّ سبب يقضي بأن لا يسرفوا في الشراب ، حتى الثَمَل ، مثل أي امرىء آخر . كل ما في الامر اني لا اريد ان أراهم . »

ـ « ايتور يقول انه سوف يتلفن لنا في ما بعد . لقد قـال لي ان «الموقع» سوف يسقط من تلقاء ذاته . »

فقال الكولونيل : « اشكره على اتصاله التلفوني هذا . »

وراقب غندولاً يصعد في القناة في اتجاه معاكس للريح ، وقال في ذات نفسه : ليس مع اميركيين يعاقرون الخمر . انا أعرف انهم ضحية السأم . في هذه المدينة ، ايضاً . انهم سئمون في هذه المدينة . انا اعلم أن المكان بارد ، ورواتبهم لا تكاد تكفيهم ، وكم يكلفهم الوقود . إني لأكبر زوجاتهم ، للجهود الباسلة التي يبذُلنها لنقل كييوكوك [1] الى البندقية ، وقد اصبح أولادهم يتكلمون الايطالية مثل صغار البنادقة . ولكن لا صور خاطفة اليوم ، يا جاك . لقد اعطينا الصور الخاطفة ، ومحادثات الحجرة ذات المشرب ، والكؤوس الاخوانية غير الضرورية ، وويلات الخدمات القنصلية المضجرة ، اجازةً اليوم .

ـ « لا نائب قنصل ثان ، أو ثالث ، أو رابع اليوم ، يا آرنالدو . »

---

١ – Keokuk مدينة في جنوب شرقي ولاية ايبووا ، بالولايات المتحدة على نهر المسيسيبي . (المعرب)

ـ « ان بين رجال القنصلية نفراً جد محبّبين الى القلب . »

فقال الكولونيل : « اجل . لقد كان لديهم هنا قنصل رائع الى حد جهنمي في عام ١٩١٨ . كان الناس كلهم يحبونه . سوف احاول أن اتذكر اسمه . »

ـ « أنت ترجع بالذاكرة الى عهد بعيد جداً . »

ـ « انا أغالي في الرجوع بالذاكرة الى عهود بعيدة بحيث يصبح ذلك أمراً غير ممتع . »

ـ « هل تذكر كل شيء عن العهود السالفة ؟ »

فقال الكولونيل : « كل شيء . كان اسم ذلك الرجل هو كارول . »

ـ « لقد سمعت به . »

ـ « لم تكن قد ولدتَ آنئذٍ . »

ـ « هل تحسب ان من الضروري ان يكون المرء مولوداً في وقتٍ بعينه لكي يلمّ بالاشياء التي حدثت في هذه المدينة ، يا زعيمي ؟ »

ـ « انت محقّ في ذلك مئة بالمئة . قل لي ، هل يلمّ كل امرىء دائماً بكل ما يحدث في هذه المدينة ؟ »

فأجابه النادل : « ليس كل امريء . ولكن كل امرىء تقريباً . وعلى اية حال ، فأغطية السُرر هي أغطية السرر ، ولا بدّ لها من شخص يبدّلها ومن شخص يغسلها . طبعاً ، انا لا أشير الى أغطية السّرر في فندق كهذا . »

ـ « لقد عرفت في حياتي فترات سعيدة إلى حد لعين من غير ما أغطية سرر . »

ـ « طبعاً . ولكن الغناديليين [1] ، برغم أنهم من أكثر الناس تعاوناً وبرغم أنهم ـ عندي ـ اروع الناس في هذه المدينة ، يتحدثون

---

١ ـ الذين يجذفون في الغناديل (جمع غندول) Gondoliers (المعرب)

في ما بينهم . »

ـ « طبعاً . »

ـ « ثم هناك رجال الدين ، فهم برغم أنهم لا ينتهكون حرمة اسرار كرسي الاعتراف ابداً ، يتحدثون ايضاً في ما بينهم . »

ـ « هذا امرٌ متوقّـع . »

ـ « ومدبرات بيوتهم يتحدثن في ما بينهن . »

ـ « ذلك حق من حقوقهن . »

فقال آرنالدو : « وهناك النـُدُل أيضاً . فالناس يتكلمون على المائدة وكأن النادل مصابٌ بصمم كامل . والنادل ، وفقاً لعلم الاخلاق الخاص به ، لا يحاول أن يسترق السمع أبداً . ولكنه لا يستطيع ان يتجنب السماع في بعض الأحيان . ونحن طبعاً ، لنا احاديثنا الخاصة التي نديرها في ما بيننا . ليس في هـــذا الفندق البتة ، طبعاً . وفي استطاعتي ان أواصل السّرد . »

ـ « أعتقد أني فهمتُ المراد . »

ـ « هذا اذا لم نذكر المزينين والحلاقين . »

ـ « وما الأنباء من ريبالتو الآن ؟ . »

ـ « سوف تفوز بها كلها في حانة هاري ، باستثناء ذلك الجزء الذي تتمثل فيه أنت . »

ـ « وهل أتمثل أنا في تلك الأنباء ؟ »

ـ « كل امرىء يعرف كل شيء . »

ـ « حسناً ، انها قصة ماتعة الى حد لعين . »

ـ « بعض الناس لا يفهمون الجزء الخاص بتورشيلو . »

ـ « اكون ملعوناً اذا استطعت انا فهمه في بعض الأحيان . »

ـ « كم لك من العمر ، يا زعيمي ، ان لم يكن من قلة الذوق ان أسأل ؟ »

– « خمسون سنة وسنة . لماذا لم تسع الى معرفة ذلك من طريق بواب الفندق ؟ لقد ملأت هناك قصاصة من الورق ليُصار الى تقديمها لرجال الشرطة . »

– « اردتُ ان اسمع ذلك من فمك انت وأن اهنئك . »

– « لست ادري عن ايّ شيء تتكلم . »

– « دعني اهنئك على اية حال . »

– « لست استطيع ان اقبل ذلك . »

– « انت جدّ محبوب في هذه المدينة . »

– « شكراً ، هذا ثناء عظيم جداً . »

وفي تلك اللحظة رن جرس التلفون .

فقال الكولونيل : «سوف أجيب أنا . » وسمع صوت ايتور يقول : «من الذي يتكلم ؟ »

– « الكولونيل كانتويل . »

– « لقد سقط الموقع ، يا زعيمي . »

– « في اي اتجاه ذهبوا ؟ »

– « نحو البيازّا . »

– « حسن . سوف آتي في الحال . »

– « هل تريد مائدة ؟ »

فقال الكولونيل : « في الزاوية » ، وأغلق الخط .

– « انا ذاهب الى حانة هاري . »

– « أتمنى لك صيداً طيباً . »

– « سوف اصيد البط بعد غد ، قبل انبلاج الفجر في برميل في الاراضي السبخة . »

– « وسوف يكون الجو بارداً ، ايضاً . »

ـ « هذا ما يخيّل اليّ . » قال الكولونيل ذلك ، وارتدى ممطره ، ونظر الى وجهه في صفحة المرآة الطويلة فيما كان يعتمر بقبعته .

ـ « وجه قبيح ، » كذلك قال المرآة . « هل رأيت قط ، قبل اليوم ، وجهاً أشنع ؟ »

فقال آرنالدو : « نعم . وجهي . كل صباح عندما احلق لحيتي . »

ـ « ان علينا كلينا أن نحلق في الظلام ، كذلك قال الكولونيل ، وغادر الحجرة .

٩

لم يكد الكولونيل كانتويل يغادر باب « فندق قصر غريتي » حتى أستقبل الخيوط الاخيرة من أشعة شمس ذلك اليوم . كان لا يزال ثمة شيء من اشعة الشمس في الجانب الآخر من الساحة ، ولكن الغناديليين آثروا اجتناب الريح الباردة من طريق التلكؤ في حمى « غريتي » المحجوب عن الرياح ، على الافادة من بقية حرارة الشمس الباقية على جانب الساحة الذي تتناوح فيه الريح .

وبعد أن لاحظ الكولونيل ذلك ، استدار يمنةً واجتاز الساحة الى الشارع المعبّد الذي ينعطف نحو اليمين . وفيما هو يستدير وقف لحظة ونظر الى كنيسة « سانتا ماريا ديل جيغلييو . »

يا لها من بناية رائعة ، متماسكة ، ومع هذا فهي مستعدة لأن تُنقل على متون الطائرات ، كذلك قال في ذات نفسه . انا لم ادرك قط من قبل ان في استطاعة كنيسة صغيرة ان تبدو مثل « ب ٤٧ . » . يجب ان أستطلع متى شُيّدت ومن شيّدها . لعنها الله ، لشد ما أتمنى لو أسير مطوّفاً في هذه المدينة طوال حياتي . اجل طوال حياتي ، كذلك قال في ذات نفسه : يا لها من شكيمة . شكيمة يُشكم بها الفم . صِمام خانقٌ . يضبط مقدار الوقود في ماكينتك . وقال في ذات نفسه : هيا ، ايها الغلام . فلست أعرف أن فرساً اسمه «سوداوي» قدّر له

ان يكسب سباقاً ما في أي يوم من الأيام .

والى هذا ـ كذلك قال في ذات نفسه وهو ينظر الى واجهات المحالّ المختلفة التي اجتاز بها : دكان لحم الخنزير بمــا فيه من جُبْن «باميزان» وأفخاذ الخنزير المملحة من «ساف دانييل» و«لقانق«آ لا" كاسياتورا»وزجاجات الويسكي الاسكتلندي الجيدة و «جن» غوردون الحقيقي ، ودكان بيع السكاكين والملاعق والشوكات ، ودكان بيع التحف الاثرية بمـا فيه من نفائس ومن خرائط ومطبوعات قديمة ، ومطعم الدرجة الثانية المتقنّع بقناع باهظ التكاليف كذلك الذي تصطنعه مطاعم الدرجة الأولى ، وانتهى أخيراً الى الجسر الأول عابراً قناة رافد من الروافد ذات درجات مُرتَـقى — والى هذا فأنا لا استشعر الضيق الى هذا الحد . ليس ثمة عير الطنين . انا اذكر متى بدأ ذلك ، ولقــد ظننت ان ذلك ربما كان جراداً سَبعَشرياً [1] في الاشجــار ولم أحب ان أسأل « لاوري » الفتيّ ولكني فعلت . فأجابني : « لا ، ايها الجنرال ، انا لا أسمع أية صراصير أو أي جراد سَبعَشريّ . الليل ساكن سكوناً تامــاً ، وليس هناك ما يعكر صفوه غير الاصوات العادية .

ثم إنه استشعر وخز الألم الحــاد ، فيما هو يرتقي تلك الدرجات ، حتى اذا هبط الى الجانب الآخر رأى فتاتين بهيّتي الطلعة . كانتا جميلتين ، حاسرتيْ الرأس ، ترتديان ملابس هزيلة ولكنها أنيقة ، وكانتا تتحادثان في تعجّل بالغ ، وكانت الريح تعبث بشعرهما فيما هما تصعدان بأرجلها الفينسيّة الطويلة الرشيقة الخطو ، وقال الكولونيل في ذات نفسه : من

---

١ — seventeen - year Locust جراد في اميركة يعيش سبعة عشر عاماً محتفظاً بطور الحوراء Nympl ثم يخرج خلقــاً سوياً فلا يعيش الا اسابيع قلائل . (المعرب)

الخير لي ان أقلع عن تسريح النظر في واجهات المحال القائمة على طول هذا الشارع ، وان اتقدم الى الجسر التالي وبعد ان أجتاز ساحتين اثنتين أنعطف الى اليمين مباشرة وأواصل السير في هذه الاتجاه حتى ابلغ حانة هاري .

ولقد فعل ذلك ليس غير ، مستشعراً وخز الألم الحاد فوق الجسر ، ولكنه ظل يمشي بخطواته القديمة نفسها ، غيرَ ناظر ، على نحو خاطف ، الا مَنْ اجتاز بهم من الناس . إن في هذا الهواء مقداراً وافراً من الأوكسجين ، كذلك قال في ذات نفسه وهو يواجه الريح ويتنفس في عمق .

ثم إنه انتهى الى باب حانة هاري ، فدفعه ، فانفتح ، فاذا هو في داخل الحانة . لقد اجتاز تلك المسافة كرة اخرى ، وها هو ذا الآن في « بيته » .

وفي الحانة قال رجل طويل ، رجل فارع الطول ، ذو وجه مرهق ينمّ عن حسن تهذيب ، وعينين زرقاوين مرحتين ، وجسد طويل يوقع في النفس فكرة الاستهتار والانغماس في الملذات شبيه بجسد ذئب جاموسيّ :
« يا زعيمي القديم الفاجر ! »

ـ « اهلاً بآندريا الخبيث ! »

وتعانقا ، واستشعر الكولونيل خشونة نسيج سترة آندريا الصوفية الأنيقة التي كانت ، من غير شك ، في سبيلها الى الدخول في عامها الثاني عشر .

وقال الكولونيل : « انت لتبدو في عافية ، يا آندريا . »

كانت كذبة ، ولقد عرفا كلاهما ذلك .

فقال آندريا رادّاً على الكذبة بمثلها : « اجل أنا في عافية . بل يتعين عليّ ان اقول اني لم استشعر العافية في ايما يوم اكثر مما أستشعرها

الآن . وانت نفسك تبدو في صحة ممتازة جداً . »

— « شكراً ، يا آندريبيا ، نحن الأنغال [1] الأصحاء سوف نرث الارض . »

— « فكرة جيدة جداً . يخيّل اليّ اني لن امانع في وراثة ايما شيء في هذه الأيام . »

— « ليس لديك من القوة ما يمكنك من الممانعة . انك سوف ترث ما يزيد على ستة اقدام منها [2] . »

فقال آندريبيا : « ستة أقدام وستة إنشات ، ايها الرجل الخبيث ! ألا تزال تكدح كالعبد الرقيق في الحياة العسكرية ؟ »

فأجابه الكولونيل : « انا لا أكدح فيها أكثر مما ينبغي . اني ذاهب للصيد في سان ريلاجو . »

— « ادري . ولكن لا تطلق النكات بالاسبانية في هذه الساعة . إن آلفاريتو كان يبحث عنك . لقد اوصانا بأن نخبرك إنه سيعود . »

— « حسن . هل زوجتك اللطيفة واولادك بخير ؟ »

— « في خير عميم . وقد سألوني ان اقدم احسن تمنياتهم لك اذا ما رأيتك . انهم الآن في رومة . ها هي ذي فتاتك . او واحدة من فتياتك » . كان من الطول بحيث استطاع ان يستكشف الشارع الذي أمسى الآن شبه مظلم ، ولكنّ هذه كانت فتاةً تستطيع ان تتبيّنها حتى ولو كانت الظلمة أشد من تلك التي رانت على الشارع في تلك الساعة .

— « سلها ان تشرب معنا كأساً قبل ان تنتقل بها الى مائدة الزاوية تلك . أليست مليحة الوجه ؟ »

---

١ — جمع نغل ، وهو ولد الزانية الذي لا يُعرف أبوه .
٢ — يعني القبر . (المعرب)

– « بلى . إنها لكذلك . »

ثم إنها دخلت الحجرة مشرقة في شبابها وجمالها الفارع المتهادي والفوضى التي اوقعتها الريح في شعرها . كانت ذات بشرة شاحبة زيتونية اللون او تكاد ، مظهرٍ جاني (بروفيل) قادر على أن يفطّر قلبك او قلب أيّ امرىء آخر ، وكان شعرها الداكن ، ذو النسيج الرشيق ، يتدلى فوق منكبيها .

وقال الكولونيل : « هالو ، يا حسنائي الفاتنة ! »

فقالت : « اوه ، اوه ، هالو ! لقد حسبتُ اني سأفتقدك . أنا آسفة لتأخري . »

كان صوتها خفيضاً رقيقاً ، وقد تكلمت الانكليزية في احتراس .

وقالت : « طاب مساؤك ، يا آندريا . كيف اميلي وكيف حال الاولاد ؟ »

– « اغلب الظن انهم في نفس الحال التي كانوا عليها حين أجبتكِ عن ذلك السؤال عينه عند الظهر . »

فقالت وقد شاع الدم في وجهها : « انا آسفة اعظم الأسف . اني مضطربة ، واني لأقول الأشياء المغلوطة دائماً . ما الذي يتعيّن عليّ ان أقوله ؟ هل قضيت وقتاً طيباً ، هنا ، طوال الأصيل ؟ »

فقال آندريا : « نعم . مع صديقي القديم وناقدي الأقسى . »

– « ومن هو ؟ »

– « ويسكي اسكتلندي وماء . »

– « أحسب انه اذا شاء ان يناكدني فلا بدّ له من هذا . » كذلك قالت للكولونيل . « أما أنت فلا تناكدني ، أليس كذلك ؟ »

– « خذيه الى مائدة الزاوية تلك وتحدّثي اليه . لقد مللتُكما كليكما . »

فقال له الكولونيل : « أما انا فلم أملك . ولكني اعتقد أنها فكرة جيدة . ما رأيك في شيء من الشراب نتجرعه ونحن جالسان ، يا ريناتا ؟ »

– « يسعدني ذلك إن لم يكن آندريبيا غاضباً . »

– « انا لا اعرف الغضب أبداً . »

– « هل ترغب في ارتشاف كأس معنا ، يا آندريبيا ؟ »

فقال آندريبيا : « لا . امضِ الى مائدتك . لقد سئمت من رؤيتها شاغرة . »

– « وداعاً ، يا كارو . شكراً لك على الشراب الذي لم نفز به . »

– « وداعاً يا ريكاردو » ، كذلك قال آندريا ، وكان ذلك كل شيء .

وولاّهما ظهره الفارع المشوق ونظر في المرآة الموضوعة خلف بعض القضبان لكي يستطيع المرء أن يتبيّن نفسه حين يسرف في الشراب ، واستقر رأيه على عدم الارتياح لما رآه هناك . فقال : « ايتور ، ارجوك أن تسجل هذا المراء في فاتورتي . »

ثم انه مضى لسبيله بعد ان انتظر معطفه في أناة ، ثم ارتداه متمايلاً ونفح الرجل الذي جاءه به بالبقشيش الواجب تقديمه اليه تماماً بالاضافة الى عشرين في المئة ايضاً .

وعلى المائدة التي في الزاوية قالت ريناتا : « هل تعتقد أننا جرحنا أحاسيسه ؟ »

– « لا . انه يحبك ، ويحبني . »

– « آندريا لطيف جداً . وانت لطيف جداً . »

ونادى الكولونيل النادل . ثم سألها : « هل ترغبين في كأس من المارتيني الصِرف ايضاً ؟ »

فقالت : « نعم ، إني لأحب ذلك . »

فقال الكولونيل : « كأسين من المارتيني الصرف الى أبعد الحدود . كأسين على الطريقة المونتغوميرية . خمسة عشر جزءاً مقابـــل جزء واحــد . »

وابتسم النادل ، الذي كان قد حارب في الصحراء[1] ، ومضى لسبيله ، والتفت الكولونيل الى ريناتا .

وقال : « أنت لطيفة . وانت أيضاً جميلة جداً وقريبة الى الفؤاد . وأنا احبك . »

— « انت تقول هذا دائماً ، ولست ادري ما معناه ولكني أحب سماعه . »

— « ما سِنكِ الآن ؟ »

— « حوالي التاسعة عشرة . لماذا ؟ »

— « ولست تدرين ما معناه ؟ »

— « لا . وما الذي يدعوني الى ذلك ؟ الاميركيون يقولون لك هذه الكلمات ، دائماً ، قبل أن يغادروا البـــلاد . إنها تبدو شيئاً ضرورياً بالنسبة اليهـم . ولكني أحبك اعظم الحب ، أيضاً ، أياً ما كان معنى ذلك . »

فقال الكولونيل : « فلننعم بلحظـــات سعيدة . دعينا لا نفكر في أيما شيء على الاطلاق . »

— « خليق بذلك أن يسرّني . أنا لا أحسن التفكير في مثل هذا الوقت من النهار على أية حال . »

فقال الكولونيل : « هو ذا الشراب . تذكّري ان عليـك ان لا

---

١ — في ساحة القتال التي تولى فيها مونتغوميري قيـــادة قوات الحلفاء . (المعرب)

تقولي تشين تشين .»

– « انا اذكر ذلك من المرات السابقة . انا لا اقول تشين تشين البتة . ولن اقول على صحتك ، أو فلنقلب الكأس رأساً على عقب .»

– « سوف نكتفي برفع كأسينا ، وفي استطاعتنا – اذا رغبت – ان نقرع الحافة بالحافة . »

فقالت : « انا راغبة في ذلك . »

كان شراب المارتيني بارداً كالجليد ، وكان مُعَدّاً على الطريقة المونتوغوميرية حقاً . وبعد ان قرعا الحافة بالحافة أحسّا به يتوهج على نحو سعيد في حنايا صدريهما كلها .

وسألها الكولونيل : «وماذا كنت تعملين ؟ »

– « لا شيء . انا لا ازال انتظر موعد العودة الى المدرسة . »

– « اين هي مدرستك الآن ؟ »

– « الله اعلم . حيثما اذهب لأتعلم الانكليزية .»

– « اديري رأسك وارفعي ذقنك لي مرة واحدة .»

– « انت تمزح ، أليس كذلك ؟ »

– « لا . أنا لا امزح .»

فأدارت رأسها ، ورفعت ذقنها ، في غير زَهْو ولا غنج . واستشعر الكولونيل ان فؤاده ينقلب في صدره ، وكأنّ حيواناً هاجعاً دار على نفسه في جُحره فروّع ، على نحو عَذْب ، الحيوان الآخر الهاجع على مقربة دانيةٍ منه .

وقال : « اوه ما اروعك ! ألا تحبين أن تدخلي في يوم من الايام مباراة لانتخاب ملكة السماء ؟»

---

١ – chin - chin تعبير يفيد معنى التحية والحديث الراشح باللطف .

ـ « خليق بذلك ان يكون تدنيساً للمقدسات . »

فقال : « هذا صحيح . أحسب انـــه سوف يكون كذلك . واني لأسحب الاقتراح . »

فقالت : « ريتشارد . لا ، انا لا استطيع ان أقولها . »

ـ « قوليها . »

ـ « لا . »

وقال الكولونيل في ذات نفسه : انا آمركِ بأن تقوليها . وقالت : « ارجوك ان لا تنظر اليّ هكذا ابداً . »

فقال الكولونيل : « أنا آسف . لقد انزلقت الى صناعتي على نحوٍ لا شعوري . »

ـ « ولو قد كنا متزوجين او شيئاً من هذا القبيل فهل تنزع الى ممارسة صناعتك في البيت ؟ »

ـ « لا ، واقسم لك على ذلك . انا لم انزع الى هذا في حياتي قط . في اعمق اعماقي على الأقل . »

ـ « لم تنزع الى هذا مع أحد البتة ؟ »

ـ « لا . اعني مع احد من بنات جنسك . »

ـ « انا لا احب لفظة «جنس» هذه . انها تخيّل اليّ انك كنت تمارس صناعتك . »

ـ « اني اقذف بصناعتي من تلك النافذة اللعينة الى القناة العظمى . »

فقالت : « ها ! أرأيت مبلغ اندفاعك الى ممارستها ؟ »

فقال : « حسن جــداً . انا احبك ، وفي استطاعة صناعتي ان تنصرف في رفق . »

فقالت : « دعني ألمس يدك . إنها بخير . في استطاعتك ان تضعها على المائدة . »

فقال الكولونيل : « اشكرك . »

فقالت : « ارجوك ان لا تفعل . لقد اردت ان ألمسها لأني طوال الاسبوع الماضي ـ كل ليلة او كل ليلة تقريباً في ما اعتقد ـ رأيتها في ما يراه النائم وكان حلماً مشوّشاً وحلمتُ انها كانت يد المسيح . »

ـ « هذا رديء . ما كان ينبغي لك ان تفعلي ذلك . »

ـ « ادري . لقد كان ذلك ما رأيته في المنام ليس اكثر . »

ـ « انتِ لستِ على متن السفينة الصينية ، أليس كذلك ؟»

ـ « لست ادري ما تعني ، وارجوك ان لا تمزح حين اقول لك شيئاً حقيقياً . لقد رأيت في نومي ما اقوله تماماً . »

ـ « وماذا فعلت اليد ؟ »

ـ « لا شيء . او ربما ليس هذا صحيحاً . اغلب الظن انها كانت مجرد يد . »

ـ « مثل هذه ؟ » كذلك سألها الكولونيل ، ناظراً في نفور الى اليد المشوهة ، ومتذكراً الاصابتين اللتين جعلتاها على تلك الشاكلة .

ـ « ليس مثلها . لقد كانت هذه اليد ذاتها . أتسمح لي أن أمسّها بأصابعي في رفق اذا كانت لا تؤلمك ؟ »

ـ « انها لا تؤلمني . ما يؤلمني هو في الرأس ، والرجلين ، والقدمين . انا لا أعتقد ان في هذه اليد ايّ احساس . »

فقالت : «انت مخطىء ، يا ريتشارد . ان هذه اليد مفعمة بالاحساس.»

ـ « لست احب ان انظر اليها كثيراً . انت لا تعتقدين ان في استطاعتنا ان نُغفلها . »

ـ « من غير ريب . ولكنك غير مضطر الى ان تراها في منامك. »

ـ « لا . ان لديّ احلاماً اخرى . »

ـ « اجل . في استطاعتي ان اتخيل ذلك . ولكني حلمتُ بهذه اليد منذ قريب . أما وقد لمستها الآن في رفق ففي ميسورنا ان نتحدث عن

اشياء مسلية اذا شئت . ما عندك من الموضوعات المسلّية التي نستطيع أن نخوض فيها ؟ »

— « دعينا ننظر الى الناس ونضعهم في ميزان النقد . »

فقالت : « هذا جميل . ولن نفعل ذلـــك بخبث . بروح دعابتنا الفضلى ليس غير . دعابتك ودعابتي . »

— « حسن » ، كذلك قــال الكولونيل . ثم نادى النادل واضاف : « كأسان من المارتيني أيضاً . » Ancora due Martini

إنه لم يستحسن أن يقول له « كأسان على الطريقة المونتغومبرية » في نبرة يمكن أن يسمعها الآخرون ، اذ كان يجلس الى المائـدة المحاذية شخصان لم يكن ثمة ريب في أنهما بريطانيان .

لعل الذكـَر كان ممن جُرحوا في الحرب ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، برغم أن ملامحه تجعـــل هذا الظن بعيد الاحتمال . ولكن فليساعدني الربّ على اجتنــاب القسوة الوحشية . فلأنظر الآن الى عيني ريناتا ، كذلك اضاف في ذات نفسه . لعلهما اجمل ما فيها من جمالات بأهدابها البريئة التي لم أر أطول منها في حياتي ، والتي لا تستعملها لغير النظر اليّ في صدق وعفـّة . أيّ فتاة رائعة هي ، وما الذي افعله هنا على أية حال ؟ ذلك اثم من الأثم . وقال في ذات نفسه : انها آخر محبوبة سوف تعرفها ، بل ان حبك هــذا هو حبك الصادق الوحيد . وليس هذا بالأثم. انه شاهدٌ على سوء حظك ليس غير . لا ، كذلك قال في ذات نفسه ، إنه يمور بالسعادة الى حـــد لعين ، وانك بـه لجدّ سعيد .

لقد جلسا الى مائـدة صغيرة في زاوية الحجرة ، والى يمينها جلست اربع نساء الى مائدة اكبر . كانت واحدة من اولئـك النساء في ثوب الحداد ؛ ثوب حداد مسرحيّ الى درجـة ذكـّرت الكولونيل باللايدي

ديانا مانرز وقد مثلت دور الراهبة في رواية « المعجزة » لماكس راينهارد . كانت تلك المرأة ذات وجـــه جذاب ريان مبتهج بالفطرة ، وكان ثوب حدادها متنافراً مع هذا كله .

وكانت بين الجالسات الى تلك المائدة امرأة اخرى كان شعرها اشدّ شيباً ، بثلاثة اضعاف ، مما يستطيع الشعر أن يشيب ـ كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . وكانت هي الأخرى ذات وجـــه مليح . أما المرأتان الاخريان فأن وجهيها لم يعنيا شيئاً بالنسبة الى الكولونيل .

وسأل الفتاة : « أتعتقدين انهن من أهل السحاق ؟ »

فقالت : « لست ادري . انهن كلهن من فضليات النساء . »

ـ « أنا اميل الى الاعتقاد بأنهن مساحقات . ولكن ربما كنّ مجرد صديقات حميات . أو ربما كن مساحقات وصديقات في آن معاً . ذلك شيء لا يهمني البتة ، ولم يكن ما قلته انتقاداً . »

ـ « انت رائع حين تكون دمثاً . »

ـ « هل تحسبين ان لفظة جنتلمان Gentleman منحوتـــة من لفظتي الرجل Man والدمث Gentle ؟ »

« لست ادري » ، كذلك قالت الفتاة ، وأمرّت اصابعها في رقة بالغة فوق اليد الحافلة بالندوب . « ولكنني احبك حين تكون دمثاً . »

فقال الكولونيل : « سوف ابذل غاية الجهد لكي اكون دمثـــاً . من يكون ، في اعتقـادك ، ابن العاهرة ذاك الجالس الى المائدة التي خلفهنّ ؟ »

فقالت الفتاة : « انت لا تعتصم بالدماثة فتره طويلة . فلنسأل إيتور . »

ونظر الى الرجل الجالس الى المـائدة الثالثة . كان ذا وجه غريب اشبه بوجه ابن عِرْس او ابن مُقرض [1] مخيب الآمال مُضخَّم تضخيماً

---

[1] ـ ابن مقرض Ferret حيوان من اللواحم اشبه بابن عِرس .

شديداً . لقد بدا مجدوراً شائهاً مثل جبال القمر حين تُرى من خلال مِرقب (تلسكوب) رخيص ، وبدا – كذلك فكر الكولونيل – مثل وجه غوبلز ، لو ان الهر غوبلز قُدّر له ذات يوم ان يكون في طائرة احترقت ولم يوفّق الى النجاة بنفسه منها قبل ان تدركه النار .

وفوق وجهه – الذي كان يحدق على نحو موصول ، وكأن الجواب يمكن ان يُكتشف بالاسراف في تشديد النظرات وبالشكوك وعلامات الاستفهام – كان شعرٌ اسود بدا وكأنْ ليس بينه وبين الجنس البشري أية صلة . لقد بدا الرجل وكأن جلدة رأسه قد سُلخت ثم اعيد الشعر الى مكانه . شيء ممتع جداً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . أمن الممكن ان يكون مواطناً من مواطنيّ ؟ نعم ، لا ريب أنه مواطن من مواطنيّ .

وتجمّع شيء من الرضاب في زاوية فمه وهو يتجاذب اطراف الحديث – مُحدّقاً – مع المرأة المسنة ، البادية العافية ، التي كانت معه . انها تبدو مثل ايّ امّ من الامهات اللواتي يزينون بها صفحات مجلة « ذي لايديز هوم جورنال » ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . كانت مجلة « ذي لايديز هوم جورنال » احدى المجلات الواردة على نحو نظامي الى نادي الضباط في تريستا ، وكان الكولونيل يتصفحها كلما وردت . انها مجلة رائعة ، كذلك فكّر ، لأنها تجمع ما بين السكسولوجيا [١] والأطعمة الشهية . انها تثير جوعي الى الأمرين جميعاً .

ولكن من ذلك الرجل يا ترى ؟ انه يبدو مثل صورة كاريكاتورية لرجل اميركي أُمِرَّ نصف إمرار في آلة تهريم اللحم ، ثم غُليَ في الزيت غلياً طفيفاً . أنا لا اتعلق باسباب الدماثة كثيراً ، كذلك قال في ذات نفسه .

---

٢ – العلم الباحث في الشؤون الجنسية او التناسلية .

وأقبل ايتور ، بوجهه الهزيل وبحبّه للمزاح وبما فُطر عليه من قلة احترام الآخرين . فسأله الكولونيل : « من هذه الشخصية الروحية ؟»

فهز ايتور رأسه .

كان الرجل قصيراً داكن البشرة ذا شعر أسود صقيل بدا وكأنه لا يتلاءم وذلك الوجه الغريب . لقـد بدا ، كذلك فكـّر الكولونيل ، وكأنه نسي ان يغير لِمَّته المستعارة بعد ان طعن في السن . ولكن له ، برغم ذلك ، وجهاً رائعاً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . انه يبدو أشبه ببعض الهضاب المحيطة بـ « فيردان » . ولست احسب ان من الممكن ان يكون هـــو غوبلز ، وانه اتخذ ذلك الوجه في الايام الاخيرة عندمـا كانوا كلهم يشاركون في تمثيل الـ « غوتر داموررونغ » [1] تعالَ ايها الموت العذْب Komm' Susser كذلك قال في ذاته نفسه . حسناً ، لقد اشتروا لأنفسهم قطعة كبيرة ممتـــازة من « الموت العذاب Susser في النهاية .

ـ « هل ترغبين في ساندويشة شهية من « الموت العذب » يا آنسة ريناتا ! »

فقالت الفتاة : « لا اظن ذلك . برغم اني احب « باخ » ، وبرغم ثقتي من ان سيبريياني قادر على إعدادها . »

فقال الكولونيل : « لم اكن اهاجم باخ . »

ـ « أدري . »

فقال الكولونيل : « يا للجحيم ! لقد كان باخ ـ عملياً ـ محارباً في صفوفنا . » ثم اضاف : « كما كنتِ انت . »

---

١ ـ Gotterdammerung ، او « غسق الآلهة » ، سلسلة من الدرامات الموسيقية مؤلفة من اربعة اجزاء ، بدأ « واغنر » في وضعها عام ١٨٦٦ ولم يتمها الا عام ١٨٧٦ . (المعرب) .

— « لست احسب اننا مضطران الى الغمز من قناتي . »

فقال الكولونيل : « متى ستتعلمين ، يا بنيّتي ، ان في استطاعتي أن أمازحك لأني احبك ؟ »

فأجابت : « الآن . لقد تعلمّته . ولكنك تعلم ان من الجميل ان لا يقسو المرء في مزاحه اكثر مما ينبغي . »

— « حسن . لقد تعلمّتهُ . »

— « كم مرة تفكر بي خلال الاسبوع ؟ »

— « طوال الوقت . »

— « لا . قل لي كم مرة تفكر بي على وجه الضبط . »

— « طوال الوقت . على وجه الضبط . »

— « هل تحسب ان الهيام يبلغ بكل امرىء هذا المبلغ ؟ »

فقال الكولونيل : « لست ادري . هذا واحد من الأمور التي لا اعرفها »

— « ارجو ان لا يبلغ الهيام بكل امرىء هذا المبلغ ، لم اكن اتصور ان في امكانه ان يبلغ هذا المبلغ . »

— « حسناً ، انت تعرفين ذلك الآن . »

فقالت الفتاة : « اجل انا اعرفه الآن . أنا اعرفه الآن واعرفه الى الابد. اهذه هي الصيغة الصحيحة للتعبير عن ذلك ؟ »

فقال الكولونيل : « قولك انا اعرفه الآن كافٍ . ايتور ، هذه الشخصية ذات الوجه الملِهم والمرأة المليحة التي معه لا يقيمان في فندق غريتي ، أليس كذلك ؟ »

فأجابه ايتور : « لا ، انه يقيم في المبنى المجاور ، ولكنه يفِدُ في بعض الاحيان الى غريتي ليتناول الطعام . »

فقال الكولونيل : « حسن ، ولسوف يكون من الرائع أن أراه

اذا ما ألمّ به القنوط في يوم من الايام . من المرأة التي معه ؟ زوجته ؟ أمه ؟ بنته ؟ »

فأجابه ايتور : « لقد غلبتَني . اننا لم نتعقب آثاره في البندقية . وهو لم يثر لا حباً ، ولا بغضاً ، ولا كرهاً ، ولا خوفاً ، ولا ارتياباً . هل تريد ، فعلاً أن تعرف ايما شيء عنه ؟ في استطاعتي أن اسأل سيبريياني . »

فقالت الفتاة : « دعنا نُغفله . اليس هذا هو التعبير الذي تصطنعونه ؟ »

فقال الكولونيل : « دعنا نغفله . »

– « ما دمنا لا نجد متسعاً من الوقت ، يا ريتشارد . اننا في الواقع نضيع وقتنا في الكلام عليه . »

– « كنت انظر اليه كما ينظر المرء الى لوحة من لوحات غويا . الوجوه صورٌ ايضاً . »

– « انظر الى وجهي ولسوف انظر الى وجهك . ارجوك ان تُغفل الرجل . انه لم يأت الى هنا لكي يؤذي احداً . »

– « دعيني انظر الى وجهك من غير ان تنظري انت الى وجهي . »

فقالت : « لا . هذا غير عادل . ان عليّ أن اتذكر وجهك طوال الاسبوع . »

فسألها الكولونيل : « وماذا افعل انا ؟ » .

وأقبل إيتور – غير قادر على اجتناب الرغبة في الكيد ، بعد أن جمع معلوماته في سرعة وكما ينبغي لرجل بندقيّ أن يفعل – وقال :

– « زميلي الذي يعمل في هذا الفندق يقول انه يشرب ثلاث كؤوس ويسكي او اربع كؤوس ثم يكتب في اسراف وفي تدفق حتى ساعة متأخرة من الليل . »

– « يخيل اليّ ان قراءة ما يكتبه لا بد ان تكون حافلة بالمتعة ».

فقال ايتور : « يخيّل اليّ ذلك . ولكن طريقة دانتي كانت مختلفة جداً عن هذه الطريقة . »

فقال الكولونيل : « لقد كان دانتي ملعوناً عجوزاً آخر . بوصفه رجلا أعني ، لا بوصفه كاتباً . »

فقال ايتور : « انا اوافق . وأحسب انك لن تجد ، خارج فيرينز [1] أيما امرىء درس حياته لا يوافق على ذلك . »

فقال الكولونيل : « فلتنتهك حرمة فلورنسة ! »

فقال ايتور : « تلك عملية عسيرة . لقد حاولها كثيرون ، ولكن قلةّ منهم نجحت في ذلك . لماذا تبغضها ، يا زعيمي ؟ ».

– « هذا أعقدُ من أن اشرحه لك . ولكنها كانت مركز التدريب depot وقد لفظها deposito لفرقتي العسكرية القديمة عندما كنت غلاماً . »

– « في استطاعتي ان افهم هذا . إن لديّ اسبابي الخاصة التي تدعوني الى بغضها ايضاً . هل تعرف مدينة طيبة ؟ » .

فقال الكولونيل : « نعم . هذه المدينة ، وجزء من ميلانو ، وبولونيا ، وبيرغامو . »

– « ان لدى سيبريياني ذخيرة كبيرة من الفودكا في حال مجيء الروس ، » كذلك قال ايتور . وقد نزع الى المزاح القاسي .

– « انهم سوف يجيئون بفودكاهم الخاصة ، غير الخاضعة للرسوم . » .

– « ومع ذلك فأنا اعتقد ان سيبريياني مستعد لاستقبالهم . »

فقال الكولونيل : « واذن فهو الشخص الوحيد المستعد لذلك . قل له ان لا يقبل اي شيكات من الضباط الصغار على بنك اوديسّا ،

---

١ Firenze الاسم الايطالي لمدينة فلورنسة . (المعرب)

واشكرك على المعلومات التي زوّدتني بها عن مواطني . أنا لن آخذ من وقتك اكثر مما فعلت . »

وانصرف ايتور ، واستدارت الفتاة نحـــو الكولونيل ونظرت الى عينيه الفولاذيتين العتيقتين ، ووضعت كلتا يديها على يده المشوهة وقالت : « لقد كنت غايةً في اللطف والدماثة . »

— « وأنت غاية في الجمال ، واني لأحبك . »

— « من الجميل سماع ذلك على أية حال . »

— « ما الذي سنفعله في ما يتصل بطعام العشاء ؟ »

— « سوف اتلفن الى بيتي وأستطلع ما اذا كان في ميسوري أن اغادره لهذا الغرض . »

— « لماذا تبدين محزونة الآن ؟ »

— « وهل أبدو محزونة ؟ »

— « نعم . »

— « لست محزونة في الواقع . انا الآن اسعد مني في ايمـــا وقت مضى . تلك هي الحقيقة . ارجوك ان تصدقني ، يا ريتشارد ، ولكن ماذا تتوقع من فتاة في التاسعة عشرة متيمّة بحب رجل تجاوز الخمسين ، رجل عرفتَ جيداً انه اشرف على الموت ؟ »

فقال الكولونيل : « انت تصورين الوضع في شيء من الفظاظة . ولكن الجمال يَـقْـطُـر منك حين تقولين ذلك . »

فقالت الفتاة : « انا لا أبكي البتة . البتة . لقد عقدت العزم على ان لا أفعل . ولكني سوف أبكي الآن . »

فقال الكولونيل : « لا تبكي . أنا الآن دمث الاخلاق ، والى الجحيم بكل ما سوى ذلك . »

— « قل مرة اخرى انك تحبني . »

ـ « أنا احبك ، وأحبك ، واحبك . »

ـ « هل ستبذل غاية جهدك كي لا تموت ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « ماذا قال الطبيب ؟ »

ـ « بين بين . »

ـ « ألم يقل ما هو أسوأ ؟ »

ـ « لا . » لقد كذب .

ـ « اذن فلنأخذ كأساً اخرى من المارتيني . انت تعلم اني لم اشرب كؤوس المارتيني قط قبل التقائنا . »

ـ « ادري . ولكنك تشربينها في استمتاع رهيب . »

ـ « ألا يجب عليك أن تأخذ الدواء ؟ »

ـ « بلى » كذلك قال الكولونيل . « يجب عليّ أن آخذ الدواء . »

ـ « هل استطيع أن أقدمه اليك ؟ »

فقال الكولونيل : « نعم ، تستطيعين ان تقدميه اليّ . »

وظلا جالسين الى المائدة التي في الزاوية ، وانصرف بعض النـــاس واقبل آخرون . واستشعر الكولونيل ببعض الدوار من جراء الدواء وتركه يأخذ سبيله في حرية . وقال في ذات نفسه : تلك هي الحـــال دائماً . الى الجحيم بهذا كله .

ورأى الفتاة تراقبه ، وابتسم لها . كانت ابتسامةً عجوزاً اصطنعها طوال خمسين سنة ، منذ أن قدّر له ان يبتسم اول مرة ، وكانت لا تزال سليمة مثل «بارودة الخردق» من طراز بوردي Purdey التي كانت لجدك . حسناً ، لقد كان دائماً أبرع مني في الرماية ، وهو بذلـــك جدير .

وقال : «اسمعي ، يا بُنَيّة . لا يأخذك الجزع عليّ . »

ـ « لستُ جزعة . لا ، على الاطلاق . انا احبك ليس غير . »

ـ « انها ليست بالمهمة المستساغة ، اليس كذلك ؟ واصطنع لفظة oficio بدلاً من لفظة «مهمة» ، لأنهما كانا يتكلمان الاسبانية أيضاً كلما تركا الفرنسية ، وكلما رغبا عن الكلام بالانكليزية أمام الآخرين . ان الاسبانية لغة قاسية ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، أقسى من قولحة الذُّرة [1] في بعض الاحيان . ولكن في استطاعتك ان تعبر بها عن المعنى الذي تريد ، وان ترسِّخَهُ .

وكرر قائلاً : « ان حبك لي مهمة رديئة الى حدّ غير يسير . Es un oficio bastante malo »

ـ « أجل ، ولكنه الحب الوحيد الذي أملكه . »

ـ « ألا تزالين تنظمين الشعر ؟ »

ـ « لقد كان ما نظمته شعر فتاة في مقتبل العمر . مثل لوحات فتاة في ميعة الصبا . كل امرىء يكون موهوباً في سنٍّ بعينها . »

في ايّ سن تصبح شيخاً في هذه البلاد . كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . ان احداً لا يشيخ في البندقية ، ولكن الصغار يشبّون عن الطوق في سرعة بالغة . ولقد شبَبْتُ أنا عن الطوق في سرعة بالغة في الـ «فينيتو» ، ولم أكن في ايما يوم اكثر كهولة مما كنت في الحادية والعشرين .

وسألها في محبة : «كيف أمك ؟ »

ـ « في خير وعافية . انها لا تستقبل احداً ، وتكاد لا ترى احداً بسبب من حزنها وأساها . »

ـ « هل تعتقدين أنها تعارض لو أنجبنا ولداً ؟ »

ـ « لست ادري . انها ذكية جداً ، كما تعلم . ولكنني مضطرة الى

---

١ الجزء الخشبي من كوز الذرة المصفوفة عليه حباتها .

الزواج من امرىء ما ، في ما أحسب . وإن كنتِ لا ارغب في ذلك في الواقع . »

ـ « في استطاعتنا ان نتزوج . »

فقالت : « لا . لقد فكرت في هذا ، فرأيتُ انه ليس ينبغي لنا ان نفعل . ذلك مجرد قرار كالقرار اتخذتُهُ في مسألة البكاء . »

ـ « لعلك تتخذين قرارات خاطئة . والمسيح يعلم اني اتخذت بضعة قرارات خاطئة ، ولقد قضى كثير من الناس حتفهم بسبب اخطائي . »

ـ « يخيل اليّ ، في أغلب الظن ، انك تبالغ . انا لا اعتقد انك اتخذت كثيراً من القرارات الخاطئة . »

فقال الكولونيل : «لم تكن قراراتي الخاطئة كثيرة . ولكنها كانت كافية . ان ثلاثة قرارات خاطئة تعتبر ، في صناعتي ، شيئاً كثيراً ؛ ولقد اتخذت هذه القرارات الثلاثة كلها . »

ـ « بودّي لو اعرف هذه القرارات ! »

فقال لها الكولونيل : «لو حدثتك عنها اذن لأوقعت الضجر في نفسك . إنها تضنيني كلما تذكرتها . فما ظنك بالاثر الذي يجدر بها أن تخلّفه في نفوس الغرباء ؟ »

ـ «وهل انا غريبة ؟ »

ـ « لا ، انت حبي الصادق . حبي الأخير ، الوحيد ، الصادق . »

ـ « هل اتخذتها في عهد مبكر أم في فترة متأخرة ؟ القرارات أعني . »

ـ « لقـــد اتخذتها في عهد مبكر . وفي عهد متوسط . وفي عهد متأخر . »

ـ « ألا تحب ان تحدثني عنها ؟ لشدّ ما اتوق الى ان يكون لي في صناعتك الكئيبة نصيب . »

فقال الكولونيل : «تباً لتلك القرارات ! لقد اتخذتها ، ولقد دفعتُ

ثمنها غالياً . كل ما الأمر انك لا تستطيعين أن تدفعي الثمن بسببها .»

ـ « هل تقوى على تحديثي عن ذلك ولماذا ؟ »

فقال الكولونيل : « لا » . وكان هذا نهاية ذلك .

ـ « اذن فلنأخذ بأسباب المرح . »

فقال الكولونيل : « فلنأخذ . ما دمنا لا نملك غير حياة واحدة ، وحيدة . »

ـ « ربما كان ثمة غيرها . حَيوات اخرى أعني . »

فقال الكولونيل : «لست اظن ذلك . اديري وجهك مجانبةً يا مثال الجمال . »

ـ « هكذا ؟ »

فقال الكولونيل : «هكذا ، هكذا تماماً .»

وعلى هذا النحو ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، وصلنا الى الجولة الأخيرة ولست ادري حتى مجرد رقم الجولة . انا لم احب غير ثلاث نساء ولقد خسرتهن جميعاً .

انت تخسرهن بمثل الطريقة التي تخسر بها كتيبة من الجند ؛ بالخطأ في الحكم على الأشياء ؛ بالاوامر المتعذّر تنفيذهـــا وبواسطة الشروط المستحيلة . وبواسطة الوحشية ايضاً .

لقد خسرتُ ثلاث كتائب في حياتي وثلاث نساء ، وها ان لديّ الآن رابعة هي أملحهن كلهن ، ومن يدري بحق الجحيم اين ستكون نهاية ذلك ؟

قل لي ايها الجنرال . وبالمناسبة ـ ما دمنا نناقش المسألة ، وهي مناقشة صريحة للوضع وليست باية حال مجلساً عسكرياً ، كما ألمعْتَ لي ايها الجنرال في كثير من الأحيان ـ اجل قل لي ، ايها الجنرال ، اين هم فرسانك ؟

لقد طاف في خلدي هذا السؤال نفسه ، كذلك قال الكولونيل . ان القائد لا يعرف اين فرسانه ، وفرسانه لا يعلمون علم اليقين شيئاً لا عن وضعهم ولا عن رسالتهم ، وهكذا فإنهم – او بعضهم ... عدداً كافياً منهم – يفرون من ميدان المعركة كما تعوّد سلاح الفرسان ان يفرّ في جميع الحروب منذ أن كان لسلاح الفرسان أفراس ضخام .

وقـال : « يا مثال الجمال ! يا عزيزتي الغالية ومحبوبتي الأثـيرة Ma trés Chére et bien aimée أنا مضجر جداً ، وإني لآسف . »

– «أنا لا استشعر الضجر معك البتة . وإني احبك ، ولست اطمع في غير الأخذ باسباب البهجة هذه الليلة . »

فقال الكولونيل : «سوف نأخذ باسباب البهجة من غير ريب . هل تعرفـين أيما شيء خصوصي نستطيع أن نبتهج بسببه ؟ »

– « في استطاعتنا أن نبتهج بجمالنا ، وأن نبتهج بهذه المدينة . لقد طالما كنتَ مستسلماً للبهجة . »

فأقرها الكولونيل : « أجل . » لقد كنت .

– « ألا تعتقد أن في ميسورنا أن نفعل ذلك كرة أخرى ؟ »

– « من غير ريب . طبعاً . ولم لا ؟»

– « هل ترى الغلام ذا الشعر المتموج ، الطبيعي ، فهو لا يزيد على ان يرده الى الوراء بعض الشيء ، وفي حذق ، لكي يبدو أملح وأحلى ؟ »

فقال الكولونيل : « أجل أراه . »

– « إنه رسام بارع جداً ، ولكن له اسناناً أمامية زائفة لأنه كان في يوم ما ينزع منازع اصحاب الحب الشاذ بعض الشيء ، ولقد هاجمه نفرٌ من هؤلاء ذات ليلة في «الليدو» حين كان القمر بدراً . »

– « ما سنّكِ ؟ »

– « سوف أدخل عما قريب ، في سن التاسعة عشرة . »

ـ «وكيف تعرفين هذا ؟ »

ـ « لقد عرفته من الغناديليين . ان هذا الغلام هو الآن رسام بارع جداً. ونحن نفتقر في هـــذه الايام الى الرسامين البارعين حقـــاً . ولكن يا لمشهده ، الآن ، بهـذه الأسنان الزائفة ، وهو لمـــا يتجاوز الخامسة والعشرين !»

فقال الكولونيل : « انا احبك اصدق الحب . »

ـ « وانا احبك اصدق الحب ايضاً . أياً مـــا كان معنى ذلك باللغة الاميركية . وانا احبك ايضاً بالايطاليـــة ، برغم حصافتي كلهـــا ، وأمنياتي كلها . »

فقال الكولونيل : « ليس من حقنا ان نسترسل في الأمنيات اكثر مما ينبغي . لأننا عرضة دائماً للفوز بها . »

فقالت : « اوافقك على هـــذا . ولكني اوثر ان افوز بمـــا اتمناه الآن . »

ولم يقل اي منهما شيئاً ، ثم ان الفتاة قالت : « ذلك الغلام (لقد امسى الآن رجلاً طبعاً ، وهـــو يلازم كثيرات من النساء لكي يخفي حقيقته) قد رسمني مرة . في استطاعتي ان اقـــدم اليك تلك اللوحة اذا شئت . »

فقال الكولونيل : « شكراً . ولسوف احبها . »

ـ « انها رومانتيكية جداً . وشعري فيها اطول ، الى حد مضاعف ، مما كان في اي وقت مضى ، وهي تُظهرني وكأني كنت انبثق من الماء ولكن من غير ان يصيب البلل رأسي . والواقع انك تنبثق من المـــاء وشعرك مسرف في التسطح والاستواء ، ... انك تبـــدو ، او تكاد ، مثل هرة على قاب قوسين من الموت . ولكن والدي دفع اليـــه ثمن اللوحة في سخاء . صحيح انهـــا ليست انا حقـــاً ، ولكنها الوجه الذي

تودّ انت ان تراني فيه . »

ـ « اني لأتصورك منبثقة من البحر ايضاً . »

ـ « طبعاً . بشعة جداً . ولكنك قـــد ترغب في الاحتفاظ بهذه على سبيل الذكرى . »

ـ « ألن تعترض امك الفاتنة على ذلك ؟ »

ـ « ان امي لن تعترض . بل اني لأحسب انها سوف تكون سعيدة بالتخلص منها . ان عندنا في البيت صوراً افضل . »

ـ « انا احبك واحب امك حباً عظيما . »

فقالت الفتاة : « يتعيّن عليّ ان اخبرها . »

ـ « هل تحسبين ان ذلك الغِر ، المجدور الوجه ، كاتبٌ فعلا ؟ »

ـ « اجل . اذا قـال ايتور ذلك . انه يحب ان يمزح ، ولكنه لا يكذب . ولكن ماذا تعني لفظة « غِرّ » ، يا ريتشارد ؟ أصدُقني القول . »

ـ « من العسير ، بعض الشيء ، ايضاح ذلك . ولكني احسب انها تعني الرجل الذى لم يمارس صناعته (واستعمل لفظة oficio الاسبانية) ممارسة فعلية ، والرجل المغرور بطريقة مزعجة . »

ـ « يتعين عليّ ان اتعلم لكي استعمل التعبير على وجهه الصحيح . »

فقال الكولونيل : « لا تستعمليه . »

ثم انه سألها : « متى ستقدمين اليّ اللوحة ؟ »

ـ « الليلة اذا شئت . سوف اكلف بعضهمْ بلفّها . وبارسالها اليك من البيت . اين ستعلـّقها ؟ »

ـ « في حجرتي . »

ـ « ولن يأتي احد ويبدي بعض الملاحظات ويقول فيّ مقالة سوء ؟ »

— « لا . انهم لن يفعلوا ذلك . ثم اني سوف اقول لهم انها صورة ابنتي . »

— « هل كانت لك في يوم من الايام بنت ? »

— « لا . ولكني رغبت دائماً في ان تكون لي بنت . »

— « استطيع ان اكون بنتك كما استطيع ان اكون ايّ شيء آخر . »

— « خليق بذلك ان يكون ضرباً من مضاجعة المحارم . »

— « لست اعتقد ان هذا سوف يكون فظيعاً جداً في مدينة عتيقة كهذه المدينة ... مدينة شهدت ما شهدته هذه المدينة . »

— « اسمعي ، يا بنيّتي . »

فقالت : «حسن . هذا رائع . اني احب ذلك . »

— « حسن جداً » . كذلك قال الكولونيل وقد غدا صوتـــه خشناً بعض الشيء . « وانا احبه ايضاً . »

— « أرأيت الآن لماذا احبك على الرغم من اني اعقل من ان أقدم على ذلك ! »

— « اسمعي ، يا بنيتي . اين تريدين أن نتناول طعام العشاء ? »

— « حيثما يحلو لك . »

— « هل تريدين ان تتعشّيْ في الغريتي ? »

— « طبعاً . »

— « اذن تلفني الى البيت واطلبي الاذن . »

— « لا . لقد عقدت النية على ان لا اطلب الاذن مكتفية بأعلامهم أين اعتزم ان اتناول طعام العشاء . وهكذا لن يساورهم القلق عليّ . »

— « ولكن هل تفضلين «الغريتي» فعلاً ? »

— « اجل . لأنه مطعم لطيف ، ولأنه الفندق الذي تنزل فيـــه ،

وهناك يستطيع من يشاء النظر الينا ان ينظر الينا . »

— « من اي عهد اصبحتِ هكذا ؟ »

— « لقد كنت هكذا طوال عمري . انا لم ابال قط ، في اي يوم ، بالذي قد يقوله الناس . ولم اباشر قط اي عمل كنت خجلة به ما خلا الكذب حين كنت فتاة صغيرة وبخاشنة الناس . »

فقال الكولونيل : « لشد ما اتمنى لو نتزوج وننجب خمسة اولاد . »

فقالت الفتاة : « هذا ما اتمنـاه انا ايضاً . وان نبعث بهم الى زوايا العالم الخمس . »

— « وهل للعالم خمس زوايا ؟ »

فقالت : « لست ادري . لقد بدا لي وكأن له خمس زوايا حين قلت ذلك . والآن ، لقد استعدنا مَرَحنا ، اليس هذا صحيحاً ؟ »

فقال الكولونيل : «نعم ، يا بنيّتي . »

— « قلها مرة ثانية . تماماً كما قلتها الآن . »

— « نعم ، يا بنيّتي . »

فقالت : « اوه ، لا ريب في ان الناس جدّ معقّدين . أتسمح لي بأن ألمس يدك ؟ »

— « انها بشعة الى حد لعين واني لأكره النظر اليها . »

— « أنت لا تقدر يدك حق قدرها . »

فقال : « هذه مسألة رأي . اني لأميل الى القول بأنك مخطئة ، يا بنيّتي . »

— « ربما كنت مخطئة . ولكننا أخذنا بأسباب المرح من جديد ، وأياً ما كان الشيء الرديء فقد انقشع الآن . »

— « لقد انقشع كما ينقشع الضباب عن الأودية في الأرض المحروثة

عندمـا تطلع الشمس » ، كذلـك قال الكولونيل : « وما الشمس إلا أنت . »

ـ « أودّ ان اكون القمر ايضاً . »

فقال الكولونيل : « وأنت القمر . وأيما كوكب سيار ترغبين في ان تكونيه ايضاً ، ولسوف احدّد لك موقع الكوكب تحديداً دقيقاً . وحق المسيح ، يا بنيّتي ، ان في استطاعتك أن تكوني كوكبـة نجوم ثابتة (Constellation) اذا شئت . وكن هذه طائرة [1] . »

ـ « سوف اكون القمر . ان للقمر متاعبه الكثيرة أيضاً . »

ـ « نعم . ان أحزانه لتتواتر على نحو نظاميّ . ولكنه يكتمل دائماً قبل أن ينمحق [2] . »

ـ « إنه ينظر اليّ نظرات جدّ محزونة ، احياناً ، عبر القناة ؛ وليس في استطاعتي احتمال تلك النظرات . »

فقال الكولونيل : « لقد تطاول تطوافه في السماء . »

ـ « هل تستحسن أن نحتسي كأساً اخرى على الطريقة المونتغوميرية ؟ » كذلك سألته الفتاة . ولاحظ الكولونيل ان البريطانيين قد انصرفا .

لم يكن يلحظ شيئاً غير وجهها المليح . وقال في ذات نفسه : سوف اقضي نحبي في يوم ما إن استرسلت في ذلك . ومن ناحية اخرى ، فهذا ضرب من التركيز في ما أحسب . ولكنه استهتار لعين .

---

١ ـ لكي يفهم القارىء هذه السطور نشير هنـا الى ان اسم كرنستلايشن Constellation ، او كوكبة النجوم الثابتة ، يطلق على نوع من الطائرات ايضـاً . (المعرب)

٢ ـ انمحق الهلال : لم يكد يرى في آخر الشهر .

وقال : « اجل . ولم لا ؟ »

فقالت الفتاة : « ان الكؤوس المونتغوميرية تنعش نفسي كثيراً . »

ـ « إنها تخلّف في نفسي أثراً مـا ، ايضاً ، بالطريقة التي يعدّها سيبريياني بها . »

ـ « سيبريياني ذكي جداً . »

ـ « هو اكثر من ذلك . انه بارع . »

ـ « سوف يأتي يوم يمتلك فيه مدينة البندقية كلها . »

فخالفها الكولونيل في الرأي : « ليس كلهـا تماماً . إنه لن يمتلكك أبداً . »

فقالت : « لا . ولن يمتلكني أيما امرىء ، إلا اذا أردتني انت . »

ـ « انا اريدك ، يا بنيّتي . ولكني لا أريد أن امتلكك . »

فقالت الفتاة : « انا اعلم ذلك ، وهذا سبب آخر يضاف الى مجموعة الاسباب التي تجعلني احبك . »

ـ « فلنناد ِ ايتور ، ونكلّفه ان يتلفن لأهلك . في استطاعتك ِ ان تحدثيهم حديث اللوحة . »

ـ « انت على حق تماماً . اذا كنت راغباً في الحصول على اللوحة ، الليلة ، فسوف أطلب الى كبير الخدم ان يرزمها ويبعث بها اليك . ولسوف اسأله أيضاً ان يَصلني بماما لأخبرهـا اين سنتناول طعام العشاء ، واذا شئت ذلك التمستُ منها إذنها . »

ـ « لا . » كذلك قال الكولونيل ، ثم اضاف : « إيتور ، كأسين مونتغوميريين ... كأسين مونتغوميريين من الطراز الأعلى ، مع شيء من الزيتون المتوّم ، ولتكن حباته غير كبيرة . وارجوك ان تتصل تلفونياً

ببيت هذه السيدة وتعلمها حين يتم هذا الاتصال . وافعل هذا كله بأسرع ما تستطيع . »

- « سمعاً وطاعة ، يا زعيمي . »

- « والآن ، يا بنيَّتي ، فلنستأنف الأخذ بأسباب المرح . »

فقالت : « لقد استأنفناه حين تكلمتَ . »

١٠

كانا يتمشيان الآن على الجانب الايمن من الشارع المفضي الى فندق غريتي . وكانت الريح تهب من ورائها ، ولقد عبثت بشعر الفتاة ودفعته الى امام . لقد فرّقت مؤخر شعرها وعصفت به فتدلّى على وجهها . كانا ينظران الى واجهات المحالّ التجارية ، ووقفت الفتاة قبالة واجهة مضاءة لمحل من محالّ بيع الجوهرات .

كانت في الواجهة روائع من الجوهرات القديمة ، ووقفا وأنعما النظر اليها ، وأشار كل منهما بدوره الى ابدعِها ، مفلتاً يد رفيقه لكي يفعل ذلك .

– « هل ترغبين في اي من هذه رغبة حقيقية ؟ إن في استطاعتي أن اشتريها غداً صباحاً . ولسوف يقرضني سيبريياني ثمنها »

فقالت : « لا . لست أريد ايما شيء ، ولكني الاحظ انك لا تقدّم اليّ هدايا البتة . »

– « انتِ اغنى مني بكثير . اني احمل اليك اشياء صغيرة من مخازن الجيش ، واشتري لك أشربة كحولية وضروباً من الاطعمة . »

– « وتأخذني في الغناديل والى المواطن الفاتنة في البلاد . »

– « لم يخطر ببالي قط انك راغبة في هدايا من الحجر الصلد . »

– « لا ، لست راغبة في ذلك . انه مجرد التفكير في العطاء ثم

ينظر المرء الى الجوهرات ويفكر فيها حين تُلبَس . »

فقال الكولونيل : «اني اتعلّم . ولكن ما الذي استطيع براتبي العسكري ان اشتريه لك مما يضاهي زمرّداتك المربعة ؟ »

– « ولكن ألا ترى ، لقد ورثتُها . لقد تحدرتْ اليّ من جدتي ، وكانت جدتي قد ورثتها عن امها التي ورثتها بدورها عن امها ايضاً . هل تعتقد ان الأمر لا يختلف حين تكون الحجارة الكريمة التي تتزين بها موروثة عن أناسٍ أموات ؟ »

– « انا لم افكر بذلك قط قبل اليوم . »

– « في استطاعتك ان تأخذها ، اذا كنت تحب الحجارة الكريمة . فهي لا تعدو ان تكون عندي شيئاً ألبسه مثل ثوب من اثواب باريس . انت لا تحب ان تلبس ثوبك العسكري الرسمي ، هل تحب ذلك ؟ »

– « لا . »

« ولا تحب أن تتقلد سيفاً ، هل تحب ذلك ؟ »

– « لا ، لا . »

– « انت لست من ذلك الضرب من الجند ، وانا لست من ذلك الضرب من الفتيات . ولكنْ قدّم اليّ في بعض الأحيان شيئاً باقياً استطيع ان ألبسه وأن استشعر السعادة كلها لبسُته . »

– « لقد فهمت . » كذلك قال الكولونيل . «ولسوف أفعل . »

فقالت الفتاة : « أنت تتعلم بسرعة اشياء لا تعرفها . وانك لتتخذ قرارات ظريفة عاجلة . انا اريدك ان تأخذ أحجار الزمرد وأن تحتفظ بها في جيبك كما يحتفظ المرء بجوالب الحظ السعيد ، وان تلمسها حين تكون متوحداً . »

– « أنا لا اكثر من وضع يديّ في جيوبي أثناء العمل . ان من دأبي ان الوي عصاً ، او شيئا ما ، أو أن أشير الى الأشياء بقلم رصاصي .»

ـ « ولكن في ميسورك ان تضع يدك في جيبك مرة واحدة ليس غير ، كلما انقضت فترة طويلة ، وان تلمسها .»

ـ « أنا لا اكون متوحداً في اثناء العمل . ذلك بأني استغرق خلال ذلك في تفكير عميق يجعلني دائما في نجوة من التوحّد . »

ـ « ولكنك لا تعمل الآن . »

ـ « لا . إني أُعِد الطريقة الفضلى للانهزام ، ليس غير . »

ـ « سوف اقدمها اليك على اية حال . وانا واثقة من ان ماما سوف تتفهّم الدافع الذي حفزني الى ذلك . وفوق هذا فلن اضطر الى اعلامها بذلك قبل انقضاء فترة طويلة . فهي لا تتحرى اشيائي تحرياً موصولاً . وانا على يقين ان وصيفتي لن تخبرها ابداً . »

ـ « لست اعتقد انه ينبغي لي ان آخذها .»

ـ « خذها ، ارجوك ، لكي توقع في نفسي البهجة . »

ـ « لست واثقاً من انه عمل مشرّف . »

ـ « ذلك أشبه ما يكون بقولك اني غير واثق من اني بِكر . ان كل عمل تقوم به إبهاجاً لشخص آخر تحبه هو عمل مشرّف الى ابعد الحدود . »

فقال الكولونيل : «حسن . سوف آخذها على اية حال . »

ـ « والآن قل اشكرك » ، قالت الفتاة ذلك ودست الحجارة الكريمة في جيبه بمثل رشاقة لص من لصوص المجوهرات . « لقد جئتك بها لأني سلخت الاسبوع كله في التفكير في ذلك وعقد النية عليه . »

ـ « لقد حسبت انك سلختِه بالتفكير في يدي . »

ـ « لا تكن فظاً ، يا ريتشارد . **ويتعين** عليك ان لا تكون احمق البتة . ان اليد التي ستلمسها بها هي يدك . ألم تفكر في ذلك ؟ »

ـ « لا ، ولقد كنت احمق . ما الذي ترغبين فيه من معروضات هذه الواجهة ؟ »

ـ « انا أرغب في ذلك الزنجي الصغير ذي الوجه الأبنوسي والعمامة المصوغة من ماسات صغيرة ، والمزدانة قمتها بتلك الياقوتة الصغيرة . ولسوف اعلقــه على صدري مثل دبوس تزييني . كان كل امرىء في هذه المدينة يعلّق امثاله على صدره في الايام الخوالي ، ولقــد كانت الوجوه هي وجوه خدمهم المتمتعين بثقتهم . اني اشتهيت ذلك منذ عهد بعيد ولكني اردتك ان تقدمه اليّ . »

ـ « سوف ابعث به اليك صباح غد . »

ـ « لا ، قدّمه اليّ حين نتناول طعام الغداء قبل رحيلك . »

فقال الكولونيل : « حسن . »

ـ « والآن يتعين علينا ان نمشي وإلا فاتنا طعام العشاء . »

وشرعا يمشيان ، متشابكي الذراعين ، حتى اذا بلغا الجسر الاول جلدتهما الريح بسياطها . وحين استشعر وخز الألم الحادّ قال الكولونيل في ذات نفسه : الى الجحيم بهذا .

وقالت الفتاة : «ريتشارد ، ضع يدك في جيبك لكي تبهجني والمسها»

فنزل الكولونيل عند رغبتها .

وقال : «ان ملمسها لبديع .»

١١

ومن الريح والبرد تقدّما خلال المدخل الرئيسي لـ « غريتي بالاس اوتيل » ، نحو ضياء الردهة ودفئها .

– « طاب مساؤك ، ايتها الكونتيسة » كذلك قال بواب الفندق . «طاب مساؤك ، يا زعيمي . لا بد ان يكون البرد قارساً في الخارج .»

فقال الكولونيل : «إنه لكذلك » ولم يُضِف اياً من العبارات الجافية أو البذيئة عن مدى البرد ، وقوة الريح ، التي كان من دأبه اصطناعها في الأحوال العادية رغبة في الاستمتاع المتبادل كلما تحدّث منفرداً الى بواب الفندق .

وفيما هما يدخلان البهو الطويل المفضي الى السلّم العريض والى المصعد ، مخلّفاً – الى يمينك – المدخل الى المشرب (البار) ، والمَعْبَر المطل على القناة العظمى ، والمدخل الى حجرة الطعام ، انبثق المايسترو الاعظم من المشرب .

كان يرتدي سترة بيضاء رسمية ، طويلة ، ولقد ابتسم لهما وقال : «طاب مساؤك ، يا كونتيستي . طاب مساؤك ، يا زعيمي . »

فقال الكولونيل : « اهلاً بالمايسترو الاعظم ! »

وابتسم المايسترو الاعظم وقال وهو لا يزال منحنياً تحيةً لهما : « نحن نقدّم طعام العشاء في المشرب في الطرف الاقصى . فليس ههنا احد الآن في فصل الشتاء ، وحجرة الطعام اضخم مما ينبغي . لقد احتفظت

لكما بمائدتكما . ان لدينا جرادة بحر ممتازة جداً ، اذا كنتما تحبانها ، كاستهلال . »

ـ « أهي طازجة حقاً ؟ »

ـ « لقد رأيتها هذا الصباح عندما جاءت من السوق في سلة . كانت لا تزال على قيد الحياة وكانت خضراء داكنة ، مشاكسة الى ابعد حد »

ـ « هل تحبين ان تستهلي عشاءك بجرادة بحر ، يا بُنيّتي ؟ »

كان الكولونيل خجلاً باصطناع هذه الكلمة ، وكذلك كان المايسترو الأعظم ، وكذلك كانت الفتـــاة . ولكن الكلمة عنت عند كل منهم شيئاً مختلفاً .

ـ « كنت انوي الاحتفاظ بها لكما في حـــال مجيء ايّ من الاثرياء المتهالكين على الربح المحرّم . لقد ذهبوا الآن ليقامروا في «الليدو» . كنت احاول ان لا أبيعها . »

فقالت الفتاة : « يسرني ان أطعَمَ شيئاً مـن جراد البحر . بارداً مع المايونيز . وان يكون المايونيز كثيفاً .» لقد قالت هذا بالايطالية .
ثم قالت للكولونيـــل ، في نـــبرة جدية : « أليس جراد البحر غالياً اكثر مما ينبغي ؟ »

فقال الكولونيل : Az hija mia

فقالت : «إلمس جيبك الايمن . »

فقال المايسترو الأعظم : «سوف أتأكد من أن تلك الجرادة ليست غالية اكثر مما ينبغي . والا اشتريتها أنا . في استطاعتي أن افوز بها في يسر بالغ لقاء أجري الاسبوعي . »

ـ « سوف تباع للتروست Trust » كذلك قال الكولونيل ، وكانت لفظة «تروست» هذه هي اللقب المختصر الذي اطلقوه على القوات العسكرية المحتلة مدينة تريستا . «انها لن تكلفني غير اجرة يوم واحد . »

فقالت الفتاة : « ضع يدك في جيبك الأيمن واستشعِرْ انك موسر جـداً . »

وأدرك المايسترو ان هـــذه كانت نكتة شخصية ومضى لسبيله ، معتصماً بالصمت . كان سعيداً بالفتاة ، التي احترمها واعجب بها ، وكان سعيداً لما نعِمَ به الكولونيل من متعة وبهجة .

وقال الكولونيل : « انا غنيّ . ولكن اذا ناكدتِني بالاشارة الى تلك الأحجار على نحو موصول ، أعدتها اليك ، بأن اضعها على غطاء المائدة ، وعلى مرأى من الناس جميعاً . »

كان قد شرع هو يناكدها بـدَوْره ، على نحو خشِن ، راداً على الهجوم بهجوم معاكس من غير ان يفكر في ذلك مجرد تفكير .

فقالت : « لا ، لن تفعل ذلك لأنك شرعت تحب تلك الأحجار . »

ـ « إني لمستعد لأن أمسك بأيما شيء احبـــه واقذف به من اعلى شاطىء صخري قُدّر لعينيك أن ترياه ، وان لا انتظر حتى اسمعه يثب عن الارض . »

فقالت الفتاة : « لا ، لن تفعل . انك لن تقذف بي من ايما شاطىء صخري عالٍ . »

فأقرها الكولونيل قائلاً : « لا . واغفري لي حديثي الجافي هذا . »

فقالت الفتاة له : «ان حديثك لم يكن جافياً جداً ، وانـــا لم اصدّقه على اية حـــال . والآن هل امضي الى حجرة النساء لتسريح شعري وإظهار نفسي بمظهر لائق أم امضي معك الى حجرتك ؟ »

ـ « ايّ الخطتين تؤثرين ؟ »

ـ « أن امضي الى حجرتك ، طبعاً ، وارى كيف تعيش فيهـــا وكيف يجري كل شيء هناك . »

ـ « واهل الفندق ؟ »

ـ « كل شيء امسى معروفاً في البندقية على اية حال . ولكن الناس يعرفون أيضاً من هي اسرتي وأني فتاة صالحة . وهم يعرفون أيضاً ان المجتمِعَين أنا وأنت . ان لنا رصيداً نستطيع ان نستنفده . »

فقال الكولونيل : « حسن . بالسلم ام بالمصعد ؟ »

ـ « بالمصعد » ، كذلك قالت ، وسمع التغير الطارىء على صوتها . « في استطاعتك ان تنادي غلاماً ، واذا شئت اعملناه نحن بنفسَيْنا . »

فقال الكولونيل : « فلنُعْمِله نحن بنفسينا . لقد تبحرتُ في شؤون المصاعد منذ عهد بعيد . »

كانت رحلة المصعد ناجحة يشوبها ارتطام طفيف ، ثم اطّرد التيار الكهربائي آخر الأمر .

وقال الكولونيل في ذات نفسه : تزعم انك تبحّرت في هذا ، ايه ؟ من الخير لك ان تتبحر فيه من جديد .

لم يكن الرواق جميلاً الآن فحسب ، بل كان مثيراً . ولم يكن ادخال المفتاح في القفل عملية عادية ، بل كان طقساً من الطقوس .

ـ « ها هي ذي » ، كذلك قال الكولونيل وهو يدفع الباب بعد أن فتحه . « كيف تجدينها ؟ »

فقالت الفتاة : « انها فاتنة . ولكنها قارسة الى حد رهيب بسبب من هذه النوافذ المفتوحة . »

ـ « سوف اغلقها . »

ـ « لا ، ارجوك . دعها مفتوحة اذا كنتَ تحبّها هكذا . »

وقبّلها الكولونيل وأحسّ بجسدها الرائع المشوق ، الغض ، اللدن ، الحسن البناء يلامس جسده الذي كان قاسياً وحسناً ولكنه مضنىً . وفيما هو يقبّلها لم يفكر في شيء البتة .

وتبادلا القبلات فترة طويلة ، وقد وقفا منتصبين ، واستغرقا في التقبيل ، غير حافلين ببَرْد النوافذ المفتوحة المطلة على القناة العظمى .

وقالت : « اوه ! » ثم اضافت : « اوه ! »

وقال الكولونيل : « لسنا مدينين بشيء . بشيء البتة . »

ـ « هل ستتزوجني وهل سننجب الاولاد الخمسة ؟ »

ـ « سوف افعل ! سوف افعل ! »

ـ « هل ستفعل حقاً ؟ »

ـ « من غير ريب . »

ـ « قبلني كرة اخرى ، ودع ازرار سترتك العسكرية توجعني ولكن ليس اكثر مما ينبغي . »

ووقفا هناك وتبادلا قبلات حارة . وقالت : «عندي خيبة أمل لك. إن عندي ، في كل مسألة من المسائل ، خيبة أمل . »

قالت ذلك وكأنه رأي لا يحتمل الجدل . ولقد تناهى الى الكولونيل كما تناهت اليه رسالة من احدى الكتائب الثلاث ، عندما نطق قائد الكتيبة بالحقيقة المطلقة ونقل اليه اسوأ الانباء .

ـ « اواثقة انت مما تقولين ؟ »

ـ « نعم . »

فقال : « يا بنيّتي المسكينة ! »

ولم يكن ثمة ، الآن ، ايما شيء قاتم في تلك الكلمة ولقد كانت بنته حقاً ، ورثى لها وأحبها .

وقال : « لا بأس . سرّحي شعرك ، وجددي حمرة شفتيك وما الى ذلك ، ولسوف ننعم بعشاء شهيّ . »

ـ « قل كرة اخرى ، أولاً ، انك تحبني واضغط بأزرارك على صدري ضغطاً محكماً . »

ثم انه همس في اذنها على ارقّ نحو عرفه ، همس مثل همسه يوم كانوا على مبعدة خمسة عشر قدماً وكان هو ملازماً غضّ الشباب

يقوم بواجب الحراسة الليلية : انا احبكِ ، يا حبي الأفضل والأخير والوحيد الصادق . »

فقالت : « حسن . » وقبلته في حرارة حتى لقد استطاع ان يستشعر ملحَ الدم العذبَ داخل شفته . وقال في ذات نفسه : وانا احب هذا أيضاً .

ـ « والآن سوف اسرح شعري واجدّد حمرة شفتيّ وفي ميسورك ان تراقبني . »

ـ « هل تريدين ان أقفل لك النوافذ ؟ »

ـ « لا . سوف نفعل ذلك كله في غمرة البرد . »

ـ « من تحبين ؟ »

فقالت : « أنت . ولسنا ننعم بحظ عظيم ، اليس كذلك ؟ »

فأجابها الكولونيل : « لست ادري . ابدأي في تسريح شعرك . »

ومضى الكولونيل الى الحمام ليغتسل استعداداً لتناول طعام العشاء . وكان الحمام هو الجزء الوحيد غير المُرضي في تلك الحجرة . ذلك بأن الـ « غريتي » شُيّد اول ما شُيّد ليكون قصراً ، ومن هنا لم يكن في حجراته ، عند بنائه حمامات ، حتى اذا اضيفت اليه في ما بعد أقيمت في الرواق ، فكان على الراغبين في استعمالها أن يحيطوا ادارة الفندق علماً بذلك على نحو مسبقٍ فتعمد الى تسخين الماء وتقديم المناشف .

وكان هذا الحمام قد اقتُطع ، اعتباطياً ، من احدى زوايا الحجرة . ولقد كان حماماً دفاعياً اكثر منه هجومياً ، كذلك استشعر الكولونيل . وفيما كان يغتسل ، مضطراً الى النظر في المرآة ليمحو ايما اثر من آثار احمر الشفاه ، رأى الكولونيل الى وجهه .

وقال في ذات نفسه ، إنه يبدو وكأنّ نجاراً غيرَ مبالٍ قدّهُ من خشب . »

ونظر الى مختلف الندوب والأخاديد التي كانت قد ظهرت قبل ان تُعرَف الجراحة التجميلية ، والى الخطوط الرفيعة ، التي خلفتها الجراحات التجميلية البارعة بعد اصابة الرأس بجراح ، والتي ما كان يلحظها غيرُ المطلعين على سرّها .

حسناً ، هذا كل ما استطيع ان اقدّمه كشدق او واجهة ، كذلك قال في ذات نفسه . وانها لتقدمة هزيلة الى حدٍ لعين . وخير ما فيها انها مسفوعةٌ وهذا ما يجرّدها من بعض دمامتها . ولكن ، يا للمسيح ، ايّ رجلٍ بشع أنا !

ولم يلاحظ فولاذ عينيه العتيق البالي ، وغضون الضحك الصغيرة المتطاولة عند زوايا عينيه ، لا ولم يلاحظ ان انفه المكسور كان أشبه بأنف مصارع محترف في التماثيل الأشد امعاناً في القِدَم . بل لم يلاحظ فمه الرقيق في جوهره والذي كان في امكانه ان يصبح قاسياً لا يعرف الرحمة حقاً .

اذهبي الى الجحيم ، كذلك قال للمرآة . وأنت أيها البائس المقهور ، هل يتعين عليّ وعليك أن نعاود الجلوس في حضرة السيدات ؟

وغادر الحمام الى الحجرة ، وكان ناضر الشباب كعهده يوم شنّ هجومه العسكري الاول . لقد خلّف في ذلك الحمام كل الاشياء التافهة الحقيرة كما هي الحال دائماً ، هكذا قال في ذات نفسه . فذلك هو المكان الذي جُعِلت له .

وقال بالفرنسية : اين ثلوج العام الماضي ؟ اين ثلوج الايام الغابرة ؟ كل هذه الأشياء وأمثالها في المبولة

Ou sont les neiges d'antan ? Ou sont les neiges d'autrefois ? Dans le pissoir toute la chose comme ça .

وكانت الفتاة ، التي كان اسمها الاول ريناتا ، قد فتحت بابَيْ الخزانة الطويلة . وكان البابان مكسوّين بكاملها بالمرايا ، من داخل ، وكانت تسرّح شعرها .

انها لم تكن تسرّحه زهواً منها وُعجباً ، لا ولا لكي تُحدِث في نفس الكولونيل ما كانت تعلم ان في امكان ذلك ان يُحدثه وما كان خليقاً به ان يُحدثه . كانت تسرّحه في عسر ومن غير توقير . واذ كان جدّ كثيف ، نابضاً بالحياة كشعر الفلاحات أو كشعر الفاتنات من نساء طبقة النبلاء العليا ، فقد قاوم المشط وتمرّد عليه .

فقالت : « لقد جعلته الريح شديد التشابك والتعقيد . ألا تزال تحبني ؟ »

فقال الكولونيل : « بلى . هل تسمحين لي بأن اساعدك ؟ »

— « لا . لقد دأبت ، طوال حياتي ، على تسريحه بنفسي . »

— « في استطاعتك ان تقفي مجانَبةً . »

— « لا . ان جميع خطوط جسمي الحدّية هي لأولادنا الخمسة ولرأسك انت كي يستنيم اليها . »

فقال الكولونيل : « كنت افكر في الوجه وحسب . ولكني اشكرك لتنبيهكِ اياي . لقد تردّى انتباهي في الخطأ كرة اخرى . »

— « أنا وقحة اكثر مما ينبغي . »

فقال الكولونيل : « انهم في اميركا يصنعون هذه الأشياء من أسلاك ومطاط اسفنجيّ ، كذلك الذي نستعمله في مقاعد الدبابات . والمرء لا يدري هناك ، ابداً ، ما اذا كان الأمر ينطوي على أي قدْر من الحقيقة الا اذا كان ولداً خبيثاً ، مثلي أنا . »

— « أما هنا فالوضع غير ذلك . » قالت هذا وأدارت شعرها بالمشط — وكان الآن مفروقاً — الى أمام حتى أمسى تحت خط وجنتها ، ثم أمالته الى الوراء فتدلىّ على منكبيها .

— « هل تجده أنيقاً ؟ »

— « انه ليس مغالياً في الاناقة ولكنه جذاب الى حد لعين . »

ـ « في استطاعتي أن ارفعه الى اعلى وأن أفعل اضراب ذلك كله اذا كنت ممن يُعجبون بالاناقة ويقدّرونها . ولكنني لا احسن اصطناع دبابيس الشعر ، وان ذلك ليبدو لي حماقة بالغة . » كان صوتها رخيماً جداً ، ولقد ذكرّه دائماً ببابلو كاسالز وهو يعزف على الفيولانسيلوّ بحيث جعله يستشعر وكأن به جرحاً لا يطيق له احتمالاً . ولكنك تستطيع ان تحتمل كل شيء ، كذلك قال في ذات نفسه .

وقال الكولونيل : « انا أحبك كما انتِ حباً عظيماً . وأنتِ أجمل امرأة قُدّر لي ان اعرفها ، أو أراهـا ، حتى في لوحات الرسامين الكبار . »

ـ « اني لأعجب لماذا لم تأتِ اللوحة . »

ـ « إن امتلاك تلك اللوحة شيء رائع ، » كذلك قال الكولونيل ، وقد عاد الآن جنرالاً كرة اخرى من غير ان يفكر في ذلك . « ولكنه اشبه بسَلْخ حصان ميت » .

فقالت الفتاة : « لا تكن فظاً ، أنا لا أستشعر البتة وكأنني فظة هذه الليلة . »

ـ « لقد انزلقتُ الى عامية صناعتي القذرة sale métier »

فقالت : « لا ، ارجوك ان تطوقني بذراعيك ، في رفق وإحكام . ارجوك ، إنها ليست صناعة قذرة . أنها اقدم الصناعات وخيرها ، برغم ان الكثرة الكبيرة من الذين يمارسونها تافهون . »

وطوّقها بأقصى ما استطاع من إحكام من غير أن يؤذيها ، فقالت : « انا لا احبّ لك أن تكون محامياً أو كاهناً . لا ، ولا ان تكون تاجراً يبيع الاشياء ، أو رجلاً ناجحاً ذا ثروة طائلة . انا احب لك أن تكون كما أنت في صناعتك هذه ، وإني لأحبك . أرجوك ان تهمس في اذني اذا شئت . »

وهمس الكولونيل في اذنها ، فيما هو يضمها اليه في قوة ، وبقلبه

المنسحق انسحاقاً كاملاً في همسهِ الذي كاد ان لا يُسمع إلا كا تُسمع صفرة كلب صامتة على مقربة دانية من الاذن : « انا احبك ، ايتهـــا العفريتة وانت بنيتي أيضاً . ولستُ ابالي بخسائرنا لأن القمر امنا وأبونا . والآن فلنهبط لتناول العشاء . »

وهمس بهذه الجملة الأخيرة في صوت كان من الخفوت بحيث لا يستطيع سماعه غير المحب .

وقالت : « سمعاً وطاعة . اجل ، ولكن قبلني كرة اخرى أولاً . »

١٢

كانا الآن جالسين الى مائدتها في زاوية المشرب القصوى ، حيث كان كلّ من جناحَيْ الكولونيل مصوناً مغطىً ، وحيث أسند ظهره في مَنْعة الى زاوية الحجرة . ولم يغفل المايسترو الأعظم عن ذلك ، فقد كان رقيباً ممتازاً في سرية مشاة صالحة ، في فرقة عسكرية من الطراز الأول ، فخليق به ان لا يُجلس «زعيمه» في وسط حجرة إلا بقدْر ما كان خليقاً به أن يتخذ موقفاً دفاعياً أحمق .

وقال المايسترو الاعظم : «هي ذي جرادة البحر .»

كانت جرادة البحر مهيبة . وكان حجمها ضعف حجم جرادات البحر العادية ، وكان تجهمها قد زال بفضل الغلي في الماء الحارّ ، فهي تبدو الآن وكأنها نصبٌ تذكاري لنفسها الميتة . وكان لا ينقصها شيء حتى عيناها الجاحظتان ، وحتى ملامسُها [1] الدقيقةُ البالغة الطول التي جُعِلت لكي تمكّنها من ادراك ما قد تَعجز العينان الحمقاوان عن إعلامها به .

ان هذه الجرادة البحرية تبدو شبيهة بعض الشيء بجورجي باتون [2]،

---

١ – الملامس : قرون الحشرة التي بها تتلمس طريقها .

٢ – patton جنرال اميركي ١٨٨٥ – ١٩٤٥ لعب دوراً هاماً في الحرب العالمية الثانية . (المعرب) .

كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . بيد أنها لم تبك قط ، في اغلب الظن ، عندما أخرجت من موضعها . »

فسألته الفتاة بالايطالية : «أتظن انها سوف تكون قاسية ؟ »

- « لا » ، كذلك اكد لها المايسترو الاعظم وهو لا يزال منحنياً بالجرادة البحرية . « انها ليست قاسية البتة . انها ضخمة وحسب . انتما تعرفان هذا النوع . »

فقال الكولونيل : « حسن جداً . ضعها على المائدة . »

- « وما الذي ستشربانه ؟ »

- « ماذا تريدين ان تشربي ، يا بنيتي ؟ »

- « ماذا تريد انت ؟ »

فقال الكولونيل : «كابري بيبانكو . ولتكن صرفة جد مثلوجة . »

فقال المايسترو الأعظم : «هي جاهزة لديّ . »

فقالت الفتاة : «نحن نأخذ بأسباب المرح . لقد عدنا الى ذلك من غير ما أسىً . أليست جرادة بحرية مهيبة ؟ »

- « من غير ريب . » كذلك اجابها الكولونيل . ومن الخير لها أن تكون رقيقة الحاشية . »

فقالت الفتاة له : « سوف تكون كذلـــك . المايسترو الاعظم لا يكذب . اليس من الرائع ان يكون ثمة اناس لا يكذبون ؟ »

فقال الكولونيل : « ذلك شيء رائع جداً ، ونادراً جداً . لقد كنت افكـّر اللحظة برجل يدعى جورجي باتون ... رجل ربما لم يعرف الصدق طوال حياته . »

- « هل تعمد انت الى الكذب في بعض الاحيان ؟ »

- « لقد كذبت اربع مرات . ولكني كنت في كل مرة مُرهقـاً

جداً . » قال ذلك ثم اضاف : « هذا ليس بمبرّر على اية حال . »

– « أما انا فقد كذبت كثيراً حين كنت فتاة صغيرة . ولكن ذلك كان في الغالب من اجل اختلاق القصص . أو هـذا ما أرجوه . ولكني لم اكذب في حياتي قط رغبةً في نفع ذاتيّ . »

فقال الكولونيل : « لقد كذبتُ أنا أربع مرات . »

– « هل كنت تصبح جنرالاً لو لم تكذب ؟ »

– « لو كذبتُ كما تعود الآخرون ان يكذبوا لأصبحت جـنرالاً بثلاث نجوم . »

– « وهل كان خليقـاً بك ان تستشعر قدراً من السعادة اعظم لو اصبحت جنرالاً بثلاث نجوم ؟ »

فقال الكولونيل : « لا ، من غير ريب . »

– « ضع يدك اليمنى ، يدك الحقيقيـة ، في جيبك مرةً وقل لي ما شعورك . »

ونزل الكولونيل عند رغبتها .

وقال : « شيء رائع . ولكن عليّ ان اعيدها اليك كما تعلمين . »

– « لا . ارجوك ، لا . »

– « لن نخوض في هذا البحث الآن . »

وفي تلك اللحظة كانت الجرادة البحرية قد قُدّمت اليها .

كانت رقيقة الحاشية ، وكانت تتمتع بتلك اللطافة الزَلِقة الفريدة الخاصة بتلك العضلة الرافسة التي هي ذيلها . وكانت براثنها ممتازة : إنها لم تكن هزيلة اكثر مما ينبغي ، ولم تكن بدينة اكثر مما ينبغي .

وقال الكولونيل للفتاة : « الجرادة البحرية تبلغ كمالها مع القمر . فحين يكون القمر قائمـاً تكون الجرادات البحرية غير جديرة بأن تؤكل . »

– « لم اكن اعرف ذلك . »

ـ « أحسب أن مردّ هذا الى أنه ، حـين يكون القمر بدراً ، تغتذي الجرادات البحرية طوال الليل . أو ربما كان مردّ هذا الى ان البدر يسوق اليها ما تغتذي به . »

ـ « انها تُقبل من الشاطىء الدالماسي ، أليس كذلك ؟ »

فقال الكولونيل : « بلى . ذلك هو شاطئكم الغني بالسمك . ولعله يتعيّن عليّ أن اقول شاطئنا **نحن** الغني بالسمك . »

فقالت الفتاة : « قلها . انت لا تدري مبلغ اهمية الاشياء التي تقال . »

ـ « إن اهميتها تصبح اعظم الى حد لعين حين تخطّها على الورق . »

فقالت الفتاة : « لا ، لست اقرّك على هذا . الورق لا يعني شيئاً إلا اذا نُقلتِ الكلمات المسطورة عليه في قلبك . »

ـ « وماذا ان لم يكن لك قلب او كان قلبك تافهاً لا قيمة له ؟ »

ـ « إن لك لقلباً ، وليس هو بتافه لا قيمة له . »

لشدّ ما اتمنى لو أستبدل به قلباً جديداً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . انا لا افهم لماذا يتعين على هذه العضلة بالذات ، من دون سائر العضلات ، أن تخذلني . ولكنه لم ينطق بشيء من هـذا ووضع يده في جيبه .

وقال : « ان ملمسها رائع . وانك لتبدين رائعة . »

فقالت : « شكراً . سوف اتذكر هذا طوال الاسبوع . »

ـ « في استطاعتك دائماً ان تكتفي بالنظر الى المرآة ليس غير . »

فقالت : « المرايا تضجرني . إنّ وضع اصبع الحمرة على الشفتين وتحريك احداهما فوق الاخرى لجعلها تنتشر على الوجه الافضل وتسريح الشعر الكثيف اكثر مما ينبغي ... إن هذا كله ليس حياة جديرة بامرأة ، بل ليس حياة جديرة بفتاة متوحدة ، تحب شخصاً ما . فحين تريد ان تكون القمرَ ومختلف النجوم وان تحيا مع بعلك وأن تنجب خمسة

اولاد لا يكون النظر في المرآة واصطناعُ الخدع النسوية على اختلافها مثيراً جداً . »

ـ « إذن فلنتزوج في الحال . »

فقالت : « لا . لقد تعيّن عليّ ان اتخذ قراراً في هذه المسألة ، كشأني في المسائل الاخرى . اني اسلخ ايام الاسبوع كلها في اتخاذ القرارات . »

فقال لها الكولونيل : « وانا اتخذ القرارات ايضاً . ولكني لا اقوى على التزام هذه القرارات دائماً . »

ـ « دعنا نكفّ عن الحديث في هذا الموضوع . ان ذلك قد يُحْدث جرحاً عذباً ، ولكني أعتقد ان من الخير لنا ان نكتشف اي انواع اللحم موجودة عند المايسترو الاعظم . احتسِ خمرك ، ارجوك . إنك لم تمسّها بعد . »

ـ « سوف امسّها الآن . » كذلك قـــال الكولونيل . ومسّ الخمر ، فإذا هي هزيلة باردة مثل خمور اليونان ، ولكنها غير راتنجيّة ، ولكن جسدها كان في مثل امتلاء جسد ريناتا وجماله .

ـ « انها شديدة الشبه بك . »

ـ « اجل . ادري . وهذا هو السبب الذي من اجله اردتك ان تذوقها . »

فقال الكولونيل : « اني اذوقها . ولسوف اتجرع الآن كأساً مترعة . »

ـ « انت رجل طيب . »

ـ « شكراً . » كذلك قال الكولونيل . « سوف أتذكر هذا طوال الاسبوع ، واحاول ان اكون رجلاً طيباً . » ثم اضاف : « ايها المايسترو الأعظم . »

وحين أقبل المايسترو الاعظم ، سعيداً ، نزاعاً الى التآمر ، متجاهلاً

قرحته المعِدية سأله الكولونيل : « اي ضرب من اللحم عندك يستحق ان نلتهمه ؟ »

فقال المايسترو الاعظم : « لست اعلم ذلك علم اليقين ، ولكني سوف أستطلع . إن مواطنك قاعد هناك على مبعدة تمكّنه من السماع . لقد أبى عليّ أن أجلِسَهُ في الزاوية القصوى . »

فقال الكولونيل : «حسن . سوف نقدّم له موضوعات يكتب فيها. »

ـ « إنه يكتب كل ليلة ، كما تعلم . لقد سمعت ذلك من احد زملائي في الفندق الذي ينزل فيه . »

فقال الكوَلونيل : «حسن . هذا يدل على انه مُجِدٌ برغم انه عمّر اكثر من مواهبه . »

فقال المايسترو الاعظم : « اننا كلنا مجدّون . »

ـ « بطرائق مختلفة . »

ـ « سوف أمضي وأستطلع أيّ نوع من اللحم موجود فعلاً . »

ـ « إستطلع في عناية . »

ـ « أنا مُجدّ . »

ـ « وأنت ايضاً فطنٌ الى حدّ بعيد . »

وانصرف المايسترو الأعظم ، وقالت الفتاة : « انه رجل ظريف ، ويسعدني ان يكون مولعاً بك هذا الولوع كله . »

فقال الكولونيل : « نحن صديقان حميمان . وأرجو أن يجد لك شريحة لحم بقر جيدة . »

ـ « هناك شريحة لحم بقر جيدة جداً . » كذلك اعلن المايسترو الأعظم عائداً .

ـ « خذيها يا بُنيّتي . أنا افوز بأمثالها دائماً على مائدتنا المشتركة مع زملائي من الضباط . هل تحبينها مطفّفة النضج ؟ »

ـ « مطفّفة النضج جداً ، ارجوك . »

فقال الكولونيل : « كلها دم Al sangue ، كما قال جون حين تحدّث الى النادل بالفرنسية . نيئة ، زرقاء ، Crudo , bleu ، أو اجعلها مطفّفة النضج ليس غير . »

فقال المايسترو الاعظم : « إنها مطففة النضج . وانت ، يا زعيمي ؟ »

ـ « محار السكالوبين مـــع المارسالا ، وشيء من القُنُّبيط المدمَّس بالزبدة . مع خرشوفة بالخلّ اذا وجدتَ واحـــدة . ماذا تريدين ، يا بُنيّتي ؟ »

ـ « بعض البطاطا المهروسة وسَلطة بسيطة . »

ـ « أنت فتاة في طور النموّ . »

ـ « اجل . ولكن عليّ ان لا أنمو اكثر مما ينبغي ، وان لا أنمو في الاتجاهات المغلوطة . »

فقال الكولونيل : « احسب ان هـــذا يضبط النموّ ويوجهه . ما رأيك في ألفيّة من الفالبوليشيلاّ ؟ »

ـ « ليس عندنا ألفيّات . هـــذا فندق راقٍ كما تعلم . انها تأتينا معبأة بزجاجات . »

فقال الكولونيل : « لقد نسيت . هل تذكر عندما كان ثمن الليتر الواحد منها ثلاثين سنتيماً ؟ »

ـ « ويوم كنا نلقي الألفيات الفـــارغة على حرس المحطة من قُطر الجند الحديدية ؟ »

ـ « وكنا نسفح كل ما تبقّى فيها على القنابل اليدوية ثم نقذف بها الى سفح الهضبة ونحن عائدون من مرتفعات الغرابّا ؟ »

ـ « وكانوا حين يرون الانفجارات يحسبون ان ثمة هجوماً واقتحاماً للخطوط ، وكنت لا تحلق لحيتك أبداً ، وكنا نرتدي الـ Fiamme nere

فوق السترات الرمادية المفتوحة والكنزات الرمادية ؟»

ـ « وشربتُ انا شراب الغرابا ولم أجد لها مذاقاً ؟ »

فقال الكولونيل : « لا ريب في اننا كنا بالغي الطيش آنذاك . »

ـ « اجل ، كنا بالغي الطيش آنذاك ، » كذلك قال المايسترو الأعظم . « لقد كنا فتيانَ سوء آنذاك ، وكنت انت أسوء فتيان السوء جميعاً . »

فقال الكولونيل : « اجل . احسب أننا كنا فتيان سوء الى حد ما . انت تغفرين لي هذا ، اليس كذلك . »

ـ « أحسب انه ليس لديك صورة ترقى الى ذلـــك العهد ... هل لديك ؟ »

ـ « لا ، لم يكن ثمة رسوم إلا ويظهر فيها دانونزيو . وفوق هـذا فإن معظم الرفاق انتهوا الى نهاية فاجعة . »

فقال المايسترو الاعظم : « ما عدانا . والآن يتعيّن عليَّ ان أمضي وأرى اين وصلوا في إعداد الشريحة . »

واستسلم الكولونيل ـ الذي عاد الآن ملازماً ثانياً ، ممتطياً متن شاحنة ، وقد كسا الغبار وجهه فلم يتبدَّ غيرُ عينيه المعدنيتين ، وكانتا حمراويَّ الحواشي محتقنتين ـ اقول استسلم الكولونيل للتفكير .

المواقع الرئيسية الثلاثة ، كذلك قـال الكولونيل في ذات نفسه . جبل «الغرابّا» وفيه «آسالون» و «بيرتيكا» ، والهضبة التي لا اذكر اسمهـا والتي تقوم الى ناحية اليمين . ذلك كان المكانَ الذي ترعرعت فيه ، كذلك قال في ذات نفسه ، وكل ليلة كنت افيق والعرق يتصبب مني ، حالماً بأنني لن استطيع اخراجهم من الشاحنات . وليس من ريب في أنه ما كان ينبغي لهم ان يُخرَجوا مــنها ابداً . ولكن يا لها من صناعة !

وقال للفتاة : « في جيشنا كما تعلمين ، يستطيع المرء ان يقول إن

الجنرالات ، او الكثرة الكبرى منهم ، لم يقاتلوا في ايما يوم قط . هذا غريب جداً ، والهيئة العليا تبغض اولئك الذين قاتلوا . »

ـ « وهل يقاتل الجنرالات فعلاً ؟ »

ـ « اوه ، نعم . حين يكونون برتبة رئيس (كابتين) وملازم اول أو ثانٍ . أما في بعد فالقتال – إلا في حالات الانكفاء والانسحاب – يكون عملاً اقرب الى الحمق . »

ـ « وهل قاتلت كثيراً ؟ أنا أعلم انك فعلتَ ، ولكن قل لي ذلك بنفسك . »

ـ « لقد قاتلت الى حدّ جدير بأن يحمل المفكرين الكبار على تصنيفي في عداد الحمقى . »

ـ « حدثني عن ذلك . »

ـ « حين كنت غلاماً قاتلت ضد أروين روميل [1] نصف المسافة من كورتينا الى الفراتّا حيث صمدنا . كان رئيساً (كابتن) آنذاك ، وكنت أنا مرشح رئيس .ملازماً ثانياً في الواقع . »

ـ « هل عرفته ؟ »

ـ « لا . لم اعرفه إلا بعد انقضاء الحرب حين أمسى في ميسورنا ان نتحدث معاً . كان قريباً الى القلب جداً ، ولقد أحببته . كنا نتزلج معاً . »

ـ « هل احببت كثيراً من الألمان ؟ »

ـ « كثيراً جداً . وكنت كلفاً اكثر ما يكون بـ « ارنست يودت »

ـ « ولكنهم كانوا على ضلال . »

---

١ – Erwin Rommel قائد القوات الالمانية في شمال افريقية خلال الحرب العالمية الثانية . (المعرب)

- « طبعاً . ولكن من الذي لم يكن على ضلال ؟ »

- « انا لا استطيع ان احبهم ، او ان اتخذ منهم موقفاً متسامحاً كما تفعل أنت بعد ان قتلوا أبي واحرقوا دارتنا في الـ « بريلتا » ، وبعد أن رأيت ضابطاً المانياً يطلق النار من « بارودة خردق » على الحمام في ساحة كاتدرائية القديس مرقص . »

فقال الكولونيل : « لقد فهمت . ولكن ارجوك ، يا بنيّتي ، أن تحاولي فهم موقفي أيضاً . حين يقتل المرء هذا العدد الكثير من الناس يصبح في ميسوره ان يكون سمحاً . »

- « كم رجلاً قتلت ؟ »

- « مئة واثنين وعشرين مؤكّدين . ولست أذكر الاحتمالات . »

- « ولم يبكّتك ضميرك ؟ »

- « البتة . »

- « ولم يتمثّل لك ذلك على صورة كوابيس ؟ »

- « لا . لم أرَ اية كوابيس . ولكني ارى ، عادة ، احلاماً غريبة . احلاماً متصلة بالمعركة ، دائماً ، بعد فترة من انقضاء المعركة . أما بعد ذلك فالكثرة الكبرى مما أراه احلام غريبة عن المواطن والاماكن . نحن نحيا على احداث ارض المعركة ، كما تعلمين . وارض المعركة هي ما يبقى في الجزء الحالم من عقولنا . »

- « ألا تراني ، البتة ، في ما يراه النائم ؟ »

- « انا احاول ذلك . ولكني لا أستطيع . »

- « لعل اللوحة ان تساعدك . »

فقال الكولونيل : « ارجو ذلك . لا تنسَيْ ، من فضلك ، أن تذكريني بإعادة أحجار الزمرد اليك . »

- « ارجوك ان لا تكون قاسياً عليّ . »

ـ « ان لديّ ضروراتي الصغيرة الخاصة بالشرف بنفس النّسبة التي يشدّنا بها حبنا العظيم الغامر . إننا لا نستطيع أن نملك أحدهما من غير ان نملك الآخر . »

ـ « ولكن في امكانك ان تمنحني بعض الامتيازات . »

فقال الكولونيل : « لقد منحتك ذلك . إن احجـار الزمرد لفي جيبي . »

عندئذ اقبـل المايسترو الأعظم بشريحة لحم البقر وبمحار السكالوبين والخُضر . لقد حملها غلام صقيل الشعر لا يؤمن بشيء ، ولكنه كان يسعى جاهداً لأن يصبح نادلاً ثانياً ناجحاً . كان عضواً في « المنظمة » . وسكب المايسترو الاعظم الطعام في رشاقة ، وفي احترام للطعام وللذَين كانا على وشك أن يتناولاه . »

وقال : « إشرعا الآن في الأكل . »

ـ « انزع سدادة الفالبوليسيلاّ ، » كذلك قال للغلام ذي العينين غير المصدّقتين الشبيهتين بعيني كلب صغير طويل الشعر والاذنين .

ـ « ما عندك من معلومات عن تلك الشخصية ؟ » كذلـك سأله الكولونيل ، مشيراً الى مواطنه الجدور الجالس الى المائدة يمضغ طعامه، فيما كانت رفيقته المسّنة تأكل في كياسة تذكـّر بكياسة أبناء الضواحي.

ـ « عليك أنت أن تخبرني . وليس العكس . »

فقال الكولونيل : « انا لم أره قط قبل اليوم . إنه أعسر من ان يُهضم مع الطعام . »

ـ « انه يلاطفني . وهو يتكلم ايطالية رديئة ، على نحو مثـابر . ويذهب الى كل مكان في «بيديكير» [1] وليس له اي ذوق لا في الطعام

---

١ ـ Baedeker سلسلة كتب وضعها لارشاد السياح ناشر الماني يحمل هذا الاسم(المعرب)

ولا في الشراب . المرأة ظريفة . وأحسب أنها عمته . ولكني مفتقر الى المعلومات الحقيقية . »

– « إنه يبدو وكأنه شيء نستطيع الاستغناء عنه »

– « احسب ان في امكاننا ذلك ، عند الاقتضاء . »

– « هل يتحدث عنا ؟ »

– « لقد سألني من أنتما ؟ ولم يكن اسم الكونتيسة غريباً بالنسبة اليه . لقد زار – على صفحات الكتاب – عدداً من القصور التي كانت الاسرة تملكها في الأيام الخالية . ولقد أُعجب باسمك ، يا سيدتي ، وكنت قد ذكرته له لكي أثير مشاعره . »

– « هل تحسب انه سوف يُنزلنا في مؤلف من مؤلفاته ؟ . »

– « أنا واثق من ذلك . إنه يُنزل كل شيء في كتاب . »

فقال الكولونيل : « ينبغي لنا أن نُنزَل في كتاب . هل تمانعين ، يا بنيّتي ؟ . »

– « طبعاً لا » ، كذلك قالت الفتاة . « ولكني أوثر أن يكون دانتي هو المؤلف . »

فقال الكولونيل : « دانتي ليس بيننا . »

فسألته الفتاة : « هل تستطيع أن تخبرني ايّ شيء عن الحرب ؟ أيّ شيء يجازُ لي أن أعرفه ؟ . »

– « من غير ريب . استطيع أن أخبرك بكل ما يروق لك منها . »

– « كيف كان الجنرال آيزنهاور ؟ »

– « كان يمثل عصبة ايبوورث [1] خير تمثيل . ولعل هذا حكم ظالم

---

١ – Epworth League منظمة دينية للشبان الميتوديين انشئت عام ١٨٨٩ في كليفلند بولاية اوهيو في الولايات المتحدة . وقد استمدت اسمها من مسقط رأس جون ويزلي Wesley ايبوورث ، لينكولنشاير في انكلترة (المعرب) .

أيضاً. وكان خاضعاً فوق هذا لمؤثرات اخـــرى مختلفة . سياسي ممتاز . جنرال سياسي . عظيم البراعة في هذا الحقل . »

ـ « والزعماء الآخرون ؟ »

ـ « فلنتجنب الكلام عليهم . لقد تكلموا عن أنفسهم ، الى حدّ كاف ، في مذكراتهم . ومعظمهم كان موضع الثقة القصوى بسبب من شيء لم تسمعي به قط يدعى «نادي الروتاري» . ففى هذا النادي لديهم ازرار مطلية بالميناء تحمل اسماءهم الأولى ، وإنك لتغرّم إذا ما دعوتهم باسمائهم العادية . إنهم لم يقاتلوا البتة . البتة . »

ـ « ألم يكن ثمة قادة بارعون ؟ »

ـ « بلى كان ثمة كثير . برادلي ، المدرّس ، وكثير آخرون . أنا أعطيك برادلي مثلاً على القائد البارع . البارع جداً . »

ـ « من كان هو ؟ »

ـ « كان قائد الجيش السابع عندما كنت انا هناك . إنه راجح الفكر جداً . خفيف الحركة . دقيق ، وهو اليوم رئيس الأركان العامة . »

ـ « ولكن ما رأيك في القادة الكبار الذين سمعنا عنهم كثيراً ، مثل الجنرال مونتغوميري والجنرال باتون ؟ »

ـ « إنسيهما ، يا بنيتي . فقد كان «مونتي» قائداً لا يستطيع ان يتحرك الا اذا كانت نسبة رجاله الى رجال العدو كنسبة خمسة عشر الى واحد . ولم يكن ليتحرك بعد ذلك إلا في بطء وتوانٍ . »

ـ « لقد حسبت دائماً أنه كان جنرالاً عظيماً . »

فقال الكولونيل : « لا ، لم يكن . وأسوأ ما في الأمر أنه كان يعرف ذلك . لقد رأيته يفد الى احد الفنادق فيخلع بذلته العسكرية الخاصة ويرتدي كسوة تجذب اليها أبصار الغوغاء لكي يخرج بعد ذلك ليـــلا فيستثير همة جمهور العامة . »

— « هل تبغضه ؟ »

— « لا . كل ما افكر فيه هو أنه جنرال بريطاني . أياً ما كان معنى هذا . ولا تستعملي انتِ ذلك الاصطلاح . »

— « ولكنه قهر الجنرال رومل . »

— « أجل . ولكن الا تعتقدين ان شخصاً آخر قد رقّق من حاشيته ؟ ومن ذا الذي لا يستطيع ان ينتصر حين تكون نسبة رجاله الى رجال العدو كنسبة خمسة عشر إلى واحد ؟ عندما قاتلنا هنا ، أنا والمايسترو الأعظم ، يوم كنا غلامين ، احرزنا النصر طوال عـــام كامل ونسبة رجالنا الى رجال العدو كنسبة ثلاثة او اربعة الى واحد ، ولقد انتصرنا في كل معركة . في ثلاث معارك رئيسية ضارية . وهذا هو السبب الذي من أجله نستطيع أن نرسل النكات ولا نعرف التجهم . لقد قُتِل في ذلك العام اكثر من مئة واربعين الف رجل . وهذا هو السبب الذي من أجله نستطيع أن نتحدث في مرح ومن غير مباهاة . »

فقالت الفتاة : « إنه لعلمٌ ملعون الى ابعد الحدود ؛ اذا جاز لنا ان ندعوه علماً . انا أكره التنصُّب الحربية التذكارية ، برغم أني أحترمها . »

— « وأنا لا أحبها أيضاً . ولا احب العملية التي افضت الى إقامتها . هل قُدِّر لكِ ان تشهدي نهاية تلك العملية ؟ »

— « لا . ولكني أودّ لو أعرف . »

فقال الكولونيل : « من الخير لك ان لا تعرفي . كلي شريحتك قبل ان تبرد ، واغفري لي تحدُّثي عن صناعتي . »

— « أنا أبغضها ولكني أحبها . »

فقال الكولونيل : « أحسب اني اشاركك العواطف نفسها . ولكنْ فيمَ يفكر مواطني المجدور عند مبعدة ثلاث موائد ؟ »

– « في كتابه القادم ، أو في ما تقوله صفحات دليل السيّاح . »

– « ما رأيك في الذهاب وامتطاء متن غندول في الريح بعد أن تناولنا طعام العشاء ؟ »

– « خليق بذلك ان يكون رائعاً . »

– « هل نخبر الرجل المجدوز اننا ذاهبان ؟ أنا أحسب أن النُقَر نفسها تكسو قلبه ، وتكسو روحه ، وربما كسَتْ فضوله ايضاً . »

فقالت الفتاة : « لن نخبره بشيء . في استطاعة المايسترو الأعظم أن ينقل اليه أي نبأ نريد ابلاغه اياه . »

ثم إنها راحت تمضغ شريحتها في قوة وإحكام ، وقالت : « هل تعتقد بصحة ما يقولون من ان الناس يصنعون وجوههم الخاصة بأنفسهم بعد الخمسين ؟ »

– « ارجو أن لا يكون ذلك صحيحاً . لأني غير مستعد لأن أقرّ وجهي وأعترف به . »

– « انت . » كذلك قالت . « أنت . »

فسألها الكولونيل : « هل الشريحة جيدة ؟ »

– « انها رائعة . وكيف محار السكالوبين ؟ »

– « طريّ جداً . والصلصة غير حلوة البتة . هل اعجبتك الخُضَر ؟ »

– « القُنَّبيطة تكاد تكون هشّة . مثل الكرَفْس . »

– « ينبغي ان ننعم ببعض من الكرفس . ولكني لا أعتقد أن عندهم شيئاً منه ، وإلا لجاءنا المايسترو الأعظم به . »

– « ألسنا نستمتع بطعامنا ؟ تخيّلْ لو استطعنا دائماً ان نتناول الطعام معاً . »

– « لقد اقترحت عليك ذلك من قبل . »

— « فلنجتنب الكلام في هذا الموضوع . »

فقال الكولونيل : « حسن جداً . ولقد اتخذتُ أنا قراراً أيضاً . إني أعتزم ان أهجر الجيش وأقيم في هـــذه المدينة ، ببساطة كلية ، مستعيناً على ذلك براتب التقاعد . »

— « هذا رائع . كيف تبدو في الملابس المدنية ؟ »

— « لقد رأيتني من قبل . »

— « ادري ، يا عزيزي . لقد قلت ذلك على سبيل المزاح . إنك لتطلق في بعض الاحيان ضروباً من المزاح القاسي ، أيضاً ، كما تعلم . »

— « سوف أبدو في مظهر حسن . أعني اذا كان لديكم هناك خياط يحسن تفصيل الملابس . »

— « ليس ههنا مثل هذا الخياط ، ولكن ثمة واحداً في رومة . هل نستطيع أن نمتطي متن السيارة ونمضي معاً الى رومة لكي نفوز بالملابس ؟ »

— « نعم . ولسوف نقيم خارج المدينة في فيتربو ، ولن نقصد اليها إلا التماساً للأثاث وابتغـاء تناول الطعام حـين تهبط العتمة . وبعد ذلك ننقلب عائدَيْن بالسيارة في موهن من الليل . »

— « وهل سنرى ممثلي السينما وممثلاتها ، ونتحدث عنهم في صراحة ، و .... نشرب معهم كأساً ؟ »

— « سوف نراهم بالآلاف . »

— « هل سنراهم يتزوجون مثنى وثُلاثَ ، ونرى البـــابا يباركهم بعد ذلك ؟ »

— « اذا ذهبتِ لمثل هذا الغرض . »

فقالت الفتاة : « لن افعل . وهذا واحد من الأسباب التي تجعلني غير قادرة على الزواج منك . »

فقال الكولونيل : « فهمت . اشكركِ » .

ـ « ولكني سوف احبك ، أيا ً ما كان معنى ذلـك . وانت وأنا نعرف ما معناه جيداً ، ما بقي كل منا على قيد الحياة وبعد ذلك . »

فقال الكولونيل : « لست اظن ان في استطاعتك ان تحبي كثيراً بعد ان تصبحي ، أنتِ نفسكِ ، جثة هامدة . »

وشرع يأكل الخرشوف ، متناولاً ورقـة واحدة منه في كل لقمة ، غامساً إياها في صَحْنٍ صلصة الخل .

فقالت الفتاة : « ولست واثقة من ان في استطاعتك انت ايضاً ان تفعل . ولكني سوف أحاول . ألا يرفـــع من معنوياتك عِلمُـكَ بأنك محبوب ؟ »

فقال الكولونيل : « بلى . انا اشعر وكأني منطلق في هضبة جرداء صخرية الى حد يجعلها تمتنع على الحَفْر والحرث ، وصخورها صلدة كلها ، ولكنها خلوٌ من النتوءات والأورام ، وفجـأةً أستبدل بالعري دروعاً سابغة . أجل أستبدل بالعري دروعاً وقد ولىّ الأعداء هاربين . »

ـ « يتعين عليك ان تقول ذلك لصديقنا الكاتب ذي الوجه الشبيه بأخاديد القمر ، بحيث يكون في ميسوره ان يكتبه الليلة . »

ـ « يتعين عليّ ان اقوله لدانتي لو كان دانتي بيننا . » كذلك قال الكولونيل وقد غدا هائجاً ، فجأة ، كالبحر حين تهب عليه عاصفة من عواصف خط الاستواء . « ولسوف اخبره ما الذي يجدر بي ان أفعله لو حُوّلتُ في مثل تلك الظروف الى عربة مدرّعة . »

وفي تلك اللحظة وفد البارون آلفاريتو على حجرة الطعام . كان يبحث عنها ؛ وإذ كان قناصاً فقد لمحها في الحال .

وتقدم نحو المائدة ، وطبع قبلة على يد ريناتا قـائلاً « سيباوو » [1]

---

١ - Ciao وتعني بالايطالية «الى اللقاء» ، وقد استعملت هنا وكأنها تحية لقاء . (المعرب)

ريناتا » . كان أقرب الى الطول حسن البنية في ملابسه المدينية ، وكان أشد الرجال الذين عرفهم الكولونيل خجلاً واستحياء . إنه لم يكن حيياً بسبب من جهالة ، أو بسبب من شعور بالضيق في حضرة الناس . لا ، لقد كان حيياً بالفطرة ، شأن بعض الحيوانات ، من مثل الـ « بونغو » الذي لا تراه في الأدغال البتة ، والذي يتعين عليك أن تقتنصه بواسطة الكلاب .

ـ « يا زعيمي ، » كذلك قال . وابتسم كما يستطيع الرجل الحيي حقاً أن يبتسم .

انها لم تكن ابتسامة الواثق المطمئنة ، ولا تلك الابتسامة السريعة اللاذعة التي يُطلقها المعمّرون والاشرار . لم تكن تمت باية صلة الى الابتسامة الرابطة الجأش التي تصطنعها الفاجرة أو رجل السياسة عن عمد . لقد كانت هي تلك الابتسامة الغريبة النادرة التي ترتفع من الحفرة العميقة القاتمة ـ الأعمق من بئر ، العميقة كمثل منجم عميق ـ الغائرة في جوفيهما.

ـ « لن استطيع البقاء غير لحظة . ولقد أقبلت لأخبرك ان الجو يبدو جد ملائم للقنص . فأسراب البط تُقبل من الشمال بكثرة بالغة . ان بينها كثيراً من البط الضخم الذي تحب . » وابتسم كرة ثانية .

ـ « اجلس ، يا آلفاريتو . ارجوك . »

فقال البارون آلفاريتو : « لا ؛ نستطيع أن نلتقي في المرأب ، الساعة الثانية والنصف اذا شئت . معك سيارة ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « هذا جميل جداً . إن انطلاقنا في تلك الساعة يتيح لنا متسعاً من الوقت لرؤية البط في الليل . »

فقال الكولونيل : « بديع . »

ـ « الى اللقاء ، اذن ، يا ريتانا . الى اللقاء يا زعيمي ، في الساعة الثانية والنصف . »

وقالت الفتاة : « لقد عرف أحدنا الآخر منذ الطفولة . ولكنه كان اكبر مني بثلاث سنوات تقريباً . لقد وُلِد طاعناً في السنّ . »

– « أجل . أدري . انه من اصدقائي المخلصين . »

– « هل تعتقد ان مواطنك قد بحث عن اسمه في دليل السياح ؟ »

فأجابها الكولونيل : « لست ادري . » ثم سأل : « أيها المايسترو الأعظم ، هل بحث مواطني الطائر الصيت عن اسم البارون في دليل السيّاح ؟ »

– « الواقع ، يا زعيمي ، أني لم أره يراجع دليله خلال تناوله العشاء . »

فقال الكولونيل : « أعطِهِ علامة كاملة . والآن اسمع . أنا أعتقد أن الفالبوليسيلا تكون أجود ، وهي جديدة . انها ليست خمراً عظيمة Grand Vin وتعبئتها في زجاجات ثم تعتيقها طوال سنوات لا يعود عليها إلا بالرواسب . هل توافقني على هذا ؟ »

– « اوافقك . »

– « اذن ما الذي يتعين علينا ان نفعله ؟ »

– « أنت تعلم ، يا زعيمي ، ان الخمر في الفنادق الكبيرة يجب ان تكلف مالاً . فلست تستطيع ان تحصل على « بينار » في الـ « ريتز » .[1] ولكني أقترح أن نأتي بعدة ألفيّات من الفالبوليسيلا المتازة . وفي استطاعتك ان تقول إننا جئنا بها من أطيان الكونتيسة ريناتا ، وانها هدية . ولسوف اعبئها لك ، بعد ذلك ، في زجاجات . وبهذه الطريقة ستفوز بخمر أفضل ، وتوفر مالاً كثيراً . ولسوف أشرح المسألة لمدير

---

١ – الـ « بينار » pinard ضرب من الخمر ، والـ « ريتز » Ritz فندق مشهور . (المعرب)

الفندق اذا شئت . إنه رجل طيب جداً . »

فقال الكولونيل : « إشرحها له . إنه ليس رجلاً يشرب البطاقات الملصقة على الزجاجات ايضاً . »

ـ « موافق . »

ـ « وفي غضون ذلك تستطيع أن تشرب من هذه . إنها جيدة جداً كما تعلم . »

ـ « هذا صحيح . » كذلك قال الكولونيل : « ولكنها ليست شامبيرتان [1] . »

ـ « ما الذي كان من دأبنا أن نشربه ؟ »

فأجابه الكولونيل : « أيّ شيء . ولكنني الآن ألتمس الكمال . أو ، على الأصح ، ليس الكمال المطلق . ولكنِ الكمال مقابل دراهمي . »

فقال المايسترو الأعظم : « وأنا ألتمسه أيضاً ، ولكنْ على غير طائل في ما أحسب . »

ـ « بأي شيء ترغبان أن تحتما عشاءكما ؟ »

فقال الكولونيل : « بشيء من الجبن . ماذا تريدين ، يا بُنَيَّتي ؟ »

كانت الفتاة قد اعتصمت بالصمت ، منذ أن رأت آلفاريتو ، وانكمشت بعض الشيء . كان شيء ما ، يدور في عقلها ، ولقد كان عقلاً ممتازاً . ولكنها مؤقتا على الأقل ، لم تكن معها .

وقالت : « جبن . ارجوك . »

ـ « أي نوع من الجبن ؟ »

---

١ ـ Chambertin خمر حمراء فاخرة . (المعرب)

فقال الكولونيل : « أيتِ بالانواع كلها الى هنا ولسوف نلقي نظرة عليهـــا . »

وانصرف المايسترو الأعظم ، فقال الكولونيل : « ما بالك ، يا بُنيّتي ؟ »

ـ « لا شيء . لا شيء البتة . لا شيء دائماً . »

ـ « يحسن بكِ مع ذلك أن تطّرحي هذا ، فليس لدينا متسع من الوقت لمثل هذه المتارف . »

ـ « هذا صحيح . أنا اوافقك . سوف نكرّس نفسينا للجبن . »

ـ « هل يتعين عليّ أن اتناوله مثل قولحة ذُرَة ؟ »

ـ « لا ، » كذلك قالت ، غير فاهمـــة ذلك الاصطلاح العاميّ ، ولكنها فهمت المراد تماماً ، باعتبار أنها هي التي كانت تقوم بمهمـــة التفكير . « ضع يدك اليمنى في جيبك . »

فقال الكولونيل : « حسن . سوف افعل . »

ووضع يده اليمنى في جيبه واستشعر مـــا كان فيها ، اولاً برؤوس اصابعه ، ثم بباطن اصابعه ، ثم براحة يده ـ يده المشقوقة .

وقالت : « أنا آسفة . والآن ، فلنستأنف الجزء الصالح من المسألة ، كرة اخرى . سوف نكرس نفسينا للجبن في مرح وابتهاج . »

فقال الكولونيل : « ممتاز . تُرى أيّ ضروب الجبن عنده ؟ »

فقالت الفتاة : « حدثني عن الحرب الاخيرة . وبعد ذلـــك نمتطي متن غندولنا في الريح الباردة . »

فقال الكولونيل : « إنها لم تكن ماتعة جداً . ان هذه الأشياء هي ، بالنسبة الينا ، ماتعة دائماً ، من غير ريب . ولكن كان ثمة ثلاثة مظاهر فحسب ، أو ربما اربعة مظاهر فحسب ، أمتعَتْني فعلاً . »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « كنا نقاتل عدواً مهزوماً دُمّرت مواصلاته . لقد دمّرنا عدة



فرق على الورق ، ولكنها كانت فرقاً شَبَحية . لا فرقاً حقيقية . كان طيراننا الحربي قد دمّرها قبل أن تتحرك . ولم يكن الموقف صعباً حقاً إلا في نورماندیا ، بسبب من طبيعة الأرض ، وعندما أوقفنا الزحف لكي نمكّن مدرعات جورجي باتون من المرور وأبقينا طريقها مفتوحة من ناحيتيها الاثنتين . »

ـ « كيف توقفون الزحف لتمكين المدرعات من المرور ؟ قل لي ، من فضلك . »

ـ « عليكِ اولاً أن تقاتلي لاحتلال مدينة تسيطر على جميع الطرق الرئيسية . ولنسمّ المدينة سانت لو . ثم عليكِ أن تبسطي سلطانكِ على الطرق باحتلال مدن اخرى وقرى اخرى . ان للعدو خط مقاومـــة رئيسياً ، ولكنه لا يستطيع أن يحمل قواته على شن هجوم معاكس ، لأن «المقاتلات ـ القاذفات» تصطادها على الطرق . هل يُضجرك هذا ؟ إنه يُضجرني الى حد لعين . »

ـ « ولكنه لا يضجرني ، أنا . فأنا لم اسمع ذلك يقال بمثل هـذا التبسيط الواضح من قبل . »

فقال الكولونيل : « شكراً . اواثقة أنتِ من رغبتك في مزيد من الكلام على هذا العلم الكئيب ؟ »

فقالت : « من فضلك . أنا احبك ، كما تعلم ، وإني لأودّ لو شاركتك معرفتك به . »

فقال لها الكولونيل : « ان احداً لا يشارك احداً هذه الصناعة . كل ما أفعله هو اني احدثكِ كيف تعمل . وفي استطاعتي أن اوشح الحديث ببعض الحكايات لكي أجعله ماتعاً أو مقبولاً في الظاهر . »

ـ « وشّح حديثك بشيء من ذلك ، أرجوك . »

فقال الكولونيل : « ان الاستيلاء على باريس لم يكن شيئاً خطيراً .

لقد كان مجرد خبرة عاطفية ، لا عملية عسكرية . اننا قتلنا عدداً من الضاربين على الآلة الكاتبة وأفراد الدريئة التي كان الالمان قد خلفوها وراءهم ، كدأبهم دائماً ، لتغطية انسحابهم . واحسب انهم تصوّروا أنهم لن يحتاجوا بعدُ الى هذا العدد الضخم من موظفي المكاتب ، فتركوهم خلفهم كجنود . »

– « ألم يكن الاستيلاء عليها عملاً عظيماً ؟ »

– « الواقع ان جماعة لوكليرك [1] – وهو غِرّ آخر من الدرجة الثالثة او الرابعة ، كنت قد احتفلتُ بموته بزجاجة كبيرة من خمر «بيريه – جوويه بردت ١٩٤٢ » – اطلقت سيلاً من العبارات النـــارية لكي تضفي بعض الأهمية على ذلك الحادث ، ولأننا كنا قد قدّمنا اليها ما تستطيع اطلاق العبارات النارية به . ولكنه لم يكن عملاً هاماً . »

– « هل شاركت انت فيه ؟ »

فقال الكولونيل : « نعم . أحسب أن في ميسوري ان اقول نعم من غير أن أتجنّى على الحقيقة . »

– « ألم يخلّف ذلك في نفسك أية انطباعات عميقة ؟ فقد كانت المدينة هي باريس على اية حال ، ولم يكن كل امرىء قد استولى عليها . »

– « كان الفرنسيون ، أنفسهم ، قد استولوا عليها قبل اربعة ايام . ولكن ما دعوناه القيادة العليا – انتبهي الى اللفظة الأخيرة – للقوات الحليفة الموجّهة الى اوروبة (SHAEF [1]) ، التي انتظمت جميع سياسي المؤخرة العسكريين الذين كانوا يحملون شارة العار بشكل شيء ملتهب ، في حين كنا نحمل نحن شارة تمثل برسيمةً ذات اربع ورقات ، كرمز

---

١ – يقصد الجنرال الفرنسي لوكليرك Leclerc وقد شارك في انتزاع باريس من يد الالمان (المعرب).

وكجالب للحظ ، اقول ان القيادة العليا هذه كانت لديها خطة رئيسية لتطويق المدينة . وهكذا لم نستطع أن نستولي عليها . »

– « ليس هذا فحسب ، بل لقد كان علينا ان ننتظر امكانية وصول الجنرال او الفيلد مارشال بيرنارد لو مونتغوميري الذي كان عاجزاً حتى من سدّ الثغرة في «فاليز» والذي وجد التقدمَ دَبِقاً بعض الشيء ، ولم يستطع أن ينتهي الى هناك في الميقات المضروب . »

فقالت الفتاة : « لا ريب في انكم قد افتقدتموه . »

فقال الكولونيل : « اوه ، لقد افتقدناه . طوال فترة مديدة . »

– «ولكن ألم يكن ثمة في الاستيلاء على باريس ايما شيء نبيل أو سعيد حقاً ؟

– « من غير ريب » ، كذلك قال لها الكولونيل : « لقد قاتلنا من « با مودون » Bas Meudon ، ثم من باب « سان كلو » porte de Saint Cloud خلال شوارع عرفتُها وأحببتُها ، ولم نُصَبْ بأية خسارة في الأرواح ، مُحْدِثين اقل قَدْر ممكن من الأذى والخراب . وعند « النجمة » Etoile أسرتُ كبير خدم ايلزا ماكسويل . وكانت هذه عملية معقدة جداً . وكان قد اتُهم بوصفه قنّاصاً يابانياً . شيء جديد . ولقد زُعِم أنه قتل عدداً من الباريسيين غير يسير . وهكذا ارسلنا ثلاثة رجال الى السطح الذي التجأ اليه ، ولقد كان غلاماً من أبناء الهند الصينية . »

– « لقد بدأت افهم بعض الشيء . ولكن هذا يخلع الفؤاد . »

– « إنه يخلع الفؤاد دائماً ، الى حد لعين . ولكنْ ليس من المفروض في المرء ان يكون له في هذه الصناعة فؤاد . »

– « ولكن هل تعتقد ان الأمر كان هكذا تماماً في ايام القادة العظام ؟ »

---

١ – Supreme Headquarters of the Allied Expedionary Forces

ـ « أنا على يقين من أنه كان اسوأ . »

ـ « ولكنك اوذيت في يدك على نحو مشرِّف . »

« أجل على نحو مشرّف جداً . فوق هضبة صخرية جرداء . »

فقالت : « دعني ألمسها ، أرجوك . »

فقال الكولونيل : « ولكن ترفقي بها عند وسطها . انها مشقوقة هناك ، وهي لا تزال تطقطق حين تُبسَط . »

فنالت الفتاة : « يتعين عليك أن تؤلف . أنا أعني ما أقول جدّياً . وهكذا يّطلع الناس على هذه الأشياء وأمثالها . »

فخالفها الكولونيل في هذا الرأي وقال : « لا ، انا لا أتمتع بالموهبة التي تؤهلني للتأليف ، وأنا اعرف اكثر مما ينبغي . ان ايما كذّاب ليستطيع ، أو يكاد ، ان يكتب كلاماً ادعى الى الاقناع مما يكتبه رجلٌ من اولئك الذين شهدوا الحرب . »

ـ « ولكن بعض الجنود الآخرين كتبوا وألفوا . »

ـ « نعم . موريس دو ساكس . فريدريك الكبير . مستر تسون سو . »

ـ « ولكني عنيت جنوداً من اهل عصرنا نحن . »

ـ « انت تستعملين لفظة «نحن» في يسر بالغ . وأنا أحبها برغم ذلك . »

ـ « ولكن ألم يؤلف كثير من الجنود المعاصرين ? »

ـ « أجل ، هذا صحيح . ولكن هل قرأتِ في ايما يوم شيئاً من آثارهم ? »

ـ « لا . لقد قرأت الآثار الكلاسيكية في الغالب ، وانا اقرأ الصحف المصورة للاطلاع على الفضائح . وأنا اقرأ ، أيضاً ، رسائلك . »

فقال الكولونيل : « أحرقيها ، انها تافهة لا قيمة ما . »

ـ « ارجوك . لا تكن فظاً . »

ـ « لن اكون . ما الذي استطيع ان احدثكِ عنه من غير أن أضجِرك ؟ »

ـ « حدثني عنك يوم كنت جنرالاً . »

ـ « اوه ، عن هذا . » قال ذلك وأومأ الى المايسترو الأعظم لكي يأتيه بالشامبانيا . كانت من نوع روديرر بروت ٤٢ ، ولقد أحبها .

ـ « حين تكون جنرالاً فإنك تحيا في عربة مقطورة ، ويحيا قائد أركانك في عربة مقطورة ، وتفوز بويسكي بوربون حين يُحرَمُها غيرك من الناس . أما الرموز المشيرة الى الفرق الالمانية (Gs) فتحيـــا في «مركز الضغط» ولسوف اقول لك من هم الـ (Gs) ، ولكن ذلك خليق به أن يُضجرك . سوف احدثك عن الـ G 1' G 2' G 3' G 4' G 5 وفي الناحية المقابلة هناك دائماً «الكراوتس [١] ٦» ، Krauts ـ 6 ولكن هذ خليق به أن يضجرك . ومن ناحية ثانية ، فإن لديك خريطة مكسوّة بمادة لدائنية (بلاستيكية) وفوق هذه الخريطة لديك ثلاث فرق عسكرية تتألف كل منها من ثلاث كتائب . وكلها معلّمة بقلم رصاصي ملوّن .

« إن لديك تخوماً ، بحيث انه اذا تخطت الكتائب تخومها فعندئذ لا يقاتل بعضها بعضاً . وكل كتيبة مؤلفة من خمس سرايا . كلها يجب ان تكون جيدة ، وبعضها ليست جيدة الى هذا الحد . ليس هذا فحسب ، بل ان لديك مدفعيةً وسرِيّة مصفحات ، وكثيراً من قِطع التبديل . انت تحيا بنظام الأحداثيات الرياضي . » وتمهل ريثما أفرغ المـــايسترو الاعظم محتويات الـ «روديرر بروت ٤٢ . »

ـ « ومن قيادة الجيش ، » وترجم في جفاء فقال Cuerpo d'Armata ، « يوعزون اليك بالذي يجب ان تعمله ، ثم تقرّر أنت كيف تعمله . وتملي

---

١ ـ الكراوتس Krauts هم النمساويون (المعرب)

الأوامر ، او تعطيها ـ في الكثرة الكبيرة من الاحوال ـ بالتلفون . أنت « تخرُز » رجالاً تحترمهم لكي تجعلهم يفعلون مـا تعرف أنه مستحيل كل الاستحالة ، ولكنه مأمورٌ به . والى هذا ، فأن عليك ان تفكر وتمعن في التفكير ، وان تذود عنك النعاس حتى ساعة متأخرة ، وان تفيق مع الفجر . »

ـ « ولن تكتب عن هذا ؟ ولو من أجل ارضائي ؟ »

فقال الكولونيل : « لا . ان الغلمان الذين كانوا حسّاسين وحمقى والذين احتفظوا بكل الانطباعات الأولى الثـــابتة عن يومهم الأول في المعركة ، او عن ايامهم الثلاثة الأولى ، وحتى عن ايامهم الاربعة فيها ، يؤلفون كتباً . انها كتب جيدة ، ولكن من الجائز ان تكون مملّة بالنسبة اليك اذا كنتَ ممن شهد تلك المشاهد . ثم هناك آخرون يضعون الكتب لكي يتعجلوا الربح من حرب لم يخوضوا غمارها البتة . اولئك هم الذين انقلبوا على أعقابهم لكي يرووا الأخبار . وهذه الأخبار نادراً ما تكون صحيحة . ولكنهم يهرعون لأذاعتها على الملأ . والكتاب المحترفون الذين تولوا وظائـف حـــالت بينهم وبين القتال كتبوا عن معارك عجزوا عن فهمها ، وكأنهم كانوا في خط النار . ولست ادري تحت اي باب مــن الاثم يقع صنيعهم هذا . »

ـ « ولقد عرفت كذلك رئيساً (كابتن) في البحرية ناعمـاً نعومة النايلون ... رئيساً عاجزاً عن قيادة مركب وحيد السارية وضع مؤلفاً عن الجانب الحميم من « الفيلم الضخم » حقاً . ان كل امرىء سوف يضـع مؤلّفه عاجلاً أو آجــلا . وفي ميسورنا نحن ، حتى نحن ، ان نضع كتاباً جيداً . ولكني لا امارس الكتابة ، يا بنيّتي . »

وأومأ الى المايسترو الأعظم بأن يملأ الكأسين .

وقال : « ايها المايسترو الأعظم ، هل تحب ان تقاتل ؟ »

ـ « لا . »

ـ « ولكننا قاتلنا ؟ »

– « اجل . اكثر مما ينبغي . »

– كيف صحتك ؟ »

– « رائعة لولا القُرَح المعِدية ، ونوبة قلبية طفيفة . »

– « لا ! » كذلك قال الكولونيل ، وقفز فؤاده في صدره فأحسّ به يخنقه . « انت لم تحدثني عن شيء غير القُرَح . »

– « حسناً ، انت تعرف الآن ، » قال المايسترو الاعظم ذلك ، ولم يُتم الجملة وابتسم ابتسامته الفضلى والأصفى التي انبثقت في مثل نصاعة الشمس المشرقة وصراحتها .

« كم مرة ؟ »

فرفع المايسترو الاعظم اصبعين اثنتين كما يفعل المرء حين يعطي خصمه في الرهان ميزةً عليه ، حيث يملك رصيداً ، وكان الرهان كله على غفوة .

فقال الكولونيل : « إني متقدم عليك . ولكن فلنطّرحْ التجهّم والعبوس . اسأل الدوّنا ريتانا ما اذا كانت تريد مزيداً من هذه الخمر الممتازة . »

فقالت الفتاة : « ولكنك لم تخبرني انك أصبت بأكثر من نوبتين قلبيتين . انت مكاف بأخباري بذلك . »

– « أنا لم أصب بشيء منذ اجتمعنا آخر مرة . »

– « هل تعتقد ان النوبات تعفيك من زيارتها اكراماً لي ؟ اذا كان ذلك ، فسوف أجيء وأبقى معك بكل بساطة وأسهر على صحتك . »

فقال الكولونيل : « انه مجرد عضلة . كل ما في الأمر أنها العضلة الرئيسية . وهي تعمل بمثل دِقة رولكس أويستر بيرباتيتشوويل [1] .

---

١ – ماركة ساعات معروفة (المعرب) .

والمشكلة هي انك لا تستطيع ان تبعث بها الى ممثل شركة رولكس عندما يلم بها خلل ما . وحين تكفّ عن الحركة تصبح أنت عاجزاً عن معرفة الوقت ليس غير . لأنك عندئذ تكون قد مِتّ . »

— « لا تحدثني عن ذلك ، ارجوك . »

فقال الكولونيل : « انك انت التي سألتني . »

— « وذلك الرجل المجدور ذو الوجه الكاريكاتوري ، هل عنده شيء كهذا ؟ »

فقال لها الكولونيل : « لا ، من غير ريب . اذا كان كاتباً من الدرجة الثانية فإنه سوف يعيش الى الأبد . »

— « ولكنك لست كاتباً ، فكيف تعرف هذا ؟ »

فقال الكولونيل : « لا . بنعمة الله ، ولكني قرأت كثيراً من الكتب . ان لدينا ، حين نكون عُزّاباً ، متسعاً كبيراً من الوقت للمطالعة . ولكن ربما ليس بقدْر ما لدى رجال الاسطول التجاري . ولكنه متّسعٌ كبير على أية حال . وفي ميسوري ان امّيز كاتباً من كاتب ، وإني لأقول لك ان كتاب الدرجة الثانية يعمرون طويلاً . ومن حقهم ان يفوزوا بمكافأة خاصة بالعمر الطويل . »

— « هل تستطيع ان تروي لي بعض الحكايات ، وأن تكفّ عن الكلام على هذا الذي هو مبعث حزن حقيقيّ لي ؟ »

— « في استطاعتي ان اروي لك مئات منها . وكلها صحيحة . »

— إروِ لي واحدةً ليس غير . وبعد ذلك نأتي على هذه الخمر ونمضي على متن الغندول . »

— « هل تعتقدين أنك سوف تنعمين بدفء كافٍ ؟ »

— « اوه ، أنا واثقة من أني سوف أنعم بذلك . »

فقال الكولونيل : « لست ادري ما الذي يحسن بي ان أرويه لك .

ان كل ما يتصل بالحرب ليوقع الضجر في نفوس اولئك الذين لم يشنّوها . ما عدا الكذّابين . »

– « أود لو تحدثني عن الاستيلاء على باريس . »

– « لماذا ؟ ألِأني قلت لك انكِ بدوتِ مثل ماري آنطوانيت في عربة النقل ذات الدولابين ؟ »

– « لا . لقد أطريتُ بتلك الملاحظة ، وأنا أعلم انني اشبهها بعض الشيء في المظهر الجانبي (بروفيل) . ولكني لم أركب في حياتي أية عربة نقل ذات دولابين ، واني لأحب أن اسمعك تحدثني عن باريس . فأنت حين تحب امرءاً ما ويكون هو بَطَلك ، يلذ لك أن تسمع شيئاً عن المواطن والاشياء . »

فقال الكولونيل : « ارجوك ان تديري رأسك ، ولسوف احدّثك عنها . ايها المايسترو الاعظم ، ألا يزال ثمة بقية في تلك الزجاجة البائسة ؟ »

– « لا . » كذلك أجابه المايسترو الاعظم .

– « اذن ايتِ بزجاجة اخرى . »

– « لديّ واحدة مثلوجة . »

– « حسن . إيتنا بها . والآن ، يا بنيتي ، لقد انفصلنا عن رَتْل الجنرال لوكليرك عند «كلامار» . لقد مضَوا الى مونروج Montrouge و«بورت دورليان» Porte d'Orleans ، ومضينا نحن الى « با مودون Bas Meudon مباشرة ، وبلغنا جسر باب سان كلو . هل هذا الكلام تقنيّ اكثر مما ينبغي وهل يُضجرك سماعه ؟ »

– « لا . »

– « لو كان لديّ خريطة لاستطعت أن اوضح لك ذلك اكثر . »

– « تابع . »

– « لقد بلغنا الجسر ، وأقمنا رأس جسر على الضفة الاخرى من

النهر ، وقذفنا بالالمان ، الذين دافعوا عن الجسر ... قذفنا بهم احياء وأمواتاً الى نهر السين . » وأمسك عن الكلام لحظة ثم أضاف : « كان ذلك دفاعاً رمزياً طبعاً . ولقـــد كان يحسن بهم ان ينسفوا الجسر . وألقينا بجميـع هؤلاء الالمان في نهر السين . وكانوا كلهم ، تقريبـــاً ، موظفين مدنيين ، في ما احسب . »

– « تابع . »

– « وفي صباح اليوم التالي ، أعلمنا ان الالمان يسيطرون على مواقع قوية في أماكن مختلفة ، وأن لهم مدفعية على جبل فاليريان ، وان الدبابات تطوّف في الشوارع . وكان جزء من هذا صحيحاً . وطُلِب الينا ايضاً ان لا ندخل بأسرع مما ينبغي ، باعتبار انّ التدبير يقضي بأن يستولي الجنرال لوكليرك على المدينة . وامتثلتُ هذا الطلب ، ودخلت المدينـــة بأكثر ما استطعت من بطء .

– « وكيف تفعل ذلك ؟ »

– « تكبح جماح هجومك ساعتين ، ثم تحتسي الشامبانيا كلما قدمها اليك وطنيون ، ومؤازرون ، او متحمسون للقضية . »

– « ولكن ألم يكن ثمة شيء رائع أو عظيم ، كذلك الذي نقرأه في الكتب ؟ »

– « طبعاً كان هناك المدينة نفسها . كان الناس بالغي السعادة . وكان الجنرالات القدماء يتمشّون هنا وهناك في بـــدلاتهم العسكرية المزوّدة بكـُرات النفتلين وقاية لها من العث . وكنا نحن ايضاً بالغي السعادة ، لعدم اضطرارنا الى القتال . »

– « وهل تعيّن عليكم ان تقاتلوا على اية حال ؟ »

– « ثلاث مرات ليس غير . وبعد ذلك قاتلنا على نحو غير جدّي. »

– « ولكن هل كان هذا كل ما احتجتم الى القيام به للاستيلاء على

مدينة كهذه ؟ »

— « لقد قاتلنا ، يا بُنَيَّتي ، اثنتي عشرة مرة من رامبوييه Rambouillet لكي ندخل المدينة . ولكن اثنتين من هذه المرات الاثنتي عشرة فحسب كانتا جديرتين بأن تُدْعيا قتالاً . ولقد جرى القتال في اولى هاتين المرتين عند « توسّوس لو نوبل » Toussus Le Noble وجرى في ثانيتها عند «لو بوك» Le Buc . أما ما تبقّى فلم يَعْدُ أن يكون زخرفة طبق من اطباق الطعام . والحق اني لم أُضطرّ الى القتال البتة إلا في هذين الموقعين . »

— « حدثني عن بعض الأشياء الحقيقية عن القتال . »

— « قولي لي إنك تحبينني . »

فقالت الفتاة : « أنا أحبك . باستطاعتك ان تنشر ذلك في صحيفة «غازيتينا» Gazzettina اذا شئت . انا احب جسمك الصلب ، المستوي ، وعينيك الغريبتين اللتين تروّعاني حين تغلب عليها النزعة الشرّيرة . انا احب يدك ، واحب كل جرح من جراحك . »

فقال الكولونيل : « أنا أوثر ان احدثكِ عن شيء حسن جداً . أولاً ، استطيع أن اقول لك اني احبك قف . »

فسألته الفتاة فجأة : « لماذا لا تشتري بعض الآنية الزجاجية النفيسة ؟ إن في امكاننا أن نذهب الى مورانو Murano معاً . »

— « لست أعرف اي شيء عن الآنية الزجاجية . »

— « في استطاعتي ان أعلمّك ، وخليق بذلك ان يكون متعةً من المتع . »

— « ان حياتنا ممنة في البداوة الى حد يجعلنا في غنىً عن الآنية الزجاجية النفيسة . »

— « وحين تتقاعد وتقيم هنا ؟ . »

– « سوف نشتري شيئاً من ذلك عندئذ . »

– « لشد ما أتمنى لو تفعل هذا الآن . »

– « وكذلك انا ، لولا اني اعتزم الخروج لصيد البط غداً . ولولا أن الليلة هي الليلة . »

– « هل استطيع ان اذهب معك لصيد البط ؟ »

– « تستطيعين في حال واحدة : اذا سألكِ الفاريتو ان تفعلي ذلك . »

– « في إمكاني أن أحمله على سؤالي . »

– « انا اشك في هذا . »

– « ليس من اللطف ان تشكّ في ما تقوله بنتك بعد أن انتهت الى سنٍّ تعصمها من الكذب . »

– « حسن جداً ، يا بُنيّتي . أنا اسحب شكي ذاك . »

– « اشكرك . ومن اجل هذا لن اذهب وأكون مصدر ازعـــاج . سوف أبقى في البندقية ، واشهد القداس مع امي وعمتي ، وأزور فقرائي. انا ابنة وحيدة ، وهكذا فإن علي واجبات كثيرة . »

– « كنت دائماً اتساءل ماذا تعملين . »

– « هذا ما أعمله . والى ذلك فإن لديّ وصيفتي فهي تغسل وجهي وتقلّم أظافر يديّ ورجليّ وتصبغها لي . »

– « انت لا تستطيعين ان تفعلي هذا لأن الصيد سوف يجري يوم الأحد . »

– « اذن فسوف افعل ذلك يوم الاثنين . أما يوم الاحد فسأطـــالع جميع المجلات المصورة حتى الخليعة منها . »

– « ربما كانت تحمل صوراً لمسّ بيرغمان .[1] الا تزالين راغبة في أن تكوني مثلها ؟ »

---

١ – يقصد انغريد بيرغمان ، الممثلة السينمائية الشهيرة .

فقالت الفتاة : « لا ، لم اعد راغبة في ذلك . أنا اريد ان اكون مثل نفسي ولكن على نحو افضل ، افضل بكثير ، وانا اطمع في ان تحبني انت . »

– « والى هذا ، » كذلك قالت فجأة وفي غير تقنّع ، « فأنا اريد أن أكون مثلك . هل استطيع ان اكون مثلك ، بضع لحظات ، هذه الليلة ؟»

فقال الكولونيل : « طبعاً . في أية مدينة نحن على أية حال ؟ »

فقالت : « البندقية . المدينة الفضلى ، في ما اعتقد . »

– « اني اوافقك كل الموافقة . وأشكرك لعدم تكليفي أن أروي لك مزيداً من قصص الحرب . »

– « أوه ، سوف يتعين عليك ان ترويها في ما بعد . »

– « **يتعين عليّ** ؟ » كذلك قال الكولونيل وتجلّت القسوة والعزم في عينيه الغريبتين بمثل الوضوح الذي يتجليان به حين يتمايل نحوك خَطْمُ مدفع دبابةٍ ‹مَقَلْنَس›[1] .

– « هل قلتِ **يتعين عليك** ، يا بُنيَّتي ؟ »

– « لقد قلت هذا . ولكني لم اقصد به ذلك المعنى . واذا اخطأت فإني آسفة . لقد اردت ان اقول : هل لك أن تروي لي مزيداً من القصص الحقيقية في ما بعد ؟ وان تشرح لي الاشياء التي لا أفهمها ؟ »

– « في استطاعتك ان تقولي **يتعين عليك** ، يا بُنيّتي . الى الجحيم بهذا التعبير . »

وابتسم ، وشاعت الدماثة في عينيه كما لم تشعْ في يوم من الأيام ، ولم تكن دماثة مغالىً فيها كما يعلم . ولكنه لم يجد مَناصاً الآن من ان يحاول الأخذ بأسباب الدماثة واللطف نحو حبه الاخير ... حبه الحقيقي

---

١ – اي ذو قلنسوة . والكلمة نعت لخطم المدفع .

والوحيد .

ـ « لست اجد في ذلك اي بأس ، فعلاً ، يا ُبنيتي . انا اعرف اصدار الاوامر ، ويوم كنت في مثل سنك كان من دابي ان استمتع بممارسة ذلك استمتاعاً عظيماً . »

ـ « ولكني لا اريد ان آمر ، » كذلك قالت الفتاة . وعلى الرغم من قرارها القاضي بأن لا تبكي البتة ، ترقرقت العبرات في عينيها . «إني أريد أن أخدمك . »

ـ «ادري . و لكنك تريدين أن تأمري أيضاً . وليس في هذ ايما بأس. فجميع الناس الذين هم في مثل حالنا ينزعون هذا المنزع . »

ـ « اشكرك على هذه الـ « في **مثل حالنا** . »

فقال الكولونيل : « لم يكن قولها عسيراً عليّ» . ثم اضاف : « يا ُبنيّتي . »

في تلك اللحظة تقدم بواب الفندق نحو المائدة وقال : « عفواً ، يا سيدي . في الخارج رجل ، اظنه خادماً من خدمك يا سيدتي ، يحمل رزمة كبيرة جداً يقول انها للكولونيل . فهل أبقيها في المستودع أم أبعث لك بها الى حجرتك ؟ »

فقال الكولونيل : «الى حجرتي . »

فقالت الفتاة : « ارجوك . ألا نستطيع أن نلقي عليها ، ههنا ، نظرة ؟ نحن لا نبالي بأحد هنا ، أليس كذلك ؟ »

ـ « جرّدها من غطائها وإيتنا بها الى هنا .»

ـ « حسن جداً . »

ـ « في ما بعد سوف نعهد الى بعضهم بنقلها في كثير من العناية إلى حجرتي وبلفّها في إحكام ، لأحلها معي حين أسافر ظهيرة غدٍ . »

ـ « حسن جداً يا زعيمي . »

فسألته الفتاة : هل انت متشوق الى رؤيتها ؟ »

فقال الكولونيل : « جداً ايها المايسترو الأعظم ، هاتِ مزيداً من شراب روديرر ذاك . وارجوك ان تضع كرسياً بطريقة تمكننا من القاء نظرة على لوحة فنية . نحن من المتعصبين للفنون التصويرية . »

فقال المايسترو الاعظم : « ليس عندي مزيد من زجاجات رودير المثلوجة . ولكن اذا اردت شيئاً من شراب بيربيه - جوويه ... »

- « ايتني بشيء منه » كذلك قال الكولونيل ثم اضاف : « ارجوك . »

وقال لها الكولونيل : « أنا لا اتكلم مثل جيورجي باتون . انا لست مضطراً الى ذلك . وفوق هذا فهو لم يعد على قيد الحياة . »

- « مسكين ! »

- « أجل ، كان مسكيناً طوال حياته . برغم انه كان يتمتع بثروة مالية كبيرة وبعدد عظيم من المدرعات . »

- « هل لديكم ايما شيء مضادّ للمدرعات ؟ »

- « نعم . معظم الجنود الذين في داخلها . إنها تحيل الرجال الى قوم يستعملون قوتهم لإيذاء الضعفاء افتراء ، وتلك هي اول خطوة نحو الجبن ... الجبن الحقيقي أعني . ولعل « الخوف الجنوني من الأماكن المقفلة » (كلوستروفوبيا) يعقّد ذلك بعض الشيء . »

ثم انه نظر اليها وابتسم وعبّر عن أسفه لذهابه بها الى ما وراء طاقتها على الفهم كما قد تنقل سابحاً جديداً من شاطىء ضحلٍ الى مياه عميقة اكثر مما ينبغي . وحاول أن يُطمْئنها .

- « اغفري لي ، يا بُنيَّتي . ان كثيراً مما اقوله مُجحف ظالم . ولكنه اصدق من الاشياء التي سوف تقرئينها في مذكرات الجنرالات . فبعد أن يكسب الجندي نجمة ، او اكثر ، يصبح من العسير عليه أن

يبلغ الصدق بقدْر ما كان بلوغ « الكـــأس المقدسة »[1] عسيراً في عهد أسلافنا . »

ـ « ولكنك كنت جنرالاً . »

فقال الكولونيل : « ليس لمدة طويلة اكثر مما ينبغي . » ثم اضاف الجنرال : « ان كل رئيس (كابتن) من الرؤساء يعرف الحقيقة ادق المعرفة ، وفي استطاعة هؤلاء الرؤساء ان ينقلوها اليك ، في الأعم الأغلب . أما اذا لم يفعلوا فعندئذ يكون في استطاعتك ان تعيد تصنيفهم . »

ـ « وهل ستعيد تصنيفي اذا كذبتُ ؟ »

ـ « ذلك رهنٌ بموضوع الكذبة التي تطلقينها . »

ـ « انا لن اكذب في ايما امر من الامور . إني لا اريد ان يعـــاد تصنيفي . ذلك شيء يبدو لي رهيباً . »

فقال الكولونيل : « إنه لكذلك . وانك لتردّهم بعدُ لكي يُجرى لهم ذلك مزوّدين بأحدى عشرة نسخة مختلفة تبـــيّن السبب الذي من اجله يتحتم اتخاذ ذلك الاجراء في حقهم ، وتذيّل انت كلا من هذه النسخ بتوقيعك . »

ـ « وهل اعدت تصنيف كثير منهم ؟ » .

ـ « أجل ، كثير . »

ودخل بواب الفندق ، باللوحة الزيتية ، الى الحجرة ، وهو يحملها في اطارها الضخم ، متهادياً كما يتهادى المركب حـين يكون مثقـــلاً بالأشرعة اكثر مما ينبغي .

ـ « إيتِ بكرسيّين ، » كذلك قال الكولونيل للنـــادل الآخر ،

---

[1] ـ the Holy Grail ، هي الكأس التي ذكروا ان السيد المسيح شرب منها في العشاء الأخير . (المعرب)

« وضعها هناك . إحرص على أن لا يمس قماش اللوحة الكرسين . وأمسك بها بحيث لا تزل . »

ثم التفت الى الفتاة وقال : « يتعين علينا أن نغير هذا الاطار . »

فقالت : « ادري . انا لم اختره بنفسي . خذها معك غير مؤطرة ولسوف نختار لها اطاراً حسناً في الاسبوع القادم . والآن ، انظر إليها ، لا الى الاطار . انظر الى ما تقوله عني أو ما لا تقوله . »

كانت لوحة زيتية جميلة . لا باردة ولا متكلفة للعظمة ، لا تقليدية ولا عصرية . كانت مخرّجة بالطريقة التي تود أن ترسم بها حبيبتك لو ان تينتوريتو [1] على مقربة دانية منك ، فإن لم يكن ، كلفت فيلاسكيز [2] بتلك المهمة . إنها لم تخرج على طريقة اي منهما . لقد كانت مجرد لوحة زيتية رسمت ، كما ترسم اللوحات أحياناً ، في عصرنا هذا .

فقال الكولونيل : « انها رائعة . إنها ظريفة حقاً . »

كان بواب الفندق والنادل الثاني يمسكان باللوحة وينظران اليها من حول اطرافها . وكان المايسترو الاعظم يعبر عن اعجابه الكامل بها . وكان الاميركي ، الجالس على مبعدة مائدتين اثنتين ، ينظر اليها بعينين صحافيتين ، متسائلاً بريشة من رسمت . وكان ظهر قماشها الى الطاعمين الآخرين .

ـ « إنها رائعة » ، كذلك قال الكولونيل . « ولكنك لا تستطيعين ان تمنحيني اياها . »

فقالت الفتاة : « لقد منحتك اياها وانتهيت . انا واثقة من ان شعري لم يكن منساباً ، بمثل هذا الطول كله ، على كتفي . »

---

١ – Tintoretto رسام من اهل البندقية ١٥١٨ – ١٥٩٤ (المعرب)
٢ – Velasquez رسام اسباني ١٥٩٩ – ١٦٦٠ (المعرب)

ـ « احسب انه كان كذلك في أغلب الظن . »

ـ « في ميسوري أن أطلِقهُ حتى يبلغ هـذا الطولَ ، اذا رغبتَ في ذلك . »

فقال الكولونيل : « حاولي ، يا ذات الجمال الباهر . انا احبك اعظم الحب . انتِ وشخصك المرسوم على القماش . »

ـ « قل للنُدُل اذا شئت . أنا واثقة من انها لن تكون صدمـة شديدة لهم . »

فقال الكولونيل لبواب الفندق : « احمل اللوحة الى حجـرتي في الطابق العلوي . اشكرك على حملك اياها الى هنا شكراً جزيلاً . واذا كان الثمن مناسباً اشتريتها . »

فقالت الفتاة له : « الثمن مناسب . ألا ترى ان من واجبنا ان نكلف احـداً بنقلها وبنقل الكرسيين الى حيث نستطيع أن نعرضها امام عيني مواطنك عرضاً خاصاً ؟ ان في استطاعة المايسترو الاعظم ان يعطيه عنوان الرسام ، وان باستطاعة مواطنك ان يقوم بزيارة للاستديو الفاتن . »

فقال المايسترو الاعظم : « انها لوحة جد طريفة . ولكنها يجب ان تُنقل الى الحجرة . يتعين على المرء ان لا يدع روديرر أو بيربيه ـ جوويه يقوم بمهمة الكلام . »

ـ « احملها الى الحجرة ، ارجوك . »

ـ « لقد قلت **ارجوك** من غير ما وَقـْف قبلها . »

فقال الكولونيل : «شكراً . لقد تأثرتُ اعمق التأثر باللوحة ، ولست اتحمل مسؤولية ما أقول تحملاً كاملاً . »

ـ « فليكن كلانا غير مسؤول عما يقول . »

فقال الكولونيل : « اتفقنا . المايسترو الاعظم رجل يتحمل مسؤولية

كلامه الى ابعد الحدود . ولقد كان هكذا دائماً . »

فقالت : « لا . انا اعتقد انه لم يقل ذلك بدافع من روح المسؤولية بل بدافع من الخبث . اننا كلنا ، في هذه المدينة نتميز بضرب ما من الخبث ، كما تعلم . وأحسب انه ربما لم يُرِد لذلك الرجل أن ينعم حتى بنظرة صحافية الى السعادة . »

– « ايا ما كان معنى ذلك . »

– « لقد تعلمتُ هذه العبارة منك ، وها انت ذا عاودت تعلُّمها مني . »

فقال الكولونيل : تلك هي سُنّة الاشياء . ما تكسبه في بوسطن تخسره في تشيكاغو . »

– « لست افهم ذلك البتة . »

فقال الكولونيل : « انه اصعب من أن يُشرح . » ثم اضاف : « لا ، إنه ليس كذلك طبعاً . ان توضيح الأشياء هو صناعتي الرئيسية . إلى الجحيم بكل ما هو اصعب من أن يُشرح . إنه أشبه بمباراة كرة قدم Calcie [1] يخوضهـا فريق محترف . مـا تكسبه في ميلانو تخسره في تورينو . »

– « انا لا ابالي بكرة القدم . »

فقال الكولونيل : « وكذلك أنا . ولا أبالي بخاصة بمباريات الجيش والاسطول ، وبأحاديث كبار الضباط عندما يتكلمون بـلُغَةِ كرة القدم الاميركية لكي يستطيعوا ، هم أنفسهم ، أن يفهموا ما يتحدثون عنه . »

– « أحسب أننا نستمتع بلحظات سعيدة ، هذه الليلة . حتى في ظل هذه الظروف والملابسات ، أياً ما كانت . »

– « أيحسن بنا أن ننقل معنا هذه الزجاجة الجديدة الى الغندول ؟ »

---

١ لفظة ايطالية تعني كرة القدم أو مباراة في كرة القدم . (المعرب)

فقالت الفتاة : « اجل . ولكن مع كأسين عميقين . سوف أخبر المايسترو الاعظم بذلك . فلنأخذ معطفينا ولننصرف . »

ـ « حسن . سوف آخذ شيئاً من هذا الدواء ، واوقّع للمايسترو الاعظم ، وعندئذ نمضي لسبيلنا . »

ـ « لشد ما أتمنى لو كنت أنا من يأخذ الدواء بدلاً منك . »

فقال الكولونيل : « انا سعيد الى حد جهنمي لأنك لا تأخذينه بدلاً مني . هل نختار غندولتنا أم نطلب اليهم ان يستقدموا لنا غندولاً الى المهبط المفضي الى البحر ؟ »

ـ « فلنقامر قليلاً ، ولنطلب اليهم أن يأتونا بواحد الى المهبط . هل عندك ما تخسره ؟ »

ـ « احسب انه ليس عندي شيء . اغلب الظن انه ليس عندي شيء . »

١٣

وخرجا من باب الفندق الجانبي الى «المهبط» Imbarcadero ، فصفعتها الريح . والتمعت اضواء الفندق على سواد الغندول ، وجعلت المياه خضراء . إنه يبدو ظريفاً مثل فرس أصيلة أو مثل مركب طويل ضيق من مراكب السباق ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . لماذا لم أرَ من قبل قط ايّ غندول ؟ أية يد أو عين صاغت ذلك التناغم المقسّم ؟

وسألته الفتاة : « الى اين سوف نمضي ؟ »

كان شعرها ــ في الضياء المنبعث من باب الفندق ونافذته ، خلال وقوفها على حوض السفن في محاذاة الغندول ــ يتطاير الى الوراء مع هبوب الريح ، حتى لقد بدت أشبه ما تكون بتمثال زخرفيّ في سفينة . وما الى ذلك ايضاً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .

وقال الكولونيل : « فلنجتزيء بالتنزه به خلال الحديقة العامة ، او خلال « الغابة » وقد قُلِبتا رأساً على عقب . دعيه ينطلق بنا الى آرمينونفيل . »

ــ « هل سنذهب الى باريس ؟ »

فقال الكولونيل : « من غير ريب . قولي له ان يمضي بك ، طوال ساعة ، حيث الانطلاق اسهل . أنا لا اريد ان اكلفه الجري بنا في وجه هذه الريح . »

فقالت الفتاة : « المدّ مرتفع جداً مع هذه الريح . ولقـد عجز الغندول من قبل عن بلوغ بعض مَواطننا بالمرور تحت الجسور . أتأذن لي في أن أدله الى اين يحسن به أن يتجه ؟ »

ـ « من غير ريب ، يا بُنيّتي . »

ـ « ضع دلو الجليد هذا فوق ظهر الغندول » ، كذلك قـال للنادل الثاني ، الذي كان قد غادر الفندق برفقتها .

ـ « لقد كلفني المايسترو الاعظم ان اقول لك ، حين تركب البحر ، ان هذه الزجاجة هي هدية منه . »

ـ « احمل اليـه شكري العميق وقل له انه لا يستطيع ان يفعل ذلك . »

وقالت الفتاة : « من الأفضل للغناديلي أن يواجه الريح بعض الشيء ، اولاً ، وبعد ذلك أعرف في أي اتجاه يتعين عليه أن يمضي . »

وقال النادل الثاني : « لقد ارسل المايسترو الاعظم هذه . »

كانت بطانية عتيقة مطوية . وكانت ريناتا تتحدث الى الغناديلي ، وقد عبث الريح بشعرها . وكان الغناديلي يرتدي كنزة زرقاء سميكة من كنزات رجال الاسطول ، وكان حاسر الرأس أيضاً .

فقال الكولونيل : « أشكره باسمي . »

ووضع في يدَ النادل الثاني ورقة نقدية . ولكن النادل الثاني أعادها اليه قائلا : « لقد سبق لك ان ملأت الشيك . وعلى أية حال ، فليس ايّ منا ، أنت أو أنا أو المايسترو الاعظم ، بجائع . »

ـ « وزوجتك واولادك ؟ »

ـ « ليس لديّ زوجة وأولاد . ان طائراتكم قد سحقت بيتنـا في تريفيزو . »

ـ « أنا آسف لذلك . »

فقال النادل الثاني : « لا داعي للاسف فقد كنت جندياً في سلاح المشاة كما كنتُ انا . »

- « اسمح لي ان اعبر عن أسفي . »

فقال النادل الثاني : « من غير ريب . ولكن هل يقدم ذلك أو يؤخر ؟ إبتهج يا زعيمي ، وابتهجي يا سيدتي . »

وامتطيا متن الغندول ، وكان ثمة ذلك السحر المأثور نفسه ، سحرُ المركب الخفيف ، وتنحية الماء المفاجئة التي أحدثها ثقلك ، ثم توزيعك ثقل المركب بحيث يتوازن فوق سطح الماء في تلك الخلوة القاتمة ، واعادة ذلك التوزيع كرة اخرى عندما شرع الغناديلي يجذّف بمجذاف واحد ، مميلاً المجذاف على جانبه بعض الشيء لكي يكون اقدر على التحكم فيه .

فقالت الفتاة : « والآن ، نحن في بيتنا ، وأنا احبك . ارجوك ان تقبلني ، وأن تفرغ حبك كله في قبلتك هذه . »

وضمها الكولونيل الى صدره في إحكام ، وقد ارتدّ رأسها الى وراء وقبّلها حتى لم يبق من القبلة غير القنوط .

- « أنا أحبك . »

فقاطعته : « أياً ما كان معنى ذلك . »

- « أنا أحبك ، وأنا أعلم كل ما قد يعنيه ذلك . اللوحة الزيتية ظريفة ، ولكن ليس ثمة لفظة تستطيع أن تصفك أنت . »

- « طائشة » ، كذلك قالت ، « أو مهملة ، أو شعثاء . »

- « لا . »

- « ان اللفظة الاخيرة كانت من أوائل الالفاظ التي تعلمتها من مربيتي . إنها تعني انك لا تسرح شعرك تسريحاً كافياً . أما لفظة « مهملة » فتطلق حين لا تفرّش شعرك مئة مرة في الليل . »

- « سوف أمِرّ يدي خلاله وأجعله اشدّ تشعثاً . »

- « يدك الجريح ؟ »

- « نعم . »

– « نحن جالسان في الجانبين غير الملائمين لهذا الغرض . فلنتبادل موضعينا . »

– « حسن . هذا طلب معقول مُفْرَغٌ في لغة بسيطة يسهل فهمها . »

وكان تبادلهما موضعيهما متعة من المتع ، اذ كان عليهما ان لا يفسدا توازن الغندول ، وان يوزّعا ثقله كرة أخرى توزيعاً عادلاً في احتراس وعناية .

وقالت : « والآن أمسِكْ بي في قوّة بيدك الأخرى . »

– « هل تعرفين تماماً ماذا تريدين ؟ »

– « أنا أعرف من غير ريب . أهو عمل لا يليق بعذراء ؟ لقد تعلمت هذا التعبير ، أيضاً ، من مربيتي . »

فقال : « لا إنه رائع . اسحبي البطانية جيداً واستشعري هذه الريح . »

– « إنها مقبلة من الجبال العالية . »

– « اجل ، فاذا تجاوزت الجبال العالية فعندئذ تكون مقبلة من مكان آخر . »

وسمع الكولونيل اصطفاق الامواج ، واستشعر الريح وهي تهب عنيفة ، وألفة البطانية الخشنة ، ثم استشعر الفتاة مقرورةً – حارةً وحبيبةً الى النفس وذات نهدين شامخين انزلقت يده اليسرى فوقهما انزلاقاً رفيقاً . وبعد ذلك أمرّ يده المشوهة خلال شعرها مرةً ، ومرةً ، ومرةً ، ثم قبّلها ، وكانت قبلتُهُ اسوأ من القنوط .

– « ارجوك ، » كذلك قالت من تحت البطانية ، « دعني اقبلك الآن » .

فقال : « لا . اريد ان اقبلك كرة اخرى . »

كانت الريح قارسة ، وكانت تلهب وجهيها بسياطهـــا ؛ أما تحت البطانية فلم يكن ثمة ريح أو أي شيء لم يكن غير يده الخربـــة الباحثة عن الجزيرة في النهر العظـــيم ذي الضفتين العاليتين الشديدتي الانحدار .

وقالت : « هو ذاك . »

وقبّلها عندئذ ، وراح يبحث عن الجزيرة ، مهتدياً اليها ، مضيعاً اياها ، ثم مهتدياً اليها نهائياً . نهائياً أو غير نهائيّ ، كذلك قال في ذات نفسه ، نهائياً والى الأبد .

وقال : « ياحبيبة نفسي . يا من اوثرها بالحب . ارجوك . »

— « لا . حسبك أن تضمني الى صدرك ضماً محكماً ، وان تتشبث بالأرض العالية أيضاً . »

ولم يقل الكولونيل شيئاً ، لأنه كان يشهد ، او يتظاهر بأنه يشهد ، السرّ القدسيّ الوحيد الذي كان يؤمن به بالاضافة الى بسالة الانسان العَرَضية .

وقالت الفتاة : « لا تتحرك ، ارجوك . ثم أسرِفْ في الحركة . »

وواصَلَ الكولونيل ، مضطجعاً تحت البطانية في غمرة الريح ، عالماً أن ما يفعله الرجل للمرأة هو كل ما يبقى له ، باستثناء ما يفعله لوطنه الأبِ او وطنه الأمّ ، أياً ما كانت الصيغة التي تؤثِرُها .

وقالت الفتاة : « ارجوك ، يا عزيزي . لست أفكر أني قادرة على احتمال ذلك . »

— « لا تفكري في شيء . لا تفكري في شيء البتة . »

— « لست افعل . »

— « لا تفكري . »

— « اوه ، ارجوك ، فلنكفّ عن الكلام . »

– « هل هذا حسن ؟ »

– « انت تعلم . »

– « انت واثقة من ذلك »

– « اوه ، ارجوك ان لا تتكلم . ارجوك . »

أجل ، كذلك قال في ذات نفسه . أرجوك وارجوك كرة اخرى .

ولم تقل شيئاً ، لا ولم يقل هو شيئاً . وحين انطلق الطائر الكبير من نافذة الغندول الموصدة وغاب عن الأنظار لم يقل أيٌّ منهما شيئاً . لقد أمسك رأسها بذراعه السليمة ، في رفق ، وأمسكت ذراعُهُ الاخرى – الآن – بالأرض العالية .

وقالت : « ارجوك ان تضعها حيث ينبغي ان توضع . يدك اعني . »

– « اضروري هذا ؟ »

– « لا . حَسْبُك ان تضمني اليك في قوة ، وحاوِل ان تحبني حباً صادقاً . »

فقال : « انا احبك حباً صادقاً . » وفي تلك اللحظة انعطف الغندول الى اليسار ، انعطافاً حاداً جداً ، وكانت الريح على خده الأيمن ، وقال وقد لمحت عيناه العتيقتان الخطوط الكبرى للقصر ، والتفتا نحوه ولاحظاه: « انت الآن في الجانب المحجوب عن الريح ، يا بنيَّتي . »

– « ولكن هذا اسرع مما ينبغي الآن . ألا تعلم كيف يكون احساس المرأة ؟ »

– « لا . لست أعلم من ذلك الا ما تخبرينني به انتِ . »

– « اشكرك على **انتِ** هذه . ولكن ألا تعلم فعلاً ؟ »

– « لا . انا لم اسأل عن ذلك قط . في ما احسب »

فقالت : « إحسبِ الآن . وارجوك ان تنتظر ريثما نمرّ تحت الجسر الثاني . »

– « خذي كأساً من هذا . » كذلك قال الكولونيل باسطاً يده على نحو مصيب ملتمساً دلو الشامبانيا الحافل بالثلج ، نازعاً غطاء الزجاجة التي كان المايسترو الاعظم قد نزع سدادتهـا ثم وضع مكانها فلينة خمر عادية .

– « هذه مفيدة لك ، يا ُبنيّتي . إنها تساعد على التخلص من جميع الأسواء التي تستبدّ بنا جميعاً ، وتضع حداً لكل كآبة وتردد . »

– « لست أشكو شيئاً من هذه كلها ، » كذلك أجابت بلغة فصيحة كما كانت مربيتها قد علّمتها . « انا مجرد امرأة ، او فتاة » (سمّني ما شئت) تقوم بكل ما يتعين عليها ان لا تقوم به . فلنعاودْ عمل ذلك ، أرجوك ، ما دمتُ الآن في الجانب المحجوب عن الريح . »

– « أين الجزيرة الآن وفي أيّ نهر ؟ »

– « انك انت الذي تستكشف . ولست أنا غير البلاد المجهولة . »

– « انها ليست مجهولة اكثر مما ينبغي . »

فقالت الفتاة : «ارجوك ان لا تكون فظـاً . وأرجوك أن تشن هجومك في رفق ، وبمثل الطريقة التي اصطنعتها من قبل . »

فقال الكولونيل : « هو ليس هجوماً . انه شيء آخر . »

– « أياً ما كان ... أياً ما كان ، ما دمت لا ازال في الجانب المحجوب عن الريح . »

– « اجل » كذلك قال الكولونيل . « اجل ، اذا اردتِ ، أو اذا كنت ستوافقين تكرُّماً . »

– « نعم ، أرجوك . »

إنها تتكلم مثل هرةٍ بالغة اللطف ، برغم أن الهررة البـائسة لا تقوى على الكلام ، كذلك قال الكولونيل . ولكنه سرعان ما اقلع

عن التفكير ، وظلّ مقلعاً فترة من الزمن طويلة .

كان الغندول الآن في احدى القنوات الثانوية . وحين انعطفَ من القناة العظمى كانت الريح قد أمالته بحيث اضطرّ الغناديليّ الى تحويل ثقله الى الناحية الثانية وكأنه صابورة [1] ، وحوّل الكولونيل والفتاة ثقلهما ايضاً ، تحت البطانية ، وقد نفذت الريح الى ما تحت حافة البطانية في ضراوة .

وكانا قد اعتصما بالصمت برهة طويلة ، وكان الكولونيل قد لاحظ ان الغندول لم يكن يفصله عن الارتطام بأدنى الجسر الاخير غير بضع بوصات .

– « كيف انت ، يا بُنيّتي ؟ »

– « في أحسن حال . »

– « هل تحبينني ؟ »

– « ارجوك ان لا توجه اليّ اسئلة سخيفة »

– « المدّ مرتفع جداً ونحن لم نجتَزْ ذلك الجسر الأخير إلا منذ لحظات . »

– « احسب اني اعلم الى اين نحن ماضيان . لقد وُلدتُ هنا . »

فقال الكولونيل : « لقد ارتكبتُ انا بعض الاخطاء في نفس المدينة التي ولدتُ فيها . إن مجرد كون المرء « قد وُلد هناك » ليس هو كل شيء . »

فقالت الفتاة : « إنه شيء هام جداً . وانت تعرف ذلك . ارجوك ان تضمّني اليك في شدة بالغة حتى ليصبح في إمكان كل منا أن يكون جزءاً من الآخر ، برهةً قصيرة . »

فقال الكولونيل : « في ميسورنا أن نجرب »

---

١ – bollast الصابورة ، في منطاد او سفينة ، ثقل خاص يوضع في احدهما حفظاً لتوازنه . (المعرب) .

« أليس في استطاعتي ان اكون انت ؟ »

- « هذا معقد الى حد رهيب . في امكاننا ان نجرب طبعاً . »

فقالت : « انا انت الآن . ولقد استوليت منذ لحظات على مدينة باريس . »

فقال : « وحق المسيح ، يا بُنيتي ، إن بين يديك الآن لمجموعة رهيبة من المشكلات . والشيء الذي سوف يلي هو انهم سيستعرضون الفرقة الثامنة والعشرين في شوارعها . »

- « لست أبالي . »

- « أما أنا فأبالي . »

- « ألم يكونوا صالحين ؟ »

- « بلى كانوا صالحين ، من غير ريب . وكان لهم قادة ممتازون ايضاً . ولكنهم كانوا « حرساً وطنياً » وحظاً سيئاً . ما ندعوه فرقة T. S. : أطلي مقعدك الكنسي من القسيس . »

- « لست افهم أياً من هذه الاشياء . »

فقال الكولونيل : « إنها غير جديرة بأن تُشرح . »

- « هل لك أن تخبرني بعض الاشياء الحقيقية عن باريس ؟ انا احب ذلك كثيراً ، وحين أفكر انك قد استوليت عليها آنذاك يبدو لي وكأنني امتطي متن هذا الفندول مع المارشال ناي [1] »

- « تلك مهمة غير صالحة » ، كذلك قال الكولونيل . « وعلى أية حال ، ليس بعد ان قام بجميع عمليات مؤخرة الجيش تلك في طريق عودته من المدينة الروسية الكبيرة . لقد كان من دأبه ان يقاتل عشر مرات ،

---

١ – Ney (١٧٦٩ – ١٨١٥) ، ماريشال فرنسة في عهد نابوليون بونابرت . (المعرب)

واثنتي عشرة مرة ، وخمس عشرة مرة ، في اليوم الواحد . ربما اكثر . وفي ما بعد لم يعد في ميسوره أن يتبيّن الناس ويميّز ما بينهم . ارجوكِ ان لا تركبي متن أيّ غندول من الغناديل برفقته . »

ـ « لقد كان دائماً ، واحداً من أبطالي العظام . »

ـ « أجل . ومن ابطالي العظام انا أيضاً . حتى كانت معركة «كاتر برا »[1] . لعلها لم تكن « كاتر برا » . فالصدأ اخذ يلمّ بذاكراتي . اخلعي عليها لقب واترلو الشامل . »

ـ « وهل تكشّف هناك عن حماقة ؟ »

فقال لها الكولونيل : « الى حد رهيب . حاولي ان تنسَيْ هذا . لقد قام بعدد من العمليات « المؤخرية » اكثر مما ينبغي في طريق عودته من موسكو . »

ـ « ولكنهم دَعَوْه أشجع الشجعان ؟ »

ـ « إنكِ لا تستطيعين ان تعيشي على هذا . ان عليكِ ان تكوني هكذا ، دائماً ، وان تكوني أذكى الأذكياء أيضاً . وبعد ذلك تحتاجين الى أمداد ومُعدّات كثيرة . »

ـ « حدثني عن باريس ، ارجوك . إن علينا ان لا نسترسل في مزيد من الوصال . أنا اعلم ذلك . »

ـ « أنا لا أعلمه . من الذي يقول هذا ؟ »

ـ « انا . لأني احبك . »

ـ « حسن جداً . لقد قلتِ هذا وانت تحبينني . فلنعمل بوحي من

---

١ ـ Quatre Bras قرية في وسط بلجيكا على مقربة من بروكسل ، حيث جرت معركة مهدة لمعركة واترلو الشهيرة عام ١٨١٥ . (المعرب)

ذلك . وليكن ما يكون . »

ـ « هل تعتقد ان في امكاننا ان نعيد الكرّة إن لم يورثك ذلك أذىً ما ؟ »

فقال الكولونيل : « يورثني أذىً ما ؟ ومتى أُورِثتُ ، بحق الجحيم ، أيما أذى ؟ »

١٤

ـ « ارجوك ان لا تكون خبيثاً » ، قالت ذلك وسحبت البطانية عليهما معاً . ارجوك ان تشرب كأساً من هذه الخمر معي . انت تعلم أنك قد اوذيت . »

فقال الكولونيل : « تماماً . فلننس ذلك . »

فقالت : « حسن جداً . لقد تكلمت هذه الكلمة ، او هاتين الكلمتين ، منك . لقد نسينا ذلك . »

ـ « لماذا تحبين اليد ؟ » كذلك سألها الكولونيل ، واضعاً إياها حيث يجب ان يضعها .

ـ « ارجوك ان لا تتظاهر بالبلاهة ، ولنقلع عن التفكير في أي شيء ، او اي شيء ، او اي شيء ، ارجوك . »

فقال الكولونيل : « انا أبله . ولكني لن افكر بأيّ شيء ، أو بأي شيء ، حتى ولا بأخيه ، غداً . »

ـ « ارجوك أن تكون طيّباً ودمثاً . »

ـ « سوف اكون . وسأفضي اليك ، الآن ، بسر عسكري . السرّ الرئيسي » يساوي «السر الاعظم» عند الانكليز . انا احبك . »

فقالت : «هذا جميل . ولقد افرغتَه في قالب بارع . »

ـ « اني لظريف » ، كذلك قال الكولونيل ، وراقب الجسر الذي

كان يدنو منها ، ورأى ان في امكان الغندول ان يمر من تحته من غير أن يرتطم به . « هذا اول ما يَبْدَهُ الناسَ من أمري . »

فقالت الفتاة : « اني لاستعمل الألفاظ المغلوطة دائماً ارجوك ان تحبني ليس غير . ولكم أتمنى لو كنت أنا القادرة على حبك . »

ـ « انت تحبينني . »

فقالت : «اجل ، انا احبك . من كل قلبي »

كانا ينطلقان الآن في اتجاه الريح ، وكان كل منهما مُتعَباً . »

ـ « هل تفكرين ..؟ »

فأجابت الفتاة : « انا لا افكر . »

ـ « حسناً ، حاولي أن تفكري . »

ـ « سوف افعل . »

ـ « اشربي كأساً من هذه . »

ـ « لمَ لا ؟ إنها جيدة جداً »

ولقد كانت كذلك فعلاً . كان لا يزال ثمة ثلج في الدلو ، وكانت الخمر باردةً وصافية .

ـ « هل استطيع البقاء في الغريتي ؟ »

ـ « لا . »

ـ « لم لا ؟ »

ـ « لن يكون ذلك مناسباً . لا لهم هم ؛ ولا لكِ أنت . أما أنا فلست أبالي . »

« اذن فأحسب أن عليّ أن امضي الى البيت . »

فقال الكولونيل : « اجل ، هذا هو الاقتراح المنطقي . »

ـ « تلك طريقة رهيبة لقول شيء محزن . اليس في استطاعتنا مجرد التظاهر بشيء ما ، ايضاً ؟ »

ـ « لا . سوف آخذكِ الى المنزل حيث تنامين نوماً طويلاً عميقاً ، وغداً سنلتقي حيثما تريدين وفي الساعة التي تريدين . »

ـ « هل أستطيع أن أتلفن للغريتي ؟ »

ـ « طبعاً . سوف اكون مستيقظاً دائماً . هل تعتزمين ان تتلفني حين تفيقين ؟ »

ـ « اجل . ولكن لماذا تفيق دائمـــاً في ساعة مبكرة جـداً من الصباح ؟ »

ـ « إنها عادة من عادات صناعتي . »

ـ « اوه ، لشدّ ما أتمنى لو لم تكن من اهل تلك الصناعة ، ولو انك لن تموت . »

فقال الكولونيل : « وكذلك انا . ولكني على وشك اعتزال هـذه الصناعة . »

فقالت وقد غلب عليها النعاس والارتياح : « أجل . وعندئذ نذهب الى رومة ونشتري الملابس . »

ـ « ونحيا سعيدين بعد ذلك الى الأبد . »

فقالت : « ارجوك ان لا تقول هذا ، ارجوك أن لا تقول هذا . انت تعلم اني اخذت على نفسي عهداً أن لا اذرف الدمع . »

فقال الكولونيل : « إنك تذرفين الدمع الآن . ليت شعري ما الذي يتعيّن عليك ان تخسريه بسبب من ذلك العهد ؟ »

ـ « خذني الى البيت من فضلك . »

فقال لها : « ذلك ما كنت افعله بادىء ذي بدء . »

ـ « كن دمثاً مرةً واحدة ، قبل كل شيء . »

فقال الكولونيل : « سوف أكون . »

وبعد ان دفعا الاجرة ، أو على الاصح بعد ان دفع الكولونيل الأجرة ، الى الغناديليّ الذي كان يجهل كل شيء ، وبرغم ذلك يعلم كل شيء ، والذي كان قويّ البنية ، بارعاً ، كثير الاحترام ، جديراً بالثقة ... اقول بعد ان دفع الكولونيل الاجرة الى الغناديلي مشيا الى «بياتزيتا» Plazzeta ، ثم عَبَرا الساحة العريضة الباردة ، التي كانت مسرحاً للريح ، والتي بدت صلبةً عتيقة تحت أقدامهما . أجل مشيا ، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر في قوة وإحكام ، يكتنفهما أساهما وتكتنفهما سعادتهما .

وقالت الفتاة : « هذا هو المكان الذي اطلق فيه الالمانيّ النار على الحمائم . »

فقال الكولونيل : « أغلب الظن اننا قتلناه . او قتلنا أخاه . ولعلنا قد شنقناه . لست أدري . انا لست من رجال دائرة المباحث الجنائية (C . I . D)

ـ « ألا تزال تحبني بعد ان وطئنا هذه الحجارة الباردة ، العتيقة التي أبلَتْها المياه ؟ »

ـ « أجل . وإني لأودّ لو انشر هنا فراشاً واقيم الدليل على ذلك . »

ـ « خليق بهذا الصنيع أن يكون أمعن في البربرية من صنيع مُطلق النار على الحمائم . »

فقال الكولونيل : «أنا رجل بربريّ الخُلق »

ـ « ليس دائماً . »

ـ « اشكرك على **ليس دائماً** هذه . »

ـ « يجب ان ننعطف هنا . »

ـ « احسب اني أعلم ذلك . متى سيدكّون « قصر السينما » اللعين هذا ويقيموا مكانه كاتدرائية حقيقية ؟ ذلك ما يريده سائق سيارتي جاكسون . »

ـ « عندما يضع امرؤ ما القديس مرقص تحت حمل من لحم الخنزير وُيرجعه من الاسكندرية كرة اخرى . »

ـ « لقد كان الذي فعل ذلك غلاماً من تورشيلو . »

ـ « انت غلام من تورشيلو . »

ـ « غلام من نهر بيافا الادنى ، وغلام من الـ «غرابا»[1] أو مـــن بيرتيكا . انا غلام من باسوبيو ، ايضاً ، اذا عرفتِ معنى ذلك . ولقد كان مجرد العيش هناك اسوأ من القتال في أي مكان آخر . وفي الفصيلة كان من دأبهم ان يشاركوا ايما امرىء ميكروبه الخاص بمرض السيلان المحمول من « شيبو» ضمن علبة كبريت . وإنما كانوا يقدمون على هذه المشاركة لا لشيء إلا لكي يصبح في ميسورهم الانصراف ، لأن الاوضاع هناك كانت لا تطاق . »

ـ « ولكنك بقيت . »

فقال الكولونيل : « من غير ريب . انا دائماً آخر من يغادر الحفلة الساهرة ، اعني الـ Fiesta ، لا الحزب السياسي[2] . انا الضيف الذي لا شعبية له حقاً . »

ـ « هل ترى ان نذهب ؟ »

ـ « حسبتُ انكِ عقدت العزم على ذلك . »

ـ « لقد فعلت ، ولكني نقضته حين تحدثت عن الضيف الذي لا شعبية له . »

ـ « احتفظي به معقوداً . »

---

١ ـ الـ grappa مرتفعات جبلية من الألب الشرقي في ايطالية . وبيرتيـــكا Pertica موضع في تلك المرتفعات . (المعرب)

٢ ـ في الاصل تلاعب لفظي لا يمكن نقله الى العربية ، لان لفظة party تعني في الانكليزية الحفلة الساهرة ، والحزب السياسي ايضاً . اما الـ fiasta فلفظة اسبانية تعني العيد او المهرجا . (المعرب) .

ـ « إن في استطاعتي أن ألزم قراراً اتخذتُه . »

ـ « أدري . في استطاعتك ان تلزمي اي شيء لعين . ولكنك ، يا بنيّتي ، لا تفعلين في بعض الأحيان . ان الحمقى هم الذين يلتزمون قراراتهم دائماً . اذ يتعين على المرء ، احياناً ، ان يغيّر موقفه في سرعة . »

ـ « سوف اغير موقفي اذا شئت انت . »

ـ « لا . انا احسب ان القرار كان سليماً . »

ـ « ولكن ألن تكون فترة طويلة الى حد رهيب تلك التي تفصلنا عن صباح غد ؟ »

ـ « ذلك كله رهنٌ بما اذا كان المرء محظوظاً ام غير محظوظ . »

« ان عليّ ان انام نوماً عميقاً . »

فقال الكولونيل : « أجل . في مثل سنك يتعين عليهم ، اذا استعصى عليك النوم ، ان يخرجوكِ ويعلقوك على أعواد المشنقة . »

ـ « اوه ، ارجوك . »

فقال : « آسف . عنيت ان يعدموك رمياً بالرصاص . »

ـ « كدنا نبلغ المنزل ، وفي ميسورك الآن ان تكون دمثاً لو شئت . »

ـ « إني لأتعلق بأسباب الدماثة الى حدّ يجعلني نتناً . فليأخذ غيري بأسباب الدماثة . »

كانا قد أمسيا أقام القصر الآن ، وها هو ذا القصر قائماً قبالتها . ولم يكن ثمة ما يستطيعان عمله الآن ، غير جذب حبل الجرس ، او الدخول بواسطة المفتاح . لقد استشعرت الضياع في هذا المكان ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، وانا لم أستشعر الضياع في حياتي قط من قبل.

ـ « ارجوك ان تقبّلني متمنياً لي ليلة طيبة في دماثة . »

وفعل الكولونيل ذلك ؛ ولقد أحبها ، ومن هنا لم يستطع لهذا الموقف احتمالاً .

وفتحت الباب بالمفتاح ، الذي كان في حقيبتها . ثم توارت عن

البصر ، وخلّف الكولونيل وحيداً ، مع الرصيف البالي ، والريح التي كانت تهب من ناحية الشمال ، والظلال في حينما ظلت الاضواء مومضة .
وراح يمشي عائداً الى البيت

ان السياح والعشاق وحدهم يستأجرون الغناديل ، كذلك قال في ذات نفسه . إلا ابتغاء عبور القناة في المواطن الخالية من الجسور . ان عليّ ، ربما ، ان اذهب الى حانة هاري ، او الى اي مكان آخر لعين . ولكني اعتقد اني سأذهب الى البيت .

١٥

لقد كان بيتاً حقاً ، اذا كان في الامكان اطلاق هـذا الوصف على حجرة في فندق . كانت بيجامته موضوعة على السرير ، وكانت ثمة الى جانب مصباح المطالعة زجاجة من الـ «فالبوليشيلا» ؛ والى جانب السرير كانت زجاجة مياه معدنية في دلو ثلج ، وقـــد وضعت قربها فوق الصينية الفضية ، كأس . كانت اللوحة الزيتية قد جُرّدت من اطارها ونُصبت على كرسيين اثنين بحيث يستطيع ان يرى اليها وهو مضطجع في سريره .

وبجانب وسائده الثلاث كانت الطبعة الباريسية من صحيفة «نيويورك هرالد تريبيون» . كان يستعمل ثلاث وسائد ، كما عرف آرنالدو ، وكانت زجاجة دوائه الاضافية - لا تلك التي حملها في جيبه - موضوعة بجانب مصباح المطالعة . وكانت ابواب الخزانة الداخلية ، الأبواب ذات المرايا ، مفتوحة بطريقة تمكّنه من أن يرى اللوحة من جانب . وكان خُفّاه اللذان لا عقبين لهما على مقربة من السرير .

سوف اشتريها ، كذلك خاطب الكولونيل نفسه اذ لم يكن ثمـــة شخص آخر غير اللوحة الزيتية .

وفتح زجاجة الفالبوليشيلا التي كان قد نزع سدادتها ، ثم أعاد سدها بالفلينة في عناية ، وإحكام ، وحبّ ، وأفرغ لنفسه قدحاً في تلك الكأس التي كانت احسن بكثير من اي واحدة ينبغي لأي فندق يواجه امكانية

الكسر والتحطيم ان يستعملها .

وقال : « اني اشربها على صحتك ، يا بنيتي ، الجميلة الظريفة . هل تعلمين ان بين محاسنك الكثيرة ان ريّاك طيبة دائماً ؟ ان لك لرائحة فاتنة حتى في مَهَب الريح ، او تحت بطانية ، أو عندما يقبّلك المرء وهو يتمنى لك ليلة طيبة . وانت تعلمين أن هذا شيء لا نقع عليه عند الكثرة الكبيرة من الناس ؛ وانتِ لا تستعملين ضروب العطر والطيب . »

ونظرت اليه من اللوحة الزيتية ولم تقل شيئاً .

فقال : « ليكن ما يكون . إني سأوجه الخطاب الى صورة . »

ما الذي اصابه الخلل الليلة ، في ما تحسب ؟ كذلك فكّر .

انا ، في ما يخيل اليّ . حسناً ، سوف احاول ان اكون ، غداً ، غلاماً طيباً طوال النهار . منذ الخيط الأول من خيوط الفجر .

– « بُنيّتي » ، كذلك قال وكان يتحدث اليها الآن لا الى صورة من الصور . « ارجوك ان تثقي انني احبك ، واني اودّ ان اكون رقيقاً وطيباً . وأرجوكِ ان تبقي الى جانبي ، الآن ، من غير انقطاع . »

وكانت اللوحة الزيتية هي هي لم يتغير فيها شيء .

واخرج الكولونيل أحجار الزمرد من جيبه ، ورنا اليها ، وأحسّ بها تنزلق – باردةً ولكنها برغم ذلك دافئة ، باعتبار أنها توصل الحرارة وباعتبار ان لجميع الحجارة الكريمة حرارتها – من يده المشوهة الى يده السليمة .

«كان يجب عليّ ان أضع هذه الأحجار في ظرف وأن أغلق عليها درجاً من الأدراج ، كذلك قال في ذات نفسه . ولكن هل ثمة سلامة ....[1] خيرٌ من تلك التي أستطيع ان اقدّمها اليها ؟ إن عليّ ان اعيد هذه الأحجار اليك سريعاً ، يا بنيّتي .

لقد كانت ، برغم ذلك ، متعةً . وهي لا تساوي اكثر من

---

١ – هنا موضع لفظة مقذعة محذوفة في الاصل .

ربع مليون .. مبلغٌ ليس في امكاني أن اكسبه إلا في اربعمئـة سنة . ان عليّ أن أدقق في هذا الرقم . »

ووضع احجار الزمرد في جيب بيجامته ، ووضع عليها منديلاً . ثم إنه زرّر الجيب . إن اول شيء سليمٍ تتعلّمه ، كذلك قال في نفسه ، هو أن تزوّد جميع جيوبك بألسنة وأزرار . ويخيّل اليّ أني تعلّمتُ ذلك على نحو مبكّر اكثر مما ينبغي .

وكان ملمس الأحجـــار حسناً . كانت قاسيةً دافئة مما يلي صدره المستوي ، القاسي ، العتيق الدافىء ؛ ولاحـظ كيف كانت الريح تهب ، ونظر الى اللوحة الزيتية وأترع كاساً اخرى من الفابوليشيلا ثم شرع يقرأ الطبعة الباريسية من صحيفة « نيويورك هيرالد تريبيون . »

إن عليَّ أن آخذ الأقراص ، كذلك قـــال في ذات نفسه . ولكنْ فلتذهب الأقراص الى الجحيم .

ثم إنه اخرجها ، برغم ذلك ، وتابع قراءته صحيفة « نيويورك هيرالد» . كان يقرأ مقال ريد سميث ، وكان يحبه حباً عظيماً .

١٦

واستيقظ الكولونيل قبل انبلاج الفجر ، وتحقق من أن أحداً لم يكن نائماً معه .

كانت الريح لا تزال تهب قوية ً عاتية ، فمضى الى النوافذ المفتوحة ليتحرّى حالة الجو . لم يكن ثمة في الشرق ، عبر القنال العظمى ، أيما ضوء ؛ ولكن عينيه استطاعتا ان تريا تلاطم الامواج العنيف . وقال في ذات نفسه : إن المدّ سوف يكون رهيباً ، اليوم . ولعله ان يغرق الساحة كلها . وهذه ، دائماً ، متعة ٌ من المتع . إلا بالنسبة الى الحمائم .

ومضى الى الحمام ، آخذاً معه صحيفة « هيرالد تريبيون » وريد سميث ، وكأساً من الفالبوليشيلا أيضاً . لعنها الله ، إني سأكون سعيداً حين يأتيني المايسترو الأعظم بتلك الالفيّات الكبار ، كذلك قال في ذات نفسه . إن هذه الخمرة لتصبح كثيرة الثفل في النهاية .

وجلس هناك ، مع صحيفته ، مفكراً في أشياء ذلك اليوم .

انه سوف يتلقى مخابرة تلفونية . ولكن هذا قد لا يتم إلا في ساعة متأخرة ، لأنها سوف تظل نائمة حتى ساعة متأخرة . ان الصبايا لا يستيقظن إلا متأخرات ، كذلك قال في ذات نفسه ، والجميلات يستغرقن في النوم اكثر وأكثر أيضاً . وليس من ريب في أنها لن

تتلفن في ساعة مبكرة ، ولن تفتح الدكاكين أبوابها حتى الساعة التاسعة ، أو بعد ذلك بقليل .

يا للجحيم ، كذلك قال في ذات نفسه ، ان لديّ هــذه الجواهر اللعينة . كيف يستطيع أيما امرىء ان يفعل شيئاً كهذا ؟

ولكنك تعرف كيف ، كذلك قال في ذات نفسه ، وهو يطالع الاعلانات المنشورة على الصفحة الاخيرة من الصحيفة . لقــد رَقَيْتَ نفسك ، عدة مرات بشيء مثل ذلك في خــط النار . ان هذا ليس بالأحمق او المرَضيّ . ولقد ارادت هي أن ترْقيك ليس غير . لقد كان من حسن الطالع ان يقع اختيارها علي ، كذلك قال في ذات نفسه .

هذا هو الشيء الحسن الوحيد في كوني مَنْ أنا ، كذلــك فكر . حسناً ، أنا مَنْ أنا . على اية حال . ما رأيك في الجلوس على صفيحة القمامة ، كما قد جلست كل يوم تقريباً من ايام حياتك اللعينة ، وهذه الجواهر في جيبك ؟

انه لم يكن يخاطب احداً ، إلا الذّرية ، رُبمّا

كم من صبــاح قعدت في الصيف الطويل مع الآخرين جميعــاً ؟ كان ذلك اسوأ ما فيها . هو وحلق الذقن . والا انصرفت لتخلو الى نفسك ، وتفكر ، أو لا تفكر ، ثم تختار لنفسك مَفْزعاً صالحاً فتجد ان رجلين من رجال الغدارات قد سبقاك اليه ، او تجد غلاماً مــا مستغرقاً في النوم .

ليس في الجيش خلوة الا بمقدار مــا في ...[1] احترافيّ من خلوة . ان قدميّ لم تطأ[1] ... احترافياً قط ، ولكن يخيّل اليّ انه يدار بطريقة

---

١ – موضع كلمة مقذعة محذوفة في الاصل .

مماثلة الى حد بعيد . لقد كان فيميسوري أن أتعلم كيف ادير واحداً منها . كذلك قال في ذات نفسه .

وعندئذ أعمد الى تعيين جميع شخصياتي ... [1] الرئيسيين سفراء ، أما غير الناجحين فاستطيع أن أعينهم قادة للجيش ، او قادة للمواقع العسكرية في زمن السلم . لا تكن لاذعاً ، أيها الغلام ، كذلك قال لنفسه . إن الضحى لما يرتفعْ بعد ، وان مهمتك لما تنتهِ بعد .

ما الذي ستصنعه بزوجاتهم ، كذلك سأل نفسه . اشترِ لهم قبعات أو أطلِقِ النار عليهن ، كذلك قال . إن ذلك كله جزء من العملية نفسها .

ونظر الى نفسه في المرآة ، المُثبتة في الباب نصف المغلق . فأرته نفسَهُ عند زاوية ضئيلة . انها طلقةٌ زائفة . وانهم لم يسددوا العيار الناري الى ما ورائي ، تسديداً كافياً ، يؤدي آخر الأمر الى اصابتي [2] .

ايها الغلام ، كذلك قال ، انت من غير ريب نغلٌ بالٍ تبدو عليه امارات الهرم .

والآن يتعين عليك ان تحلق ذقنك وان تنظر الى وجهك وانت تفعل ذلك . ثم يتعين عليك أن تقص شعرك . إن ذلك هين في هذه المدينة . انك كولونيل في سلاح المشاة ، ايها الغلام . وليس في استطاعتك ان تطوّف في كل مكان بمظهر اشبه بمظهر جان دارك ، او الجنرال (رتبة تشريف) جورج آرمسترونغ كاستر . ذلك الفارس الجميل . واحسب

---

١ ـ هنا موضع لفظة مقذعة محذوفة في الاصل .

٢ ـ يقصد كما نصيد بطة بأن تشدد العيار الناري الى ما وراءها ، وهي طائرة ، حتى يُحسب حساب تحركها بينما يكون العيار في طريقه اليها . (المعرب)

ان من الماتع ان يكون المرء هكذا ، وان تكون له زوجة محبة ، وان يتخذ من النُشارة عقلاً . ولكن لا ريب في ان صناعة الحرب بدت وكأنها ليست الصناعة التي خُلِق لها عندما قُتلوا في تلك الهضبة القائمة فوق «ليتل بيغ هورن» وقد اخذت الافراس القصيرة الجسم تدور حولهم وسط سحابة من الغبار ووسط مُجتمَع القصعين الذي سحقته حوافر خيل العدو ، ولم يبق للجنرال ، طوال الأيام الباقية من حياته ، غير تلك الرائحة المستحبَّة العتيقة التي انبعثت من البارود الأسود ، وجنوده يطلقون النار على بعضهم بعضاً وعلى أنفسهم ، لأنهم كانوا يخشون ما قد يفعله بهم المقاتلون البيض المتزوجون من نسوة هنديات حمراوات .

لقد شُوّهت الجثة تشويهاً لا سبيل الى وصفه ، كذلك كانوا يقولون في هذه الصحيفة نفسها . وعلى تلك الهضبة لتدرك انك ارتكبت غلطة حقيقية ، آخر الأمر والى الأبد وحتى أقصى درجة . يا للفارس المسكين ، كذلك قال في ذات نفسه . تلك كانت نهاية أحلامه كلها . وهذه احدى المحاسن التي ينطوي عليها كون المرء جندياً في سلاح المشاة . إنك لم تعرف في حياتك الأحلام قط ، باستثناء أحلامك المزعجة .

حسناً ، كذلك قال في ذات نفسه ، لقد انتهينا الآن ، ولن تنقضي غير لحظات حتى يتدفق النور ويصبح في ميسوري ان أرى اللوحة الزيتية . سوف اكون ملعوناً اذا طويت هذه . إني سأحتفظ بها .

يا للمسيح ، كذلك قال ، ليت شعري كيف تبدو الآن وهي مستغرقة في النوم ؟ أنا اعرف كيف تبدو ، كذلك قال في ذات

فسه . رائعة . إنهـا تنام وكأنها لم تستسلم للنوم . وكأنها تخلد الى الراحة ليس غير . انا أرجو ان تكون هكذا ، كذلك قال في ذات نفسه . أرجو ان تكون ناعمة بالراحـة حقاً . يا ليسوع المسيح ، لشدّ ما أحبها وأتمنى أن لا أؤذيها أبد الدهر .

١٧

وحين شرعت الشمس ترسل خيوطها رأى الكولونيل اللوحة الزيتية . ولعله رآها ، في اغلب الظن ، بمثل السرعة التي يرى بها أيما رجل متمدين يتعيّن عليه ان يطالع وان يوقّع النماذج التي لم يكن يؤمن بها ... أقول بمثل السرعة التي يرى بها أيما رجل متمدين شيئاً من الاشياء ، حالما يتبدّى ذلك لناظره . اجل ، كذلك في ذات نفسه ، إن لي عينين ، وانهما لا تزالان قادرتين على الادراك السريع الى حد غير يسير ، ولقد كان لهما ذات يوم طموح . ولقد قدتُ رجالي الأجلاف الى حيث أمطِروا بالرصاص . ان ثلاثة فحسب ، من أصل مجموعهم البالغ عدده مئتين وخمسين رجلاً ، لا يزالون على قيد الحياة ، ولقد قصدوا الى اقصى البلدة ليستندوا اكفّ المحسنين بقية عمرهم .

وقال للوحة الزيتية : هـذا من شكسبير . الفائز والبطل الذي لا منازع له .

ان امرءاً ما قد يقهره ، في نزال قصير . ولكني أوثر أن أُجِلّه وأمجّده . هل قدّر لك أن تقرأي « الملك لير »[١] ، يا بُنيّتي ؟ لقد قرأها مستر « جين تاني » Gene Tunney ، ولقد كان بطل العالم . ولكني

١ King Lear مسرحية لشكسبير مشهورة . (المعرب)

أنا قرأتها ايضاً . ان الجنود يعنون بستر شيكسبير ايضاً ، برغم ان ذلك قد يبدو مستحيلا .

أليس لديك ما تدافعين به عن نفسك غـير ردّ رأسك الى الوراء ؟ كذلك سأل اللوحة الزيتية . هل تريد مزيداً ، يا شيكسبير ؟

انكِ في غير ما حاجة الى الدفـاع . ليس عليكِ الا ان تستريحي وتُبقي كل شيء على حاله . انه عمل لا غناء فيه . ودفـاعك ودفاعي مجرد عبث لا طائل تحته . ولكن من ذا الذي يستطيع أن يقول لك أن تمضي وتشنقي نفسك كما نفعل نحن ؟

لا احد ، كذلك قال لنفسه وللوحة الزيتية . من الراهن ان هذا الشخص ليس هو أنا .

وخفض يده السليمة ووجد نادل الحجرة قد ترك زجاجة فالبوليشيلا ثانية في محاذاة المكان الذي كانت فيه الزجاجة الاولى

اذا احببت بلاداً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، فيحسن بك أن تعترف بذلك أيها الغلام .

لقد أحببت ثلاثاً وفقدتها ثلاث مرات . كن منصفاً . لقد استرد ّينا اثنتين . ثم صحح خطأه فقال : استردْدنا .

ولسوف نسترد الثالثة ، الجنرال فرانكو البدين على مـــتن زورق صيده ، مزوّداً بنصيحة طبيبه وببطّةِ الداجن وبدريئة من الفرسان المغاربة حين يطلق النار .

-- « اجل» ، كذلك قال في رقة للفتاة التي نظرت اليه في وضوح الآن ، على هدي اول النور وأحسنه .

سوف نسترد ذلك ولسوف يُشنقون كلهم ، رأساً على عقب ، خارج محطات البنزين ، ثم اضاف · لقد حذّرتكم .

ثم قال : «أيتها اللوحة الزيتية ، لماذا بحق الجحيم لا تستطيعين أن

تضطجعي مني في السرير بكل بساطة بدلاً من أن تكوني على مبعدة ثماني عشر بلاطة صلبة عني ؟ انا لم أعد الآن لاذعاً بقدر ما كنت من قبل في اي وقت . »

« ايتها اللوحة الزيتية » ، كذلك قال للفتاة ، وللوحة معاً ؛ ولكن لم يكن ثمة اية فتاة وكانت اللوحة الزيتية مرسومة كما كانت .

« ايتها اللوحة الزيتية ، أبقي ذقنك اللعينة مرفوعة بحيث تستطيعين أن تفطري فؤادي في سهولة أعظم . »

لقد كانت من غير ريب هدية طريفة ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .

« هل تستطيعين ان تناوري » ، كذلك سأل اللوحة الزيتية ، « في اجادة وسرعة »

ولم تقل اللوحة شيئاً فأجاب الكولونيل : أنت تعلم جيداً أنها قادرة على ذلك .

ولقد بزّتك في فن المناورة في الكثرة العظمى من أيام حياتك ، وخليقٌ بها ان تمكث وتقاتل ، حيث تكون انت منصرفاً الى عبثك الوضيع ، وان تفعل ذلك في حصافة بالغة .

وقال : « ايتها اللوحة . غلاماً كنتِ أو بنتاً أو حبي الحقيقي الوحيد أو أي شيء آخر . انتِ تعرفين ما هو ، ايتها اللوحة . »

ولم تجب اللوحة ، شأنها من قبل . ولكن الكولونيل ، الذي عاد الآن جنرالاً من جديد ، في تلك الساعة المبكرة من الصباح وفي الوقت الوحيد الذي عرف معرفة جيدة ، وقد احتسى شراب الفالبو ليشيلا ، ادرك ادراكاً قاطعاً وكأنه قد قرأ « فاسيرمان » للمرة الثالثة منذ لحظات ، انه لم يكن ثمة في اللوحة ايّ ...[1] ، واستشعر الخجل لتحدثه الى

---

١ - هنا موضع كلمة مقذعة محذوفة في الاصل الانكليزي ايضاً . (المعرب)

اللوحة بمثل هذا الحديث اللاذع .

ـ « سوف اكون احسن غـلام لمين ُقدّر لكِ ان َترَيْهِ اليوم . وفي استطاعتك ان تخبري رئيستك ذلك . »

ولكن اللوحة ، كدأبها دائماً ، ظلت صامتة .

لعلها ان تتحدث الى فارس في سلاح الفرسان ، كذلك قال الجنرال ، ذلك بأنه كان الآن ذا نجمتين ، ولقد صَرَفَت نجومه على كتفيه وتبدّت بيضاء أمام الحمرة الغامضة الناصلة على اللوحة المعدنية التي في مقدمة سيارة « الجيب » . إنه لم يستعمل سيارات القيـادة قط ، ولا العربات نصف المصفّحة المتمّمة بأكياس الرمل .

وقال : « الى الجحيم بك ، أيتها اللوحة ، أو اطلبي مقعدكِ الكنسيّ من قسّيسنا الكونيّ كلنـا ، نحن المؤمنين بأديان مشتركة . ان عليك ان تكوني قادرة على العيش من هذه السبيل . »

فقالت اللوحة ، من غير أن تتكلم : « الى الجحيم بك ، أيها الجندي ذو الدرجة الوضيعة . »

ـ « اجل » ، كذلك قال الكولونيل ، ذلك بأنه كان الآن كولونيلا كرة اخرى ، وتخلّى عن رتبته السابقة كلها .

ـ « انا احبك ، ايتها اللوحة ، حباً عظيماً . ولكن لا تخاشنيني . انا احبك حباً عظيماً لأنكِ جميلة . ولكني احب الفتاة اكثر . مليون مرة اكثر ؛ أسمعت ؟ »

ولم يكن ثمة أية أمارة تفيد انها سمعت . وهكذا سئمها وملّها .

وقال : « أنت َتلـْزَمين موقفاً ثابتاً . سواء أكنتِ من غير أطار أو ضمن إطار ما . وإني لأعتزم أن أناور . »

كانت اللوحة الزيتية صامتة كصمتها منذ أن حملها بواب الفندق الى الحجرة ، وجلاها للكولونيل وللفتاة ، يعاونه النادل الثاني على ذلك .

ونظر الكولونيل اليها ، ورأى ان من المتعذر الدفاع عنها ، بعد

أن أصبح الضياء غامراً او شبه غامر .

لقد رأى ، أيضاً ، أنها كانت صورة حبيبته الغالية ، ومن اجل ذلك قال: «آسف لكل ما تلفظتُ به من حماقات ، أنا لا أودّ أبد الدهر ان اكون وحشياً . ولعل في ميسورنا كلينا ان ننام برهة قصيرة ، مع الحظ ، وعندئذ ربما عمدت سيدتك الى الاتصال التلفوني بي . »

ومن يدري ، فلعلها أن تأتي لزيارتي أيضا ، كذلك قال في ذات نفسه .

١٨

دفع حاجب الردهة صحيفة الـ غازيتينا» تحت الباب ، فتلقّاهـا الكولونيل ، من غير ان يحدث ضجة ما ، حالما مَرّت ، او كادت ، من خلال الشّق .

لقد نترها ، تقريباً ، من يد حاجب الردهة . ولم يكن يحبّ حاجب الردهة ، بسبب من انه فاجأه ، ذات يوم ، وهو يعبث بمحتويات حقيبته ، عندما عاود هو - الكولونيل - دخول الحجرة بعد أن غادرها ، مبدئياً ، لفترة قصيرة من الزمان . كان قد انقلب عائداً الى الحجرة لكي يجيء بزجاجة عقّاره ، التي كان قد نسيها ، فإذا به يجد حاجب الردهـة ماضياً في العبث بمحتويات حقيبته .

- « احسب انكم ، في هذا الفندق ، تهددون الناس ابتغاء سَلبهم .»
كذلك كان الكولونيل قد قال . « ولكنك لست بمفخرة لمدينتك .»
وكان الرجل ذو الوجه الفاشستي والصُدرة المخططة قد اعتصم بالصمت فقال الكولونيل : «تابع ، ايها الغلام ، عبثك بسائر المحتويات . أنا لا احمل اسراراً عسكرية مع ادوات زينتي . »

ومنذ ذلك الحين أصبح بينهما ودّ مفقود ، واستمتع الكولونيل بمحاولة نتْر الصحيفة الصباحية من يد الرجل ذي الصدرة المخططة ، في غير

ما ضجة ، كلما سمعها او رآها تتحرك اول ما تتحرك تحت الباب .

- « أو . كي . لقد كسبت اليوم ، أيها الغِرّ الحقير ! » كذلك قال بأحسن لهجةٍ فينيسية استطاع أن يصطنعها في تلك الساعة . « اذهب واشنق نفسك ! »

ولكنهم لا يشنقون انفسهم ، كذلك قال في ذات نفسه . كل ما عليهم ان يفعلوه هو الاستمرار في وضع الصحف تحت أبواب الناس الآخرين الذين لا يضمرون لهم حق البغض . ان كون المرء « فاشستياً سابقاً » لا بدّ ان يكون مهنة عسيرة جداً . ولعله أن لا يكون «فاشستياً سابقاً ». ما يُدريك ؟

أنا لا استطيع أن أبغض الفاشستيين ، كذلك قال في ذات نفسه . حتى ولا النمساويين ، ما دمت — لسوء الطالع — جندياً .

وقال : اسمعي ، أيتها اللوحة . هل يتعين عليّ أن أبغض النمساويين لأننا نقتُلهم ؟ هل يتعين عليّ أن أبغضهم كجنود وكمخلوقات بشرية ؟ ان هذا ليبدو لي حلاً يسيراً اكثر مما ينبغي .

حسناً ، أيتها اللوحة . إنسي ما قلتُ . إنسي ما قلت . أنتِ لم تبلغي من السن مبلغاً يمكّنكِ من معرفة شيء عن ذلك . انتِ أصغر بسنتين من الفتاة التي تمثلينها ، وهي اصغر سناً واكبر سناً من الجحيم ... والجحيم مكان بالغُ العِتق والقِدَم .

- « اسمعي ، ايتها اللوحة ، » كذلك قال . وفيما هو يقول هذه الكلمات ادرك انه سوف يكون لديه الآن ، ما امتدّت به الحياة ، شخصٌ يستطيع أن يتحدّث اليه في ساعات الصباح المبكرة التي يفيق من نومه خلالها .

- « كما كنت أقول ، أيتها اللوحة . الى الجحيم بهذا أيضاً .

وهذا ايضاً شيء لم تبلغي من السن مبلغاً يمكّنك من معرفته . إنه أحد الأشياء التي لا يستطيع المرء ان يقولها مهما تكن صحيحة . وهناك جمهرة من الاشياء لا استطيع ابد الدهر ان اقولها لكِ ، وربما

كان ذلك خيراً لي . انها عن عهد مضى تقريباً .. ما الذي تحسبينه خيراً لي ، أيتها اللوحة ؟ »

– « ما خطبك ، ايتها اللوحة ؟ وكذلك سألها . « هل بدأت تحسين بالجوع ؟ أنا بدأت احس به . »

وهكذا رنّ الجرس للنادل ليكلفه بالاتيان بطعام الصباح .

لقد عرف انه لن يكون ثمة الآن – برغم سطوع الضياء الى حدّ تجلّت معه كل موجة من موجات القناة العظمى ، رصاصية اللون ثقيلة عارمة مع مجرى الريح ، وبرغم ان المدّ ارتفع الآن فغمر درجات « مهبط » القصر القائم قبالة حجرته مباشرة ... اقول لقد عرف انه لن يكون ثمة اي اتصال تلفوني قبل عدة ساعات .

إن الذين لا يزالون في مقتبل العمر ينامون نوماً عميقاً ، كذلك قال في ذاته نفسه . إنهم أهل لذلك .

– « لماذا يتحتم علينا ان نشيخ ؟ » كذلك سأل النادل الذي كان قد اقبل بعينه الزجاجية وبلائحة الطعام .

– « لست ادري ، يا زعيمي . انا احسب أنها عملية طبيعية . »

– « اجل . يخيل اليّ اني اظن ذلك ايضاً . بضع بيضات مقلوّة منتفخة الوجوه . وشيء من الشاي والخبز المحمّص . »

– « الا تريد شيئاً اميركياً ؟ »

– « الى الجحيم بكل ما هو اميركي ما عداي ! هل افاق المايسترو الأعظم من نومه ؟ »

لقد جاءك بشراب فالبوليشيلاّ في ألفيات كبيرة مطوقة بأغصان مجدولة ، تسع كل منها ليترين . ولقد حملت اليك هذه الزجاجة معها . »

ـ « هذه ؟ » كذلك قال الكولونيل . « لشد ما اتمنى لو استطيع أن اقدّم اليه فرقة عسكرية . »

ـ « لست احسب انه راغب » فعلاً » في واحدة . »

فقال الكولونيل : « لا . وانا ايضاً غير راغب » فعلاً » في واحدة . »

١٩

وتناول الكولونيل فطوره بمثل أناة مصارع تلقّى ضربة قاسية ، فهو يسمع لفظة «اربعة» ويعرف كيف يسترخي استرخاء حسناً طوال خمس ثوان اخرى .

وقال : « ايتها اللوحة ، يتعين عليك انت ايضاً ان تسترخي . ذلك هو الشيء الوحيد الذي سيكون عسيراً في أمركِ . ذلك ما يدعونه العامل السكونيّ في فن الرسم . انت تعرفين ايتها اللوحة أنه يكاد لا يكاد ثمة أية صُوَر ، او على الاصح أية لوحات زيتية ، تتحرك بأية حال . إن قلة منها لتتحرك . ولكن ليس كثرتها الكبيرة .

« إني لأتمنى لو كانت سيدتكِ هنا ، ولو كان في ميسورنا ان ننعم بالحركة . كيف تقوى الفتيات اللواتي يشبهنكِ ويشبهْنَها على معرفة هذه الأشياء كلها وهن في مثل هذه السنّ الغضة ، ثم يكنّ فوق ذلك فاتنات الى هذا الحد ؟

« عندنا نحن ، اذا كانت فتاة ما فاتنة حقاً تكون من بنات تكساس ، ولربما استطاعت ، اذا اسعفها الحظ ، أن تنبئك في أي شهر نحن . إن في استطاعتهن جميعاً ، برغم ذلك ، أن يُحسِنّ العَدّ .

« انهم يعلّمونهنّ كيف يَعْدُدْن وكيف يبقين ارجلهنّ متلاصقاتٍ وكيف يرفعن شعرهن متموّجاً الى أعلى بواسطة الدبابيس . إن عليكَ في بعض الاحيان ، ايتها اللوحة ، من أجل آثامكَ — ان كانت لكَ اية

آثام – ان تضطجع مع فتاة رفعت شعرها متموّجاً الى اعلى بواسطة الدبابيس لكي تكون جميلة غداً ، لا الليلة . انهن لا يبغين ابداً أن يكنّ الليلة جميلات . فالحق انهن يفعلن ذلك كله من أجل الغد ، حين تُجْري المباراة .

« ان الفتاة ، ريناتا ، التي أنتِ هي ، لنائمة الآن من غير ان تفعل بشعرها أيما شيء البتة . إنها نائمة وقد استرسل شعرها على الوسادة ، وكله بالنسبة اليها لا يعدو أن يكون ازعاجاً حريرياً ماجداً داكناً بحيث لا تكاد تتذكر كيف تسرحه لولا أن مربيتها قد علمتها ذلك .

« اني لأراها في الشوارع وهي تخطو رشيقة طويلة الساقين وقد عبثت الريح بشعرها ما شاء لها العبث ، وقد نهد ثدياها الحقيقيان تحت الكنزة ، ثم اتذكر الليالي في تكساس والفتيات بدبابيسهن المموَّجة للشعر واجسامهن المشدودة بالأدوات المعدنية والمُخْضَعة لها . »

وقال للوحة الزيتية : لا تصطنعي من اجلي دبابيس لتمويج الشعر ، يا حبيبتي .

ان عليّ ان لا اكون لاذعاً ، كذلك قال في ذات نفسه .

ثم انه قال للوحة ، ذلك بأنه فكـّر فيها ، الآن ، بوصفها نكرة لا معرفة : « انكِ ذات جمال لعينٍ الى حد يجعلكِ تُنتنين . ثم انك طُعم سجن أيضاً . ان ريناتا اكبر منك بسنتين الآن . انتِ دون السابعة عشرة . »

ولماذا لا استطيع ان افوز بها ، واحبها ، وادللها ، وان لا اكون لا لاذعاً ولا شريراً ، وان انجب الاولاد الخمسة الذين سوف يمضون الى زوايا العالم الخمس ؟ ايا ما كان معنى ذلك ! لست ادري . يخيّل الي ان ورق اللعب الذي نسحبه هو الورق الذي بين أيدينا . انت لا تحبّ ان تعيد توزيع الورق ، أليس كذلك ايها الموزع ؟

لا انهم يوزعون الورق لك مرة واحدة ، وعندئـــذ تتلقّف انت اوراقك وتلعب بها . ان في استطاعتي ان العب بها ، اذا ما سحبتُ أيما اوراق مهما تكن ، كذلك قال للوحة الزيتية ، التي ظلت جامدة لا تبين عليها اي امارة من أمارات التأثر .

وقال : « ايتها اللوحة . من الخير لك ان تنظري الى الناحية الأخرى بحيث لا تكونين غير عـُذرية . اني سوف اقف تحت الدشّ الآن واحلق لحيتي ، وهو شيء لن تـُضطري ابد الدهر الى صنعه ، وسأرتدي بذلتي العسكرية وامضي واطوّف في هذه المدينة مشياً على القدمـين حتى في مثل هذه الساعة المبكرة من النهار . »

وهكذا غادر السرير ، مُحابياً رجله المصابة التي كانت تؤلمه دائماً . لقد اطفأ مصباح المطالعة بيده المشوهة . كان ثمة ضوء كافٍ ، وكان قد هدر الطاقة الكهربائية طوال ساعة تقريباً .

وندم على ذلك كما ندم على جميع اخطائه . ومشى متخطّياً اللوحة الزيتية غير ناظر اليها إلا في لا مبالاة ، ورأى الى نفسه في المرآة . وكان قد خلع جزأي بيجامته ، ونظر الى نفسه نظرة انتقادية صادقة .

وقال للمرآة : « ايها النغل العجوز المضنى ! » كانت اللوحة الزيتية شيئاً من اشياء الماضي . وكانت المرآة واقعاً ، ومن بنات هذا اليوم.

ان الامعاء مسطحة ، كذلك قال من غير ان يلفظ الكلمات . والصدر لا غبار عليه ، باستثناء ذلك الجزء الذي يشتمل على العضلة المعتلة [١] . اننا نُشنق على الطريقة التي نـُشنق بها ، على أية حال ، أو بأية طريقـــة

---

١ – يقصد قلبه الضعيف . (المعرب)

رهيبة اخرى .

لقد بلغت من العمر نصف قرن ، ايها النغل الزنيم . والآن ادخل الحمام وخذ دُشّاً ، وافرك جلدك جيـــداً وبعد ذلك البس سترتك العسكرية . ان هذا اليوم هو يوم آخر .

٢٠

وقف الكولونيل عند منضدة الاستقبال في الردهة ، ولكن البواب لم يكن قد اقبل بعد . كان ثمة بواب الليل ليس غير .

– « هل تستطيع ان تضع لي شيئاً في الصندوق الحديدي ؟ »

– « لا يا زعيمي ، ان احداً لا يستطيع ان يفتح الصندوق الحديدي ما لم يأت المدير المساعد أو البواب على الأقل . ولكني مستعد لأن اصون لك ايما شيء ترغب في صيانته . »

– « شكراً . ليس ثمة ما يستحق مثل هذا العناء . » قال هذا ووضع غلافاً من غلافات فندق غريتي كانت احجار الزمرد في جوفه (وكان الغلاف موجهاً اليه هو) داخل جيب سترته العسكرية الايسر ثم زرّر الجيب عليه .

وقال بواب الليل : « ليس ههنا ، اليوم ، اية جرائم حقيقية . »

كان ليله ليلا طويلاً ، ولقد سرّه ان يتحدث الى ايما امرىء : « ولم يكن ههنا ، في ايما يوم من الايام ، اية جرائم حقيقية ، يا زعيمي . ليس ههنا غير خلافات في الرأي والسياسة . »

– « وما مذهبك في السياسة ؟ » كذلك سأله الكولونيل ، ذلك بأنه كان يستشعر هو ، ايضاً ، وحشة وسأماً .

– « ما قد تتوقعه تقريباً . »

– « فهمت . وما مدى النجاح الذي احرزه جماعتك ؟ »

ـ « اعتقد انهم سائرون في طريق النجاح . ربما ليس بمثل السرعة التي ساروا بها في العام الماضي . ولكنهم يتقدمون بخطىً ثابتة . لقد قُهرنا من قبل ، ويتعين علينا أن ننتظر ، الآن ، فترة ما . »

ـ « وهل تعمل في السياسة ؟ »

ـ « ليس كثيراً . انها عندي سياسة قلبي اكثر منها سياسة عقلي . أنا اؤمن بها بعقلي ايضا ، ولكن درايتي السياسية ضئيلة جداً . »

ـ « حين تتم الدراية السياسية لامرىء لا يبقى له ايما قلب . »

ـ « ربما كان هذا صحيحاً . ألديكم سياسة في الجيش ؟ »

فقال الكولونيل : « لدينا كثير . ولكن ليس من ذلك الضرب الذي تعنيه انت . »

ـ « حسناً ، من الخير لنا ان لا نناقشها اذن . انا لم اقصد أن اكون متطفلاً .. »

ـ « لقد طرحتُ انا السؤال ، السؤال الاصلي على الأصح . وكان ذلك لمجرد التحدث . انه لم يكن استنطاقاً . »

ـ « لست احسب انه كان كذلك . فليس لك ، يا زعيمي ، وجه مستنطق . وانا أعرف اشياء عن «المنظمة» برغم اني لست عضواً فيها . »

ـ « قد تكون مادة عضو . سأتابع النظر في هذه المسألة مع المايسترو الأعظم . »

ـ « نحن من بلدة واحدة ، ولكن من حيّين مختلفين . »

ـ « انها بلدة طيبة . »

ـ « يا زعيمي ، انا من ضآلة الدراية السياسية بحيث أحسب جميع الشرفاء شرفاء . »

فقال له الكولونيل مؤكداً : « اوه ، سوف تتغلب على هذه الصعوبة . لا تقلق ، ايها الغلام . ان عندكم حزباً فتياً . وطبيعي ان تقترفوا

بعض الاخطاء . »

ـ « ارجوك ان لا تتكلم هكذا . »

ـ « لقد كان مجرد فراغ لاذع يُرسل في ساعات الصباح الاولى . »

ـ « قل لي ، يا زعيمي ، ما هو رأيك الحقيقي في تيتو ؟ »

ـ « ان لي آراء كثيرة فيه . ولكنه جاري الأدنى . ولقد وجدت من الخير لي ان لا اتحدث عن جاري . »

ـ « اني احب ان اتعلم . »

ـ « اذن تعلم ذلك بالطريقه القاسية . ألا تعلم ان الناس لا يجيبون عن اسئلة كهذه ؟ »

ـ « كنت رجوتُ ان يفعلوا . »

فقال الكولونيل : « انهم لا يفعلون . وبخاصة اذا كانوا في مثل مركزي. كل ما استطيع ان اقوله لك هو ان مستر تيتو يواجه مشكلات كثيرة . »

ـ « حسناً ، انا اعرف ذلك الآن احسن معرفة ، » كذلك قال حاجب الليل الذي كان في الواقع مجرد غلام .

فقال الكولونيل : « أرجو ذلك . انا لا ازعم ان هذه المعرفة درّة مكنونة . والآن ، طاب يومك ، اذ يتعين علي ان اتمشى قليلاً لمصلحة كبدي او شيء آخر . »

ـ « طاب يومك ، يا زعيمي » Fa brutto tempo

فقال الكولونيل : « Bruttissimo » وشدّ حزام مِمطره شداً محكماً ، مسوّياً إياه حول المنكبين منزلاً أطرافه الى أدنى ، وغادر الفندق مندفعاً نحو الريح .

٢١

وركب الكولونيل متن غندول العشرة سنتيمات عبر القنال ، دافعاً الورقة النقدية القذرة المعتادة ، واقفاً وسط حشدٍ من اولئك الذين حكم عليهم الدهر بأن يفيقوا من نومهم باكراً .

والتفت الى «الغريتي» فرأى نوافذ حجرته ؛ كانت لا تزال مفتوحة . لم يكن ثمة أيما وعدٍ بهطول المطر ، أو وعيدٍ به ؛ لا ، كان ثمة نفس الريح الباردة ، القوية ، العاتية ليس غير ؛ الريح الهابّة من ناحيـة الجبال . وبدا كل من على متن الغندول مقروراً وقـال الكولونيل في ذات نفسه : لشدّ ما أتمنى لو استطيع أن اوزعّ هذه السترات الواقيـة من الريح على ممتطي الغندول جميعاً . يا إلـهي ، وكل ضابط قُدّر له أن يرتدي واحدة منها يعرف انها لا تحول دون تسرُّب المـاء ومن الذي جنى الثروة الطائلة من وراء ذلك .

انك لا تستطيع أن تُنفِذَ الماء من خلال سترة من سترات «بوربيري » . ولكني احسب ان لأحد الرجال الحقيرين البارعين غلامـه ، الآن ، في «غروتون» ، او ربما في «كانتربوري» حيث يذهب غلمان المقاولين الكبار بسبب من ان ستراتنا تَرْشح .

ومـا حلّ بزميلي الضابط الذي اختصم معـه ؟ واني لأتساءل من كان «بيني مايرز» قوات البرّ ؟ ولعله لم يكن ثمة شخص واحـد ليس غير . واغلب الظن ، كذلك قال في ذات نفسه ، أنه كان ثمـة كثير

من هؤلاء بلا ريب . إن تحدّثك على هذا النحو ، وبكل بساطة ، ليفيد انك لم تفق من رقادك بعد . فهي تقي ، برغم ذلك ، من الريح . المماطر [1] اعني . المماطر يا حماري .

واندفع الغندول بين الدعامتين القائمتين عند الضفة القصوى من القناة، وراقب الكولونيل القوم المتشحين بالسواد يغادرون العربة المطلية باللون الأسود . أهي عربة حقاً ؟ كذلك قال في ذات نفسه . أم ان العربة لا بد لها من عجلات ومن أن تُجَرّ على خط حديدي ؟

ان ايما امرىء لن يشتري أفكارك هذه ببنس واحد ، كذلك قال في ذات نفسه . ليس في هذا الصباح . ولكني رأيتها من قبلُ تساوي مقداراً ما من المال عندما شحنت «فيشات» اللعب .

ونفذا الى الجانب الأقصى من المدينة ، الجانب الذي واجه ، آخر الأمر ، شاطيء البحر الآدرياتي ، والذي كان هو يؤثره بالحب . وكان يسير في احد الأزقة الضيقة ، وكان يعتزم ان لا يتتبّع ارقام الشوارع الشمالية والجنوبية ، اذا جاز التعبير ، التي اجتازها وأن لا يحصي الجسور ثم يحاول ان يوجّه نفسه بحيث ينتهي الى السوق من غير ان يجد نفسه في بعض الطرق غير النافذة .

كانت لعبة تلعبها ، كما تعوّد بعض النـاس ان يلعبوا «الكانفيلد» [2] المزدوج او أياً من ألعاب الورق التوحّدية . ولكنها تتميز بتحركك وأنت تقوم بها . وبأنك تنظر خلالها الى البيوت ، والى الشوارع التي تكتنفها الاشجار من جانبيها ، والى الدكاكين ، والى المطاعم Trattorias والى قصور «البندقية» العتيقة فيما أنت تمشي . واذا كنت تحب مدينة

---

١ – جمع ممطر ، وهو المعطف الواقي من المطر ،

٢ – لعبة ورق يلعبها لاعب واحد . (المعرب) .

البندقية فليس من ريب في أنها لعبة ممتازة .

انها ضرب من «التجوّل المتوحّد» ، وما تكسبه منه هو ابتهاج عينك وفؤادك . فإذا ما انتهيت الى السوق ، على هذا الجانب من المدينة ، من غير أن تجد نفسك في وضعٍ حرج فعندئذ تكون قد كسبت الجولة . ولكن عليك ان لا تجعلها سهلة اكثر مما ينبغي ، وأن لا تَعُدّ البتة .

وعلى الجانب الآخر من المدينة كانت اللعبة تقتضيه أن يبدأ التجول من فندق غريتي وان يصل الى «الريالتو» من طريق «الفوندامانت نووف» Fondamente Nuove من غير ان ترتكب ايّ خطأ .

وعندئذ كان في استطاعتك ان تتسلق الجسر ، وان تعبره ، وتهبط الى السوق . لقد أحب السوق اكثر من اي شيء آخر . كان هو اول موطن يقصد اليه كلما زار مدينة من المدن .

وفي تلك اللحظة بالذات سمع الشابين خلفه يتحدثان عنه . لقد عرف ، من صوتها ، انهما كانا شابين ، ولم يلتفت الى الوراء ، ولكنه أصغى في انتباه بسبب من المسافة الفاصلة ، وانتظر ريثما يبلغ المنعطف المثالي لكي يراهما في ما هو ينعطف حوله .

انهما ماضيان الى عملهما ، كذلك قرر في ذات نفسه . لعلهما فاشيستيان سابقان ، او ربما كانا شيئاً آخر ، ومن يدري فلعلهما لا يتكلمان إلا عن قوة الجيش الضاربة . ولكنهما ينقلان حديثهما الآن من العموم الى الخصوص . انه لم يعد يدور على الاميركيين فحسب ، وانما اخذ يتناولني انا ايضاً ، انا نفسي : شعري الأشيب ، ومشيتي الظالعة بعض الشيء ، والحذاء العسكري العالي العنق . (ان هذا الضرب من الناس يكره الصفة العملية التي تتميز بها الاحذية العسكرية ذات الاعناق العالية . انهم يؤثرون الاحذية التي ترنّ على بلاط الشارع والتي تلمّع بصِقال

اسود متوهج .)

ان نقدهما لينصبّ على بذلتي العسكرية زاعمَيْن انها خلوٌ من الكياسة . وها هما يعبران بعد ذلك عن اطمئنانهما المطلق الى سلامتها لأني تجاوزت السن التي ينزع فيها المرء الى الأخذ بأسباب الغزل والحب .

وانعطف الكولونيل انعطافاً حاداً عند الزاوية التالية ، مدركاً ما الذي كان ينتظره والمسافة التي كانت تفصله عنهما على وجه الضبط . وحين انعطف الشابان حول الزاوية التي شكّلها « قبا » [1] apse كنيسة الـ «فراري» Frari كان الكولونيل قد توارى عن البصر . كان قد انتهى الى الزاوية غير النافذة ، خلف «قبا» الكنيسة العتيقة ؛ وفيما هما يجتازانه سمعهما يقبلان ، من صوتهما ، فأسرع في مشيه واضعاً كلتا يديه في جيبي مِمْطرهِ الخفيضين واستدار هو والممطر نحوهما ، ويداه الاثنتان في الجيبين .

ووقفا ، فنظر اليهما كليهما في الوجه ، وابتسم ابتسامته الحِدادية العتيقة البالية . ثم انه خفض بصره الى اقدامهما ، كما تنظر دائماً الى أقدام أمثالهما من الناس ، إذ انهم ينتعلون احذية شديدة الضيق ، فإذا ما خلعتَ احذيتهم تلك رأيت اصابعهم المشوهة بحكم الالتواء الزاويّ . وبصق الكولونيل على الرصيف ، ولم يقل شيئاً .

ونظر كلاهما اليه ، فقد كان كما ظنّهما منذ اللحظة الاولى ، في حقد وفي ذلك الشيء الآخر . ثم انهما انطلقا مثل « دجاجات الوادي » ، ماشيَيْن بمثل خطى «مالكٌ الحزين» الواسعة ايضاً ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، وبشيء من طيران الكروان ، وملتفتين الى الوراء في كراهية ، منتظرين ان يطلقا الكلمة الأخيرة اذا ما كانت المسافة مواتية.

من المؤسف انهما لم يكونا عشرة ضد واحد ، كذلك فكر الكولونيل.

---

١ – الموضع المدور او المتعدد الجنبات عند الطرف الشرقي من كنيسة . (المعرب)

ولقد كان من الجائز عندئذ ان يعمدوا الى القتال . ان عليّ ان لا الومها، ذلك بأن جماعتها قد هزمت في الحرب .

ولكن مسلكها لم يكن صالحاً البتة بالنسبة الى رجل في رتبتي وسني . والى هذا فلم يكن من الذكاء ان يظنّا ان جميع الكولونيلات البالغين من العمر خمسين عاماً لا يفهمون لغتها . لا ، ولم يكن منا لذكاء ان يظنا ان الجنود القدامى في سلاح المشاة لن يقاتلوا في مثل هذه الساعة من الصباح بهذه النسبة البسيطة ، نسبة اثنين ضد واحد .

اني لأكره أن اقاتل في هذه المدينة التي أحب اهلها . وخليق بي ان أتفادى ذلك . ولكن ألم يكن في ميسور هذين الشابين الرديئي الثقافة ان يدركا بأي ضرب من الحيوان كانا يحتكان ؟

ألا يعرفان كيف يتعين على المرء ان يمشي في تلك الطريق ؟ ألا يعلمان فوق ذلك ، أياً من تلك الأمارات الأخرى التي يتكشّف عنها المقاتلون تكشّفاً لا لبس فيه كما تنبئك يدا صياد السمك انه صياد سمك من الأخاديد الناشئة عن الجراح التي يُحدثها الخيط فيها ؟

صحيح انها لم يريا غير ظهري ورجليّ وحذائي . ولكنك قد تعتقد أنها ربما حزرا من الطريقة التي يتعين على المقاتلين ان يصطنعوها في المشي . ومن يدري ، فلعل المقاتلين ما عادوا يصطنعون تلك الطريقة . لا ، لقد حزرا ذلك عندما أتيح لي ان التفت اليها وافكر . إقتلِعْ الرجلين كليهما واشنقها ، فأنا اعتقد أنها فهما . لقد فهما في وضوح بالغ .

وكم تساوي حياة المرء على اية حال ؟ عشرة آلاف دولار اذا كانت قيمة تأمينه مدفوعة كلها في جيشنا ولكن ، يا للجحيم ، اية علاقة لهذا بما انا فيه ؟ اوه ، نعم ، لقد كان ذلك هو الموضوع الذي استغرقت في التفكير فيه قبل ان يبرز الغِرّان الحقيران . ما اضخم الاموال التي وفرتها على حكومتي ، في زماني حين كان رجال من مثل

بيني مايبرز في المذود .

أجل ، كذلك قال ، وكم خسّرتها في الـ «شاتو» ، في ذلك العهد ، بمعدل عشرة جنيهات لكل جندي . حسناً ، ان أحداً لم يفهم ذلك البتة فهماً حقيقياً باستثنائي أنا ، في ما أحسب ، وليس ثمة ما يدعو الى إنبائهم بذلك الآن . فقائدك العام يدوّن الأشياء ، في بعض الاحيان ، بوصفها «ثروات حرب» . وهناك في الجيش يعرفون ان امثـــال هذه الأشياء لا بد ان تحدث . انت تؤديها ، وفقاً للأوامر ، وبفاتورة جزّار ضخمة ، فيعتبرك القوم بطلاً .

يا للمسيح ! اني لأكره فاتورة الجزار الضخمة ، كذلك قال في ذات نفسه . ولكنك تتلقى الأوامر ، وإن عليك أن تضعها موضع التنفيذ . انها الاخطاء التي لا فائدة من الاضطجاع معها . ولكن مـــا الحكمة ، بحق الجحيم ، من الاضطجاع معها بأية حال ؟ ان ذلك لم يعد على احد ، في أيما يوم ، بفائدة . ولكن في استطاعتها من غير ريب ان تدب الى كيس من الاكياس احيـــاناً . إن في استطاعتها ان تدب وتبقى هناك معك .

طب نفساً ، ايها الغلام ! كذلك قال الكولونيل مخاطباً ذاتــه . تذكـر انك كنت تملك مالاً كثيراً عندما تصديت للقتال في تلك المعركة ولقد كان من الجائز ان تجرّد من كل شيء لو خسرتها ، انك لم تعـد قادراً البتة على القتال بيديك هاتين ، ولم يبق لديك أي سلاح .

اذن اطرحْ هـذه الكآبة ، ايها الغلام ، او ايها الرجـل ، او ايها الكولونيل ، او ايها الجنرال المفلس . لقد كدنا ان نصل الى السوق؛ الآن ، ولقد بلغْتَها من غير ان تنتبه الى ذلك تقريباً .

ثم اضاف : ان عدم الانتباه تقريباً شيء رديء .

٢٢

لقد احب السوق . كان جزءٌ كبير منها مكتظاً متشعّباً الى عدة شوارع جانبيّة حاشدة ، وكانت مزدحمة الى درجة من العسير عليك معها ان لا تدفع الناس بالمنكبين ، في غير تعمّد . وكلما توقفتَ لترى ، او تشتري ، او تُعجب ، شكّلتَ «جزُيرة مقاومة [1]» ilot de resistance ضدّ تدفق سيل المشترين الصباحي .

واحب الكولونيل ان يتأمل ضروب المربيات والجبن المركوم عالياً واللقانق الكبيرة . إن الناس في ارض الوطن يحسبون «المورتاديلا» مقانقة ، كذلك قال في ذات نفسه .

ثم انه قال للمرأة التي في الكشك : « دعيني أذوق من ذلك اللقانق ، اذا سمحتِ . شريحة صغيرة ليس غير . »

فقطعت له شريحة رقيقة ، رقيقة كالورق ، في شراسة ومودّة . وحين ذاقها الكولونيل وجد فيها نكهة اللحم الحقيقيـــة نصف الداخنة المتبّلة بالفلفل الأسود ... نكهـــة لحم الخنازير التي تغذّت بثمار البلوط في الجبال .

- « سوف آخذ رَبع كيلو . »

كانت موائد الغداء التي يمدّها البارون تحت سقائف القنص ذات طابع

---

١ - جزيره صغيرة

اسبارطي[1] ، وهو طابع احترمه الكولونيل ، اذ كان يعلم انــه ليس ينبغي لأحد ان يُسرف في الطعام أثناء الصيد . ولكنه استشعر ، برغم ذلك ، ان من الخير له ان يعزّز الغداء بهذه اللقانقة ، وأن يتقاسمها مع السواريّ ومتلقّف الطرائد . وقد يقدم شريحة الى « بوبي » ، كلب القنص ، الذي سوف يرتدّ الى مخبأه مبللاً ، مرات عديدة ، مفعما – ما يزال – بالحماسة ولكنه مرتعدٌ من شدة البرد .

– « اهذا افضل ما عندك من اللقانق ؟ » كذلك سأل المرأة . « اليس لديك ايما صنف غير معروض ... ايما صنف محفوظ للزبائن الافضل والأشد ثباتاً ؟ »

– « هذه هي اللقانق الفضلى . ان ثمة ضروباً كثيرة منها ، كما تعلم . ولكن هذه هي الفضلى . »

– « اذن اعطيني ثُمن كيلو من لقانق مغذية جداً ولكنها غير مُتَبَّلة بكثير من الفلفل . »

فقالت : « عندي من ذلك الصنف . انه حديث العهد بعض الشيء ، ولكنه كما وصفت تماماً . »

وكانت هذه اللقانقة من اجل «بوبي» .

ولكنك لا تعلن انك تشتري اللقانق من اجل كلب ، في ايطالية ، حيث الجريمة العظمى هي ان تُعتبر مخبولاً وحيث يذوق كثير من الناس طعم الجوع . ان في ميسورك ان تقدم لقانقة غالية الى كلب امام رَجل يكدح كسباً للقوت ويعرف ما يقاسيه الكلب في الماء حين يكون الجو بارداً . ولكنك لا تشتريها ، وانت تنصُّ على غرضك من امتلاكهـا ، إلا اذا كنت مخبولاً ، او صاحب ملايين ربحها من الحرب أو مما بعدها .

ودفع الكولونيل ثمن الرزمة المغلفة ، وواصل سيره في السوق مستنشقاً

١ – نسبة الى اسبارطة ، والمراد انها تتسم بسمة البساطـــة والتقتير . (المعرب)

عبق البنّ المحمص ، ناظراً الى مقدار الدهن الذي على كل ذبيحة من الذبائح في القسم الخاص بالجزارين ، وكأنه يستمتع بآثار الرسامين الهولنديين ، الذين لا يتذكر اسماءهم أحد ، والذين رسموا في تفصيل يتّسم بالكمال ، جميع الاشياء التي تُصيدُها أو جميع الأشياء القابلة للأكل .

ان السوق ، ايّ سوق ، هي أقرب الاشياء الى متحف جيد كالـ «برادو» Prado أو كالاكاديمية Accademia الآن ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .

وسلك طريقاً مختصرة فألفى نفسه في سوق السمك .

وفي السوق كان «جراد البحر» الضخم الرمادي الضارب الى الخضرة ، بلونه الأضافي الارجوانيّ المحمَرّ الذي يؤذن بموته في الماء الغالي ... كان «جراد البحر» هذا منشوراً على ارضية الشارع الحجرية الزّلقة أو ممدّداً في سلالِهِ . لقد اصطيدت كلها بالخديعة والغدر ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، وضُربت براثنها حتى الموت .

وكان ثمة «سمك موسى» الصغير ، وكان ثمة ايضاً قليل من سمك «البَكورة» [1] و «البينيث» [2] . وهذا الضرب الاخير ، كذلك فكّر الكولونيل ، يبدو أشبه برصاصات زَوْرقية الأذناب ، وهو جليلٌ في موته ذو عين هائلة كعيون السمك الاوقيانوسي .

إنها لم تُجعل لكي تُصطاد إلا بسبب شرَهِها . إن سمك موسى المسكين ليوجَدُ في المياه الضحلة لكي يغذي الانسان . ولكن هذه الرصاصات الهائمة على وجهها ، زرافات زرافات ، تحيا في المياه الزرقاء، وترتحل مجتازة الاوقيانوسات كلها ، والبحار كلها .

إن أفكارك هذه لتستحق مكافأة مقدارها خمسة سنتات ، كذلك

---

١ - البكوره ، albicore ، سمكة بحرية من فصيلة السقمري . (المعرب)
٢ - البينيث ، benito سمك استوائي من فصيلة التونة . (المعرب)

قال الكولونيل في ذات نفسه . دعنا نرى ما عندهم ايضاً .

كان ثمة كثير من الانكليس ، الحيّ ، الفاقد ثقته بأنكليسيّته . وكان ثمة براغيث بحر (قُريدس) رائعـــة تستطيع ان تؤلف «سكامبي بروشيتو» Scampi brochetto مشكوكةً ومشوّية في أداة شبيهـــة بسيف مستدقّ الطرف ، ذي حدّين ، يمكن ان تُصطنع «معولاً» بروكلينيــاً لتحطيم الثلج . وكان ثمـــة سمك أرْبيان متوسط الحجم ، رماديّ متلألىء ، ينتظر دوره ايضاً في الماء الغالي وفي الخلود لكي تتمكن أغلِفَتُها المقشورة من العوم في سهولة ويسر عند انحسار الماء بعد المدّ في القناة العظمى .

ان سمكة الاربيان السريعة ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، «بملامسها» [1] التي تفوق شارَبيْ ذلك الاميرال الياباني العجوز طـــولاً ، لتجيء الى هنا الآن كي تموت لمصلحتنا . اوه ، ايها الاربيان المسيحي ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، يا أمير التراجع ، بدائرة استخباراتك الكامنة في هذين السوطَيْن الخفيفين ، لماذا لم يلقّنوك شيئاً عن الأشراك وأن الاضواء خطِرة ؟

لا ريب في أن هفوةً ما قد ارتُكبت ، كذلك فكر الكولونيل.

وراح الآن ينظر الى القِشْريات الصغيرة الكثيرة ، وسمك بطلينوس ذي الحدّ الشبيه بحد الموسى ، والذي يتعين عليك ان لا تأكله إلا نيئاً اذا كنت ملقحاً ضد التيفوئيد منذ قريب ، وسائر الأشياء الصغيرة الشهية الاخرى.

واجال طرْفه في هذا كله ، متوقفاً ليسأل احد الباعة من أين اصطِيد سمك بطلينوس الذي يعرضه للبيع . فأجابه انه اصطيد من موطن طيّب بعيد عن البواليع والمجارير ، فسأله الكولونيل أن يشقّ له ستّاً من تلك الأسماك .لقد شرب العصير ، واخرج السمكات من أغلِفتها شاقاً القشور بالمدية

---

[1] – الملامس ، ومفردها ملمس ، هي الشعيرات التي تتلمس بها بعض الحشرات والاسماك طريقها . (المعرب)

المعقوفة التي قدّمها الرجل اليه . وكان الرجل قد قدّم المدية اليه لأنه عرف ، بالتجربة ، ان الكولونيل يذهب في شق قشور السمك الى ابعد مما عُلـّم هو أن يشقـّها .

ودفع اليه الكولونيل القروش المعدودة التي كانت ثمناً لهـــا ، والتي كانت من غير ريب اكثر بكثير من القروش المعدودة التي نالها اولئك الذين اصطادوها . وقال الكولونيل في ذات نفسه : يتعين عليّ الآن ان أرى سمكات النهر والقناة ، وأن انقلب راجعاً الى الفندق .

٢٣

ووصل الكولونيل الى ردهة فندق « غريتي بالاس » . كان قد دفع الى غناديليّيه أجرهما ، وصرفهما . ولم يكن ثمة الآن ، داخل جدران الفندق ، ريحٌ ما .

كان الاتيان بالغندول من السوق الى القناة العظمى قد احتاج الى جهود رجلين اثنين . وكان كلاهما قد بذلا جهداً شاقاً ، ولقد دفع اليهما ما استحقه ذلك الجهد ، واكثر بعض الشيء .

وسأل البواب الذي كان الآن منصرفاً الى أداء مهامّه : « هل اتصل بي أحدٌ بالتلفون ؟ »

وكان بواب الفندق نشيطاً ، خفيف الحركة ، صارم الوجه ، ذكياً ، لطيفاً – دائماً – في غير ذلّة . وكان يحمل مفاتيح مكتبه المتصالبة على طيّة صدر سترته الرسمية الزرقاء في غير تباهٍ . لقد كان هو البواب . وانها لمرتبة شبيهة جداً بمرتبة الكابتن ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . إنه ضابط ، لا « جنتلمان » . اجعله رقيباً (سرجان) أول في الايام الغابرة . مع فارق واحد ، هو انه يُعنى بالنحاس الأصفر .

– « لقد تلفنت سيدتي مرتين » ، قال بواب الفندق بالانكليزية . أيما امم يجب ان نطلقه على تلك اللغة التي نتكلمها كلنا ، كذلك فكّر

الكولونيل . أبْقِ لها نعت « الانكليزية » . ذلك كل ما تركوا لنا من حرية ، تقريباً . ويجب ان يجاز لهم الاحتفاظ باسم اللغة . ومن يدري ، فلعل كريبس [1] ان يقنّن ذلك عما قريب .

وقال لبواب الفندق : « ارجوك ان تَصِلني بها في الحال . »

وشرع البواب يدير قرص التلفون .

وقال : « في استطاعتك ان تتكلم من هنـــاك . لقد امّنت لك الاتصال بها . »

– « إنك لسريـع . »

– « من هناك » ، كذلك قال بواب الفندق .

وفي داخل الكشك ، رفع الكولونيـــل السماعة ، وقال على نحو اوتوماتيكي : « الكولونيل كانتويل يتكلم . »

فقالت الفتاة : « لقد تلفنت مرتين ، يا ريتشارد ، ولكنهم اوضحوا لي أنك غادرت الفندق . اين كنت ؟ »

– « في السوق . كيف أنت يا حلوتي ؟ »

– « لا أحد يسمع على هذا التلفون في هذه الساعة . أنا حلوتك . أياً مَنْ كانت هذه . »

– « انتِ . هل نمت نوماً عميقاً ؟ »

– « كان ذلك اشبه بالتزلج في الظلام . ليس تزلجاً حقيقياً ، ولكنه ظلام حقيقي . »

– « هكذا يجب ان يكون . لماذا افقتِ باكراً الى هذا الحد ؟ لقد روّعتِ بواب فندقي . »

---

١ – يقصد السير ستافورد كريبس الوزير البريطاني ١٨٨٩ – ١٩٥٢ (المعرب)

ـ « احب ان اسألك ، اذا كان سؤالي هذا ليس من النوع الذي لا يليق بعذراء ، متى نستطيع ان نلتقي ، وأين ؟ »

ـ « حيث تشائين ومتى نشاء . »

ـ « ألا تزال احجار الزمرد في جيبك ، وهل اسعفتك « الآنسةُ اللوحةُ » بشيء ما ؟ »

ـ « نعم في ما يتصل بالسؤالين معاً ، فالاحجـار مزرَّرٌ عليها في جيبي الأيسر الأعلى . ولقد تجاذبت اطراف الحديث مع « الآنسة اللوحة » في ساعة مبكرة من الصباح ، ولقــد جعلتِ كل شيء أهوَنَ عليَّ وأيسر بكثير . »

ـ « هل تحبّها اكثر مني ؟ »

ـ « لم أصبح امرءاً شاذاً بعدُ . ربما كان هذا تفاخراً . ولكنها حلوة . »

ـ « هل تؤثرين أن نتناول طعام الصباح في الـ « فلوريان » على الجانب الأيمن من الساحة ؟ لا ريب في ان الساحة سوف تكون مغمورة بالماء ، ولسوف يكون النظر اليها شيئاً ماتعاً . »

ـ « سأكون هناك في مدى عشرين دقيقة اذا اردتني ان اذهب . »

ـ « انا اريدك ان تذهبي ، » كذلك قال الكولونيل ، وأقفل الخط .

واذ غادر كشك التلفون استشعر اعتلالاً صحياً مفاجئاً ، ثم أحس وكأن الشيطان قد احتجزه في قفص حديدي ، مصنوع على شكل رئة حديدية او عذراء حديدية . ومشى ، رماديَّ الوجه ، الى منضدة البواب وقال ، بالايطالية : «دومينيكو ، ايلو ، هل تستطيع ان تأتيني بكأس ماء من فضلك ؟ »

فمضى البواب ليأتيه بالكأس ، وانحنى هو على الطاولة التماساً للراحة . لقد استراح في لا مبالاة ، ومن غير توهم . ثم ان البواب رجع حاملاً

كأس الماء ، فتناول الكولونيل اربعة اقراص من ذلك النوع الذي يأخذ الناس منه قرصين اثنين ، وواصل استراحته بمثل لامبالاة الصقر حين يستريح .

وقال : «دومينيكو» .

– « نعم . »

– « ان لديّ ههنا شيئاً في ظرف تستطيع ان تضعه في الصندوق الحديدي . وفي امكانك ان تسلمه اليّ اذا طلبتُهُ بشخصي ، او من طريق الكتابة ، او الى الشخص الذي وَصَلْتَني به تلفونياً منذ لحظات . هل تريد أن يُشفع ذلك بطلب خطي أيضاً ؟ »

– « لا . هذا غير ضروري . »

– « وانت ايها الغلام ؟ انت حيٌّ لا يموت ، أليس كذلك ؟ »

فقال له البواب : « هذا صحيح الى حد بعيد . ولكني سوف أنصّ على رغبتك كتابياً ، ومن بعدي يجيء المدير ، والمدير المساعد . »

فأقره الكولونيل على ذلك قائلاً : « كلاهما رجل طيب . »

– « الا تريد ان تجلس يا زعيمي ؟ »

– « لا ، ومن الذي يجلس غير الرجال والنساء في فنادق سن اليأس ؟ هل تجلس أنت ؟ »

– « لا . »

– « في ميسوري ان استريح على قدميّ ، أو وأنا مستندٌ الى شجرة لعينةٍ . إن مواطنيّ يجلسون ، او يضطجعون ، او يسقطون على الارض . أعطِهم شيئاً من بسكويت الطاقة لوضع حد لنشيجهم . »

كان يسرف في الكلام ليستعيد ثقته بنفسه في سرعة .

– « وهل لديهم بسكويت طاقةٍ فعلاً ؟ »

– « من غير ريب . إن له لميزة تحول بينك وبين الغضب والاهتياج .

انه أشبه بالقنبلة الذرية ، إلا انه يفجر على نحو ارتجاعي . »

– « انا لا استطيع ان اصدّق هذا . »

– « ان لدينا أفظع الأسرار العسكرية التي أفضت بها في ايما يوم من الأيام زوجة جنرال الى زوجة جنرال . ومفرقعات الطاقة هي أقلها شأناً . وفي المرة القادمة سوف نُمطر « البندقية » كلها بالتسمم اللقانقي من ارتفاع مقداره ٥٦٬٠٠٠ قدم . وليس في هذا أية غرابة ، » كذلك أوضح الكولونيل . « إنهم يعطونك داء الجمرة الخبيثة وأنت تعطيهم التسمم اللقانقي . »

– « ولكن هذا سوف يكون رهيباً . »

فقال له الكولونيل مؤكّداً : « إنه سوف يكون أسوأ من ذلك . هذا ليس بسرّ يُخشى ان يتناهى الى العدو . فقد نشر ذلك كله على الملأ . وفيما هو آخذٌ سبيله ، تستطيع ان تسمع مارغاريت ، اذا احسنت ادارة إبرة الراديو ، تتغنى بأغنية « عَلمَ الولايات المتحدة الاميركية الوطني » . واحسب أن في الامكان تسوية ذلك . أما الصوت فلست اميل الى القول إنه عظيم . ليس كما نعرف الاصوات ، نحن الذين سمعنا الاصوات الرخيمة في أيامنا . ولكن كل شيء زائف الآن ، وفي استطاعة الراديو ان يصنع الصوت ، تقريباً . و « عَلمَ الولايات المتحدة الاميركية الوطنية » معصوم حتى من جهالة الجهلاء . »

– « هل تظن انهم يمطروننا بشيء هنا ؟ »

– « لا ، إنهم لم يفعلوا ذلك في ايما يوم مضى . »

فقال الكولونيل (الذي عاد الآن جنرالاً ذا اربعة نجوم ، بسبب من غيظه وألمه المبرّح وحاجته الى الثقة بالنفس ، ولكنه كان مطمئناً مؤقتاً من طريق امتصاص الاقراص) : « الى اللقاء Ciao يا دومينيكو . »

وغادر فندق غريتي .

وتصوّر أنه في حاجة الى اثنتي عشرة دقيقة ونصف دقيقة لبلوغ الموطن الذي ربما بلغته حبيبته الحقيقية متأخرةً بعض الشيء . وانشأ يطوي المسافة في احتراس ، وبالسرعة التي يتعين عليه اصطناعها في المشيء . كانت الجسور كلها كعهدها من قبل .

٢٤

واستوت حبيبته الحقيقية الى المائدة في الميقات الذي قالت انها سوف تصل فيه الى موطن اللقاء . كانت فاتنة كشأنها دائماً في ضياء الصباح القارس المتدفق عبر الساحة الغاصة بالناس ، وقالت : « ارجـــوك ، يا ريتشارد ؟ هل انت بخير ؟ ارجوك ؟ »

فقال الكولونيل : « من غير ريب ايتها الفتنة الرائعة . »

ـ « هل ذهبت الى جميع مَواطننا في السوق ؟ »

ـ « الى قليـــل منها ليس غير . أنا لم اذهب الى حيث يبيعون البط البري . »

ـ « شكراً لك . »

فقال الكولونيل : « على لا شيء . انا لا اذهب الى هنــاك البتة حين لا نكون معاً . »

ـ « الا تعتقد ان عليّ ان امضي معك للصيد ؟ »

ـ « لا . انا على مثل اليقين من ذلك . ولو قد كان آلفاريتو يريدك ان تكوني معنا لدعاك لمرافقتنا . »

ـ « لعله لم يدْعُني لأنه يريدني أن اكون معكم . »

ـ « هذا صحيح . » كذلك قال الكولونيل ، وتفكّر في ذلـــك

طوال ثانيتين . مم ترغبين أن يتألف فطورنا هذا الصباح ؟ »

- « الفطور تافه هنا ، وانا لا احب الساحة حين تكون مغمورة بالماء . إنها كئيبة والحمائم لا تجد موطىء قدم تحط فيه . وهي لا تكون ماتعة إلا حوالي النهاية حين يسرح الاطفال ويلعبون . ما رأيك في الذهاب وتناول الفطور في الغريتي ؟ »

– « اراغبة انت في ذلك ؟ »

– « نعم . »

– « حسن . سوف نتناول الفطور هناك . لقد تناولت أنا فطوري قبلك . »

– « فعلاً ؟ »

– « سوف آخذ بعض القهوة والارغفة الساخنة ، ولسوف ألمسها بأصابعي ليس غير . هل أنت جائعة الى حد رهيب ؟ »

فقالت صادقة : « الى حد رهيب. »

فقال الكولونيل : « سوف نعنى بفطور الصباح عناية كاملة . ولسوف تتمنين لو أنك لم تسمعي بفطور الصباح البتة . »

وفيما هما يمشيان ، والريح من ورائهما ، وشعرها يخفق خيراً مما تخفق اية راية ، سألته وهي تضغط على يده في إحكام : « الا تزال تحبني في ضياء «البندقية» الصباحي البارد القاسي ؟ الجو بارد وقاسٍ فعلاً ، أليس كذلك ؟ »

– « انا احبكِ ، والحب باردٌ وقاسٍ . »

– « لقد احببتك طوال الليل حين كنت اتزلج في الظلام . »

– « كيف تفعلين ذلك ؟ »

– « إنها الجولات نفسها مع فارق واحد هو ان الدنيا مظلمة وان الثلج داكن بدلاً من أن يكون مشرقاً . والمرء يتزلج في هذه الحال كشأنه في العادة ؛ رابطَ الجأش بارعاً . »

– « هل تزلجتِ طوال الليل ؟ لا بد ان يكون ذلك قد اشتمل على جولات كثيرة . »

– « لا . وبعد ذلك نمت نوماً عميقاً ، وأفقت سعيدة . كنت انت معي ، وكنت مستغرقاً في النوم مثل طفل . »

– « أنا لم اكن معك ، ولم اكن مستغرقاً في النوم . »

فقالت وهي تضغط على يده في قـوة : « انت معي الآن . »

– « ونكاد ان نكون هناك . »

– « نعم . »

– « هل قلتُ لكِ ، على النحو الصحيح ، إنني احبك ؟ »

– « لقد قلتَ ذلك لي . ولكنْ قلْهُ لي كرة اخرى . »

فقال : « أنا احبكِ . خذيها صريحةً ورسمية ، ارجوكِ . »

– « اني لآخذها على اية صورة تشاء ما دامت صادقة . »

فقال : « هذا هو الموقف الصحيح . أيتها الفتاة الحلوة الشجاعة الطيبة . اديري شعرك على نحو جانبيّ مرة واحـــدة عند اعلى هذا الجسر ودعيه يتهادىَ مع الريح منحرفاً . »

وكان قد تساهل فقال obliquely بـــدلاً من ان يقول ، وهـو الصواب ، obbique . »

وقالت : « هذا هيّن ميسور . هل تحبّه ؟ »

ونظر فرأى صورتها الجانبية ، ولونها الصباحي العجيب ، وصدرها ناهداً ، في الكنزة السوداء ، وعينيها في الريح ، وقال : « اجل ، أنا أحبه . »

فقالت : « إني لسعيدة جداً . »

٢٥

وفي « الغريتي » أجلسها المايسترو الأعظم الى المائدة القائمة في محاذاة النافذة التي تطل على القناة العظمى . ولم يكن ثمة أيما شخص آخر في حجرة الطعام .

كان المايسترو الأعظم مبتهجاً ونشيطاً مع الصباح . لقد تقبّل قرحتَه المِعدِية يوماً بعد يوم ، وتقَبَّلَ قلبه العليـــل بالطريقة نفسها . فحين كانت قرحته وقلبه رائقَيْن كان هو رائقاً أيضاً .

وأسرّ الى الكولونيل : « إن مواطنك المجدرر يأكل في الفراش في فندقه ؛ هكذا اخبرني زميلي . قد نستقبل بعض البلجيكيين عما قريب . « **وكان أشجع هؤلاء هم البلجيكيين** » كذلك استشهد بالقول المأثور . « إن ثمة اثنين من المتهالكين على الربح المحرّم وَفَدا من مكان لا يعلمه أحد . ولكنهما مرهقان أعظم ارهاق ، وأحسب انهما سوف يأكلان ، كالخنازير ، في حجرتهما . »

فقال الكولونيل : « تقرير ممتاز عن الوضع . مشكلتنا ، ايها المايسترو الأعظم ، هي انني اكلت في حجرتي كما يفعل الرجل المجدور وكما سوف يفعل المتهالكون على المال الحرام . ولكن هذه السيدة . »

– « الفتاة الصغيرة ، » كذلك قاطعه المايسترو الاعظم بابتسامتـــه العريضة المالئة وجهه . كان يستشعر بهجة غامرة بسبب من استقبـــاله

نهاراً جديداً بالكلية .

– « هذه السيدة البالغة الصِغر تريد فطور صباح لإنهاء فطورات الصباح . [1] »

فقال المايسترو الاعظم : « فهمتُ » ، ونظر الى ريناتا ، وتدحرج قلبه في صدره كما يفل « سمك يونس » في البحر . وانها لحركة جميلة ، وان قلة من الناس في هذا العالم فحسب ، يستطيعون ان يستشعروها وان يقوموا بها .

– « ماذا تريدين ان تأكلي يا بُنيّتي ؟ » كذلك سألها الكولونيل ، وهو يرنو الى جمالها الصباحي المبكر ، الاسمر ، غير المُرَوْتَش .

– « كل شيء . »

– « هل لك ان تعطيني بعض المقترحات ؟ »

– « الشاي بدلاً من القهوة ، وايما شيء يستطيع المايسترو الأعظم ان ينقذه من الغرق . »

فقال المايسترو الاعظم : « لن يكون ذلك انقاذاً من الغرق ، يا بُنيّتي . »

– « انا الذي ادعوها بُنيّتي . »

فقال المايسترو الاعظم : « لقد قلت ذلك في اخلاص . ان في استطاعتنا ان نُعِد بعض الكُلى المشوية مع نبات فُطر اقتلعه أُناس أعرفهم . أو زُرِع في أقبية رطبة . وفي الامكان إعداد شيء من «الأومليت» مع كمأة نبشتها خنازير من الطراز العالي . ومن الميسور تحضير شيء من لحم الخنزير المملح الكندي ، بل الوارد من كندا نفسها عند الاقتضاء . »

فقالت الفتاة مبتهجة لم تفارق غشاوة الوهم عينيها : « او من ايما مكان آخر . »

---

١ – على غرار قولهم : الحرب لانهاء الحروب ..

فقال الكولونيل في جدّ : « او من أيما مكان آخر . وأنا أعلم احسن العلم اين هو . »

ـ « أعتقد ان علينا أن نكف عن المزاح الآن ونشرع في إعداد الفطور . »

ـ « وانا اعتقد ذلك ايضاً ، ان لم يكن مثل هذا الاعتقاد غير لائق بفتاة عذراء . »

ـ « اما فطوري أنا فسيكون زجاجة من الفالبوليشيلا المروّقة . »

ـ « ولا شيء آخر ؟ »

فقال الكولونيل : «إيتني بجراية من لحم الخنزير الكندي المزعوم .»

ونظر الى الفتاة ، اذ كانا وحدهما الآن وقال لها : « كيف حالك ، يا أعز الناس ؟ »

ـ « جائعة جداً ، في ما أحسب . ولكني أشكرك لأخذك بأسباب الدماثة طوال هذه الفترة المديدة كلها . »

فقال لها الكولونيل بالايطالية : « لقد كان ذلك سهلا . »

٢٦

لقد جلسا هناك الى المائدة ، وراقبا الضياء الصباحي العاصف المتألق فوق صفحة القناة ، كان اللون الرمادي قد استحال الآن الى رمادي اصفر ، مع الشمس ، وكانت الامواج تقاوم المدّ المنحسر .

وقالت الفتاة : « ماما تقول إنها لا تستطيع ان تحيا هنا طويلاً في أيما وقت ، لأنه ليس ثمة أشجار . وهذا هو السبب الذي يجعلها تذهب الى الريف . »

ـ « هذا هو السبب الذي يجعل كل امرىء يذهب الى الريف . » كذلك قال الكولونيل : « في استطاعتنا ان نزرع بضع شجرات اذا وجدنا بيتاً ذا حديقة واسعة بعض الشيء . »

ـ « انا أحب حَوْر لومبارديا وسحر الدّلب اكثر ما يكون ، ولكني لا أزال غير مثقفة بكل ما في التعبير من معنى . »

ـ « أنا احبها وأحب شجر السرو وشجر الشُّهْبلوط ايضاً . الشهبلوط الحقيقي والشهبلوط الهندي . ولكنكِ لن تَرَيْ الاشجار أبداً ، يا بُنيّتي، حتى نذهب الى اميركا . انتظري حتى تَرَيْ صنوبرة بيضاء أو صنوبرة بونديروزا ponderosa »

ـ « هل سنراها عندما نقوم بالرحلة الطويلة ، ونقف عند جميع محطات

البنزين أو محطات الاستراحة أو أيا اسم آخر يطلقونه عليها ؟ »

فقال الكولونيل : « الأكواخ ومعسكرات السياح . ولسوف نقف عندهذه الاخرى ، ولكنا لن نبيت فيها . »

- « لشد ما اتمنى أن نتقدم بسيارتنا الى محطة استراحة ، وأن أدفع النفقات من مالي ، واسألهم ان يملأوا خزان السيارة بالبنزين ، وان يتحرّوا الزيت ، على الطريقة التي نراها في الكتب الاميركية ، أو في الأفلام . »

- « هذه محطة بنزين . »

- « واذن فما محطة الاستراحة ؟ »

- « حيث يذهب المرء ، كما تعلمين ... »

- « أوه ، » كذلك قالت الفتاة وتصرّج وجهها . « أنا آسفة . لشدّ ما اريد أن اتعلم اللغة الاميركية ، ولكني احسب اني سوف اقول اشياء بربرية كما تفعل انت ، احياناً ، في الايطالية . »

- « انها لغة هينة . وكلما امعنتِ في الاتجـاه غرباً أصبحتْ أسهل واكثر استقامةً . »

وجاء المايسترو الأعظم بالفطور فبلغتها رائحته - برغم انها لم تَفُحْ في الحجرة بسبب من الاغطية الفضية على الاطباق - في اطّراد وبوصفها رائحة لحم خنزير وكلىً مشوية ، مع الرائحة القاتمة المُكْمَدّة المنبعثة من نبات الفُطر المشويّ المضاف .

وقالت الفتاة : « انه يبدو رائعاً . شكراً جزيلاً ، أيها المايسترو الأعظم . هل يتعين عليّ ان اتكلم باللسان الاميركي ؟ » كذلك سألتِ الكولونيل . وبسطت يدها الى المايسترو الأعظم في خفة وسرعة ، بحيث

اندفعت اندفاع المُقَفّر [1] ، وقالت : « ضعها هناك ، ايها الصديق . هذا الطعام grub ممتاز . »

فقال المايسترو الاعظم : « اشكرك ، يا سيدتي . »

ـ « هل كان يتعين عليّ ان أقول chow بدلاً من grub ؟ [2] » كذلك سألت الفتاة الكولونيل .

ـ « إنهما في الواقع متعاوضتان [3] . »

ـ « هل كانوا يتكلمون هكذا ، هناك في الغرب ، عندما كنتَ صبياً ؟ ما الذي كنتم تقولونه عند فطور الصباح ؟ »

ـ « كان الطاهي يسكب الطعام او يقدّمه الينا . وكان يقول : تعالوا كُلُوه ، يا ابناء العاهرات ، وإلا ألقيته في صندوق القمامة . »

ـ « يجب ان اتعلم هذا لترديده في الريف . ففي بعض الاحيان حين يكون السفير البريطاني وزوجته البليدة يتناولان طعام العشاء على مائدتنا سوف اعلمّ النادل ، الذي سيعلن ان الطعام اصبح جاهزاً ، ان يقول : تعالوا كلوه ، يا ابناء العاهرات ، وإلا ألقيته في صندوق القمامة . »

« خليق به عندئذ ان يُنقص من القيمة . وعلى اية حال ، فسوف تكون تجربة ماتعة . »

ـ « علّمني شيئاً استطيع ان أقوله ، باللسان الاميركي الخالص ، لنرجل المجدور اذا ما اقبل . اني سوف اهمس ذلك في اذنه وكأننا نتواعد على لقاء ، كما كانوا يفعلون في الأيام الخالية . »

---

١ ـ المقفر ، سيف الطعن أو « الشيش » .
ـ chow و grub لفظتان عاميتان بمعنى « طعام » . (المعرب)
٣ ـ اي تحل احداهما محل الاخرى وتكون عوضاً عنها .

- « يتوقف ذلك على سيماء وجهه . فإذا كان شديد الاكتئاب استطعت ان تهمسي في اذنه قائلة : اسمع يا ماك ، لقد اجّرت نفسك للظهور بمظهر الرجل الصلب القاسي ، اليس كذلك ؟ »

- « هذا رائع ، » كذلك قالت ، وكررته بصوت كانت قد تعلّمته من إيدا لوبينو Ida Lupino . « هل استطيع ان اقوله للمايسترو الاعظم ؟ »

- « طبعاً . لِمَ لا . أيها المايسترو الاعظم ! »

واقبل المايسترو الاعظم وانحنى الى امام في انتباه بالغ .

فقالت له الفتاة ، في نبرة جافة : « اسمع ، يا ماك . لقد أجّرت نفسك للظهور بمظهر الرجل القاسي ، أليس كذلك ؟ »

فقال المايسترو الاعظم : « لقد فعلتُ ، من غير ريب . أشكرك لأنك عبّرتِ عن ذلك بمثل هذه الدقة كلها . »

- « اذا أقبل ذلك الرجل ، وأردتِ أن تتحدثي اليه بعد ان يكون قد تناول طعامه فليس عليك إلا ان تهمسي في اذنه : امسح البيض عن ذقنك ، يا جاك ، وتصدّرْ وطِرْ في الحال . »

- « سوف اتذكر هذا واتمرن عليه في البيت . »

- « ما الذي سنفعله بعد الفطور ؟ »

- « هل نصعد الى الدور العلوي ونلقي نظرة على اللوحة ونرى ما اذا كان لها اية قيمة - أعني اية فائدة - في ضوء النهار ؟ »

ففال الكولونيل : «نعم» .

٢٧

وفي الدور الاعلى كانت الحجرة قد رُتبت . فسُرّ الكولونيل ، اذ كان قد توقّع أن يجد الفوضى وعدم الترتيب يسودان المكان .

وقال : قفي بجانبها في الحال . » ثم تذكّر ان يضيف : «ارجوكِ.»

ووقفت بجانب اللوحة الزيتية ، ونظر اليها من حيث كان قد نظر اليها الليلة البارحة .

وقال : « ليس ثمة مجال للمقارنة ، طبعاً . أنا لا اعني الشبه . الشبه ممتاز . »

ـ « هل كان من المفروض ان يكون ثمة مجال للمقارنة ؟ » كذلك سألته الفتاة ، وأمالت رأسها الى الوراء ووقفت هناك مع كنزة «اللوحة» السوداء .

ـ « طبعاً لا . ولكني الليلة البارحة ، ومع ارتفاع الضحى من هذ اليوم ، تحدثت الى اللوحة وكأنها أنتِ . »

ـ « كان ذلك لطفاً منك ، وهو يُظهر ان اللوحة قد كان لها بعض النفع . »

كانا مضطجعين الآن على السرير ، وقالت الفتاة له : « ألا تغلق النوافذ ابداً ؟ »

ـ « لا . هل تغلقينها انت ؟ »

ـ « حين يهطل المطر فقط . »

ـ « الى ايّ حد يشبه أحدنا الآخر ؟ »

ـ « لست ادري . ان الايام لم تتح لنا قط اي فرصة لاكتشاف ذلك . »

ـ « الايام لم تتح لنا قط فرصة متكافئة . ولكنها أتاحت لي انا فرصة كافية لمعرفة ذلك . »

ثم تساءل الكولونيل : « وحين تعرف ، ما الذي تفوز به بحق الجحيم ؟ »

ـ « لست أدري . شيء افضل مما هو كائن ، في ما احسب . »

ـ « من غير ريب . ان علينا ان نسعى في سبيل ذلك . انا لا اؤمن بالأهداف المحدودة . ولكنك مضطر الى ذلك ، في بعض الأحيان . »

ـ « ما هو أساك الاكبر ؟ »

فقال : « أوامر الآخرين . وما أساك أنتِ ؟ »

ـ « أنتَ . »

ـ « لست اريد ان اكون أسىً . لقد كنت ابن عاهرةٍ بائساً في كثير من الأحيان ، ولكني لم اكن في أيما يوم من الايام مصدر أسىً لأحد . »

ـ « حسناً ، انت الآن اساي . »

فقال : « حسن ؛ سوف نتقبل المسألة على هذا النحو . »

ـ « جميلٌ منك ان تتقبلها على هذا النحو . انت لطيف جداً هذا الصباح . انا خجلة جداً من هذا الوضع . ارجوك ان تضمني اليك ضماً محكماً وان لا نتحدث ، أو نفكر ، كيف كان يمكن لهذا الوضع أن يكون غير ما هو عليه . »

ـ « هذا واحد من الاشياء القليلة التي اعرف كيف اقوم بها يا بنيتي . »

ـ « انت تعرف اشياء كثيرة ، كثيرة جداً . لا تقل شيئاً كهذا . »

فقال الكولونيل : « من غير ريب . انا اعرف كيف أقاتل مهاجماً

وكيف اقاتل منكفئاً وأي شيء آخر ؟ »
ـ « ولك علم بالصُوَر ، وبالكتب ، وبالحياة . »
ـ « هذا هين . ليس عليك إلا ان تنظري الى الصّوَر في غير ما هوىً ، وان تقرإي الكتب بأقصى الانفتاح الذي يستطيعه عقلك ، وان تعيشي الحياةَ . »
ـ « لا تنزع سترك العسكرية ، ارجوك . »
ـ « حسن . »
ـ « انت تفعل ايما شيء حين اقول **ارجوك** . »
ـ « لقد فعلت اشياء بدونها . »
ـ « ليس في كثير من الاحيان . »
ـ « صحيح » ، كذلك اقرّها الكولونيل على ما ذهبت اليه . **ارجوك** لفظة حلوة . »
ـ « ارجوك ، ارجوك ، ارجوك . »
ـ « Per piacere [1] . انها تعني : من أجل المتعة . لشد ما أتمنى لو نتكلم الايطالية دائماً . »

ـ « في استطاعتنا ان نفعل ذلك في الظلام . على الرغم من ان ثمة أشياء يحلو قولها بالانكليزية اكثر . » وهنــا استشهدت بهذه الاقوال : « انا احبك حبّي الاخير الصادق الأوحد . عندما نوّر البنفسج آخر الأمر في الفناء المحيط بالباب . وخارج المهد المترنح ترنحــاً لا يعرف نهاية . وتعالوا كلوه ، يا ابناء العاهرات ، وإلا ألقيته في صندوق القمامــة . انت لا تريد أن تسمع هذه الاقوال في لغــات اخرى ، اليس كذلك يا ريتشارد ؟ »
ـ « لا . »

---

١ تعبير ايطالي يؤدي معنى « ارجوك » ، أو « اذا راق لك ذلك » (المعرب)

ـ « قبّلني مرة اخرى ، ارجوك . »

ـ « هذه الـ « **ارجوك** » غير ضرورية »

ـ « اغلب الظن اني سوف انتهي ، انا نفسي ، الى ان اكون مثل « ارجوك » غير ضرورية . والشيء الحسن في اقتراب أجَلِكَ هو أنك لا تستطيع ان تفارقني . »

فقال الكولونيل : « هذه لاذعة بعض الشيء . إفرضي مراقبة يسيرة على فمك الجميل لكي لا ينطق بمثل هذا الكلام . »

فقالت : « إني لآخذ بأسباب اللذع حين أجدك لاذعاً . انت لا تريدني أن اكون غير ذلك بالكلية ؟ »

ـ « أنا لا أريدك ان تكوني غير ما انتِ البتة ، وإني لأحبك حباً صادقاً ، ونهائياً ، الى الأبد . »

ـ « انت تقول اشياء ظريفة في وضوح بالغ احياناً . ما الذي حدث بينك وبين زوجتك ، اذا جاز لي أن اسأل ؟ »

ـ « كانت امرأة طموحاً جـــداً ، وكنت أقيم خارج البيت اكثر مما ينبغي . »

ـ « تعني أنها غادرته بسائق من الطموح ، يوم وجدتك انت تغادرُهُ بسائق من الواجب ليس غير ؟ »

ـ « بلا ريب ، » كذلك قال الكولونيل ، وحاول ان يتذكّر في غير مرارة ، ما استطاع الى ذلك سبيلا . « كانت تتمتع بطموح اعظم من طموح نابوليون ، وبموهبة تقارب موهبـــة فتاة متفوقة في مدرسة ثانوية . »

فقالت الفتاة : « أياً مــا كان معنى ذلك . ولكن دعنا لا نتكلم عنها . انا آسفة لطرحي هذا السؤال . لا ريب في أنها محزونة لاضطرارها

الى ان لا تكون معك . »

ـ « لا . كانت من العُجْب بحيث لا تعرف الحزن ابـــداً ، ولقد تزوجت مني لكي تصبح لها قـــدم راسخة في دوائر الجيش ، ولكي تقوم باتصالات افضل في سبيل مـــا اعتبرته حرفتها أو فنّها . لقـد كانت صحافية . »

فقالت الفتاة : « ولكن الصحافيين مخيفون . »

ـ « هذا صحيح . »

ـ « ولكنْ كيف جاز لك ان تتزوج امرأة صحافية تصرّ على الاحتفاظ بصفتها هذه بعد الزواج ؟ »

فقال الكولونيل : « لقـــد قلت لك اني ارتكبت في حياتي بعض الأخطاء . »

ـ « دعنا نتحدث عن شيء سائغ . »

ـ « حسن . »

ـ « ولكن ذلك كان رهيباً . كيف تأتّى لك أن تُقدِم على شيء مثل هذا ؟ »

ـ « لست ادري . في استطاعتي أن أسهب لك في شرح ذلـك ، ولكنْ دعينا نطّرِح هذا الموضوع »

ـ « اطّرِحْهُ من فضلك . ولكني لم اكن لأتوهم من قبلُ قط أنه كان شيئاً رهيباً الى هذا الحد . انك لن تقدم على شيء مثل هذا الآن ، أليس كذلك ؟ »

ـ « أنا أعِدُك ، يا حبيبتي . »

ـ « ولكنك لن تكتب اليها ابد الدهر ؟ »

ـ « لا ، من غير ريب . »

— « ولن تحدّثها عن حبنا لكي يكون في ميسورها ان تكتب عنه ؟ »

— « لا . لقد حدثتُها ذات مرة عن اشياء ، فكتبَتْ عنها . ولكن ذلك كان في بلاد اخرى . والى هذا ، فالبغيّ قد ماتت . »

— « وهل ماتت فعلاً ؟ »

— « إنها أشد موتاً من فوبوس الفينيقي . ولكنها لم تعرف ذلك حتى الآن . »

— « ما تفعل لو كنا معاً في ساحة كاتدرائية القديس مرقص ووقع بصرك عليها ؟ »

— « انظر اليها في وجهها لكي أريها كم هي ميتة ! »

فقالت الفتاة : « اشكرك شكراً جزيلاً . انت تعلم ان المرأة الاخرى ، او المرأة القابعة في الذاكرة شيء رهيب ليس من اليسير على فتاة صغيرة أن تطيقهُ وهي بعدُ من غير خِبرة ولا تجربة . »

فقال لها الكولونيل ، وكان في عينيه خبث وكان يتذكر : « ليس ثمة اية امرأة اخرى . لا ، وليس ثمة امرأة قابعة في الذاكرة . »

فقالت الفتاة : « اشكرك اعظم الشكر . حين انظر اليك أنزع الى الاعتقاد بأنك تقول صدقاً . ولكن أرجوك ان لا تنظر اليّ هكذا ابداً ، وان لا تفكر بي هكذا ابداً . »

فسألها الكولونيل في توقّع : « هل يتعين علينا ان نطاردها وان نشنقها على شجرة عالية ؟ »

— « لا . دعنا ننساها . »

— « لقد نُسيتْ . » كذلك قال الكولونيل . ومن عجب انها نُسِيَتْ فعلاً ، وانما كان ذلك عجيباً لأنها كانت حاضرة في الحجرة برهة قصيرة ، وكانت قد اوشكت أن تُحدث ذعراً ؛ وهو شيء من اغرب الاشياء على

الاطلاق ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .

ولكنها كانت قد ولّت الآن ، نهائياً والى الأبد ، موسومة [1] متعوّذاً منها بضروب العزائم ، مزوّدة بالاحدى عشرة نسخة من اوراق اعادة تصنيفها ، وفي جملتها وثيقة الطلاق الأصلية المصدّقة من الكاتب العدل بنسخها الثلاث .

وقال الكولونيل : « لقد نُسيت . » وكان ذلك صحيحاً مئة بالمئة .

وقالت الفتاة : « أنا مسرورة بذلك جداً . لست ادري ما الذي يدعوهم الى السماح لها بدخول الفندق . »

فقال الكولونيل : « نحن متماثلان الى حد كافٍ . ومن الخير لك ان لا تحمل ذلك الى ابعد مما ينبغي . »

— « في استطاعتنا ان نشنقها اذا شئتَ لأنها هي المسئولة عن عدم تمكننا من الزواج . »

فقال لها الكولونيل : « لقد نُسيت . لعلها ان تلقي على ذاتها نظرة طويلة في المرآة ، ذات يوم ، وتشنق نفسها . »

— « ما دامت قد غادرت الحجرة فيتعين علينا أن لا نرجو لها حظاً تاعساً . ولكني كفتاةٍ فينيسيةٍ صالحة ، أتمنى لو أنها كانت ميتة . »

فقال الكولونيل : « وكذلك أنا . والآن ، وما دامت غير ميتة ،

---

١ – من الوسم ، وهو الكي .

فلنَنْسَها الى الأبد . »

فقالت الفتاة : « الى الأبد ودائماً . أنا أرجو أن تكون هـــذه هي الصيغة الصحيحة . وفي الاسبانية para sempre . »

فقال الكولونيل : « para sempre وأخوه . »

٢٨

كانا الآن مستلقيين معاً ، ولم يتكلما ، وشعر الكولونيل بفؤادها يخفق . إنه لمن اليسير عليك أن تشعر بالفؤاد يخفق تحت كنزة سوداء حبّكها امرؤ ما من افراد الاسرة ، وكان شعرها الداكن الطويل الثقيل يتدلى على ذراعه السليمة . إنه ليس ثقيلاً ، كذلك قال في ذات نفسه ؛ إنه اخف من ايما شيء آخر . كانت مضطجعة في سكون ومحبة ، وكان كل ما يملكانه في تواصل كامل . لقد طبع على ثغرها قبلة رفيقة ونهمة ؛ وفجأة ، وبعد أن أمسى التواصل كاملاً ، حدث ما يشبه ذلك الاضطراب الذي يصيب جهاز الراديو المستقبل بحكم الظواهر الجوية الكهربائية .

وقالت : « ريتشارد ، أنا آسفة لبعض الأشياء . »

فقال الكولونيل : « لا تأسفي ابداً . لا تناقشي عدد الاصابات ابداً ، يا بنيّتي . »

- « قلها كرة اخرى . »

- « يا بنيّتي . »

- « هل لك ان تقول لي اشياء سعيدة اتزوّد بها طوال الاسبوع ، وتروي عليّ مزيداً من انباء الحرب اوسّع به ثقافتي ؟ »

- « فلندع الحرب وشأنها . »

– « لا . أنا في حاجة اليها من اجل ثقافتي . »

فقال الكولونيل : « وأنا في حاجة اليها ايضاً . لا الى المناورات . أنت تعلمين أن احد الجنرالات استطاع يوماً في جيشنا ، ان يضع يده – من طريق الغش والاحتيال – على خطة المناورة . لقد عرف ، مسبّقاً ، بكل حركة من حركات العدو ، فتصرّف في براعة بالغة حملت الدولة على ترقيته الى مرتبة تخطّى بها رجالاً كثيرين كانوا خيراً منه . وهذا هو السبب الذي جعلنا نمنى بهزيمة قاصمة ، ذات مرة . هذا وتفشّي اجازات نهاية الاسبوع . »

– « نحن الآن في إجازة نهاية الاسبوع . »

فقال الكولونيل : « ادري . انا لا أزال قادراً على العدّ حتى رقم سبعة . »

– « ولكن هل ثمة ما يثير في نفسك المرارة ? »

– « لا . كل ما هنالك اني بلغت من العمر نصف قرن واني اعرف الأشياء . »

– « زدني من الحديث عن باريس لأني احب ان افكر فيك وفي باريس خلال الاسبوع . »

– « لماذا لا تسرّحين باريس مؤقتاً ، يا بُنيّتي ? »

– « ولكني زرت باريس من قبل ، وسوف اعود الى هناك كرة اخرى ، وانا احب أن أعرف . إنها أجمل مدينة في العالم ، بعد مدينتي وانا اريد ان أعرف عنها بعض الأشياء الحقيقية لكي آخذها معي . »

– « سوف نذهب اليها معاً ، ولسوف احدثك عنها هناك . »

– « شكراً . ولكن حدثني الآن حديثاً موجزاً اتزود به لهذا الاسبوع فحسب . »

ـ « كان لوكليرك غِرّاً كريم المحتد كما سبق لي أن شرحت في ما أعتقد . كان شجاعاً جداً ، متكبراً جداً ، طموحاً الى حد مغـالى فيه . لقد مات ، كما قلت لك من قبل . »

ـ « أجل ، لقد قلت لي ذلك . »

ـ « يقولون إن من حسن الأدب أن لا يذمّ المرء الموتى . ولكني أحسب أن ذلك هو أنسب الأوقـات للتحدث عنهم في صدق . وأنا لم أقل في حياتي قط عن أيما رجل ميت شيئاً أحجم عـن قوله له في وجهه . » وصمت لحظة ثم اضاف : « إني اقول للأعور انت اعور ، وأقولها في عينه . »

ـ « فلنكفّ عن التحدث عنه . لقد اعدتُ تصنيفه في عقلي . »

ـ « عمّ تريدين ان احدثك اذن ؟ عن شيء ماتع ؟ »

ـ « أجل ، ارجوك ، لقد فسد ذوقي من قراءة المجلات المصورة . ولكني سوف اقرأ دانتي طوال الاسبوع حـين تمضي انت لسبيلك . ولسوف أشهد القداس كل صباح . وأحسب ان ذلك سيكون كافياً . »

ـ « واذهبي الى حانة هاري قبل الغداء ايضاً . »

فقالت : « سأفعل . ارجوك أن تحدثني عن شيء ماتع . »

ـ « ألا تعتقدين ان من الخير لنا أن نأوي الى النوم ليس غير ؟ »

ـ « كيف تستطيع أن تنام الآن بعد أن لم يبق لدينا غير متّسع من الوقت يسير ؟ إلمِس هذا » قالت ذلك ودفعت رأسها كله الى اعلى ، تحت ذقنه ، حتى لقد اضطرت رأسه الى الارتداد للوراء .

ـ « حسن جداً ، سوف اتحدث . »

ـ « اعطيني يدك أولاً ، لكي أمسكها . سوف اضعها في يدي عندما اقرأ دانتي وافعل الاشياء الاخرى . »

ـ « لقد كان دانتي شخصية مَقيتة . أشد عجبـاً وغروراً من

لوكليرك . »

ـ « ادري . ولكنه لم يكتب على نحو مقيت . »

ـ « لا . ولقد كان لوكليرك قادراً على القتال ايضاً . وبصورة ممتازة . »

ـ « والآن حدثني . »

كان رأسها على صدره الآن ، وقال الكولونيل : « لماذا لم تريدي لي ان انزع سترتي العسكرية ؟ »

ـ « انا أحب أن ألمس الأزرار . هل في ذلك بأس ؟ »

فقال الكولونيل : « سوف أكون ابن عاهرة بائساً . كم رجلاً من أفراد أسرتك خاض غمار الحرب ؟ »

فقالت : « كلهم . دائماً . لقد كانوا تجاراً أيضاً ، وكثير منهم كانوا حكاماً لهذه المدينة كما تعلم . »

ـ « ولكن هل قاتلوا كلهم ؟ »

فقالت : « كلهم بقدر ما اعلم . »

فقال الكولونيل : « او . كي . سوف أحدثك عن أيما شيء لعين ترغبين في معرفته . »

ـ « أريد ان تحدثني عن شيء ماتع . ليس غير . عن شيء لا يقل رداءة عما تنشره المجلات المصورة أو أردأ . »

ـ « مجلة درمينيكا ديل كوريير Domenica Del Corriere ام مجلة تريبونا إيلاستراتا Tribuna Illustrata ؟ »

ـ « اسوأ ، اذا كان ذلك ممكناً . »

ـ « قبّليني أولاً . »

وقبّلته في كرم وفي قوة وعلى نحو يائس ، ولم يستطع الكولونيل ان يتذكر أياً من المواقع الحربية أو أياً من الحوادث الماتعة او الغريبة .

إنه لم يفكر إلا فيها ، وفي ملمسها ، وفي مدى دنوّ الحياة من الموت حين يستغرق المرء في نشوةٍ روحية . ولكن ما النشوة الروحية ، بحقّ الجحيم ، وما رتبة النشوة الروحية ورقمها المتسلسل ؟ وأيّ ملمس لكنزتها السوداء ؟ ومن الذي أبدع كل نعومتها وبهجتها ، وكبرياءها الغريبة وتضحيتها وحكمتها الطفليّة ؟ اجل ، ان النشوة الروحية هي الشيء الذي كان من الجائز ان تفوزَ به ، ولكنك بدلاً من ذلك تجتذب أخا الرقاد الآخر . »[1]

الا لعن الله الموت ، كذلك قال في ذات نفسه . إنه يتسللّ اليك في اجزاء صغيرة يتعذر عليك معها ، او يكاد ، ان تدرك من اين دخَلتْ . وهو يجيئك في بعض الأحيان ، على نحو وقح . انه قد يجيء من الماء غير المغليّ ، أو من ناموسية لم تُنصَبْ ، او قد يجيء مع الهدير العظيم ، المُصَلْصِل ، الحامي حتى الأبيِضاض الذي عشنا معه . إنه يجيء في تلك الوشوشات الصغيرة المفرقعة التي تسبق جلبة السلاح الاوتوماتيكي . وفي امكانه ان يجيء مع قوس القنبلة اليدوية المطلِق دُخاناً ، او مع سقوط قنابل « مدافع الهاون » الحاد ، المفرقع .

لقد رأيته يجيء محرّراً نفسَه من ضباب القنبلة ، هابطاً مع ذلك الخط المنحرف العجيب . إنه ينبعث من تحطّم سيارة ما بصوتٍ معدني ، أو مجرد فقدان الاحتكاك الكافي فوق طريق زَلقة .

إنه يجيء معظمَ الناس وهم في الفراش ، انا اعلم ذلك ، مثل نظير الحب المقابل . ولقد عشت معه طوال حياتي تقريباً ، وكانَ توزيعه على الناس هو صناعتي . ولكن ايّ شيء استطيع ان أرويه

١ – يقصد بأخي الرقاد الآخر : الموت . (المعرب)

لهذه الفتاة الآن في هـــذا الصباح البارد العاصف في فندق غريتي بالاس ؟ »

وسألها : « ما الذي ترغبين في معرفته ، يا بُنَيَّتي ؟ »

« كل شيء . »

فقال الكولونيل : « حسن . اسمعي اذن . »

٢٩

لقد استلقيا على السرير الجديد القاسي على نحو عذب ، وقد مست رِجله رِجلها ؛ وكان رأسها على صدره ، وكان شعرها منشوراً عَبْرَ عنقه القاسي العجوز . وأنشأ يحدثها :

— « لقد هبطنا البرّ من غير ما كبير مقاومة . وإنما واجهونا بالمقاومة الحقيقية عند الشاطىء الآخر . ثم إنه كان علينا أن ننضم الى الجنود الذين أُنزِلوا بالمظلات ، وان نحتلّ ونهيمن على مدن مختلفة ، ثم استولينا على شيربورغ . وكان ذلك عسيراً ، وكان علينا ان ننجزه في سرعة خاطفة ، وكانت الاوامر صادرة من جنرال يدعى « لايتننغ جو » كان من الجائز ان لا تسمعي باسمه البتة . جنرالٍ بارع . »

— « تابِعْ ، ارجوك . لقد تحدثتَ عن « لايتننغ جو » من قبل . »

— « وبعد شيربورغ كان لدينا كل شيء . ولم آخذ شيئاً غير بوصلة اميرال ، إذْ كان عندي آنذاك مركب صغير في خليج تشيزابيك . ولكننا دمغنا الاسلحة الالمانية كلها باسم مارتل ، واستولى بعض الجنود على ثروات لا تقل عن ستة ملايين فرنك فرنسي مطبوع في المانيا . وكانت هذه الأوراق النقدية صالحة الى ما قبل عام واحد ، وكل خمسين فرنكاً منها كانت تساوي آنذاك دولاراً واحداً ، وكم من رجل يملك الآن تراكتوراً بدلاً من مجرد بغلٍ لأنه عرف كيف يرسلها الى الوطن

من طريق زملائه وأعوانه .

ـ « ولم اسرق قط شيئاً غير البوصلة لأني اعتقدت ان مما يجلب الطالع النكد ان يسرق المرء ، لغير مـــا ضرورة ، في حرب من الحروب . ولكني شربت الكونياك ، وجعلت من دأبي ان أحسب المقادير الثانوية التي تكفل الدقة في استعمال البوصلة ، كلمــا وجدتُ متسعاً من الوقت لمثل هذا الصنيع . لقد كانت البوصلة هي صديقي الوحيد ؛ وكان التلفون حياتي . كان لدينا من الاسلاك الموتـّرة اكثر مما في تكساس من الـ ...[1] »

ـ « ارجو ان تواصل تحديثي ، وأن تجتنب الفظاظـــة ما استطعت الى ذلك سبيلا . انا لا اعرف ما تعنيه تلك الكلمة ، ولا أريد أن اعرف . »

فقال الكولونيل : « إن تكساس ولاية كبيرة ، وهذا هو السبب الذي من اجله اتخذُتها واتخذتُ نساءها رمزاً ، فأنت لا تستطيعين ان تقولي « اكثر ...[1] من ويبومينغ » لأن عدد السكان هناك ثلاثون الفاً ، أو ربما خمسون الفاً اذا شئت . قلت انه كان عندنا اسلاك كثيرة ، فكنـّا لا نفتأ نوتـّرها ثم نلفـّها ، ثم نوترها من جديد . »

ـ « تابع » .

فقال الكولونيل : « سوف أنتقل بك الآن الى اقتحام خطوط العدو. ارجوك ان تخبريني . هل يُضجرك كلامي ؟ »

ـ « لا . »

ـ « وهكذا قمنا بالأقتحام المخزي ، » كذلك قال الكولونيل ، وكان وجهه الآن قد التفت الى وجهها ، ولم يكن يحاضر ؛ كان يعترف .

---

١ ـ ههنا موقع كلمة مقذعة محذوفة في الاصل الانكليزي ايضاً . (المعرب)

« وفي اليوم الأول اقلبت كثرتهم الكبيرة وأسقطوا من الجو زينة شجرة الميلاد التي بلبلت «رادار» الاعداء ، وهكذا ارجيء الهجوم . كنا على استعداد للزحف ، ولكنهم ارجأوا الهجوم . وكان ذلك في محله من غير ريب . انا احب جنرالات الجيش الكبار كما احب الخنازير التي تعرفينها . »

ـ « حدثني عن ذلك ولا تكن خبيثاً . »

فقال الكولونيل : « لم تكن الأحوال ملائمة ، وهكذا انطلقنا في اليوم الثاني في تلك السبيل ، كما يقول أبناء عمومتنا البريطانيون الذين لم يستطيعوا ان يشقوا طريقهم ومناشفهم ما تزال رطبة ، وأقبل شعب ذلك البحر الآبد الذي هناك .

« وكانوا لا يزالون ينطلقون من الحقول التي عاشوا فيها على حاملة الطائرات المعشوشبة تلك التي يدعونها انكلترة ، عندما رأينا أولهم

« كانت الطائرات لامعة ، مشرقة ، جميلة ، لأنهم كانوا قد أزالوا ، قبيل ذلك ، دهان الغزو عنها ، او لعلهم لم يفعلوا . ان ذاكرتي ليست دقيقة في ما يتصل بهذا الجزء من القصة .

« وأياً ما كان ، يا بنيّتي ، فقد كان في ميسورنا ان نشهد أسرابها مرتجعة نحو الشرق بأسرع ما نستطيع أن نرى . كانت أشبه شيء بقطار عظيم . وكانت محلقة في الجو ، فهي أجملُ منها في أيما يوم مضى . وقلت لزميلي الثاني ان علينا ان نسميها « اكسبريس فالهالا » [1] هل سمعتِ هذا الحديث ؟ »

ـ « انا استطيع أن أرى اكسبريس فالهالا . إننا لم نره قط على

---

١ – Valhalla Express . و «فالهالا» ، في الميثولوجيا السكندينافية ، هي حجرة الخلود التي تستقبل فيها ارواح الأبطال الذين سقطوا صرعى في ساحة القتال. (المعرب)

مثل هذه الضخامة . ولكننا رأيناه . مرات عديدة . »

- « وكنا على مبعدة ألفيْ ياردة من المكان الذي كان علينا أن ننطلق منه . أنت تعرفين ما معنى ألفيْ ياردة ، يا بنيتي ، في حرب تكونين فيها في موقف الهجوم ؟ »

- « لا . وكيف استطيع ذلك ؟ »

- « ثم إن الجزء الأمامي من «اكسبريس فالهالا» اسقط دخاناً ملوناً ثم انعطف وانقلب راجعاً إلى الوطن وكان هذا الدخان قد أُسقِط في دقة بالغة ، وكشف في وضوح عن الهدف الذي كان مواقع النمساويين. كانت مواقع حصينة . ولقد كان من الجائز أن يتعذر علينا اخراجهم منها من غير لجوء الى شيء جبار وماتع كالذي كنا نقوم به فعلاً .

« وبعد ذلك ، يا بنيتي ، اسقطت الاجزاء الاخرى من « اكسبريس فالهالا » كل شيء في العالم على رؤوس النمساويين وحيث كانوا يقيمون ويعملون لصدّنا . وفي ما بعد بدا وكأن كل شيء على الارض قد ثار وفار ، وراح الاسرى الذين أخذناهم يرتعدون كما يرتعد المرء حين تستبد به الملاريا . كانوا جنوداً جدّ بواسل من « فرقة المظلات السادسة » ، وكانوا كلهم يرتعدون ولا يستطيعون لذلك الارتعاد دفعاً برغم محاولتهم ان يفعلوا .

« وهكذا تستطيعين أن ترَيْ أنه كان قصفاً موفقاً . الشيء نفسَهُ الذي نحتاج اليه دائماً في هذه الحياة ، على وجه الضبط . أن نجعلهم يرتجفون من خوف العدالة والقوة .

« وكانت الريح يا بنيتي ، ولسوف اوجز لكي لا أُدْخـل السأم على نفسك ، تهب من ناحية الشرق ، وشرع الدخان يرتدّ نحونا . وكانت المدافع الثقيلة هي التي استهلت ذلك ، ولم يكن أحد في حاجة الى ان يقلق او يجشّم نفسه عناء السؤال عمن كان هناك ذلك اليوم . وبعـد

هذا ولكي يُجْعل اقتحام مواقع العدو ناجحاً ولكي لا يُترك في كل من خطيْ القتال إلاّ أقلّ عدد ممكن من الجند ، أقبلت الطائرات وقصفت كل ما بقي . ثم إننا اقتحمنا تلك المواقع حالما رجع «اكسبريس فالهالا» إلى أرض الوطن ، منتشراً في جماله وجلالِهِ من ذلك الجزء من فرنسة حتى سماء انكلترة كلها . »

لو كان لرجل ما ضمير ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، إذن لفكر في سلاح الطيران ذات يوم .

وقال الكولونيل : « اعطيني زجاجة من تلك الفالبوليشيلا . » ثم تذكّر أن يضيف : « ارجوك . »

وقال : « ألتمس عفوك ، هدئي من روعك ياكلبتي الحلوة ، ارجوكِ . انك أنتِ التي سألتِني أن أروي لك ذلك . »

– « انا لست كلبتك الحلوة . انها لا بد أن تكون امرأة اخرى . »

– « صحيح . انت حبي الأخير الصادق الوحيد . هل هذا صحيح ؟ ولكنك انت التي سألتِني أن احدثكِ عن ذلك . »

فقالت الفتاة : « حدثني ، ارجوك . وإني لأحب أن اكون كلبتك الحلوة لو عرفتُ كيف افعل ذلك . ولكني مجرد فتاة من هذه المدينة التي تحبّك . »

فقال الكولونيل : « سوف نعمل على هذا الأساس . وأنا احبكِ . ولعلي تلقّنْتُ تلك العبارة في الفيليبين » .

فقالت الفتاة : « ربما . ولكني أوثر ان اكون فتاتك الشريفة . »

– « إنكِ لكذلك . الى اقصى حد ، وعلى رؤوس الأشهاد . »

فقالت : « ارجوك ان لا تنزع الى السخرية . ارجوك ان تحبّني في صدق ، وان تحدثني على اصدق نحو تستطيعه من غير ان تؤذي نفسك بأية حال . »

فقال : « سوف احدثك في صدق . على اصدق نحـو استطيع ان اتحدث به ، ولَيُصبِ الاذى من قـد يصيب . فلأن تسمعي نبأ ذلك مني ، اذا آنستِ في نفسك فضولاً يغريك بالاطلاع هـــذا الموضوع ، خيرٌ لكِ من ان تقرأيه في كتاب ما ، ذي دِفـّتين متينتين . »

ـ « لا تكن لاذعاً ، ارجوك . كل ما أسألك اياه ان تصدقني القول وتضمـّني اليك في إحكام وان تصدقني القول حتى تُفـْرِغ كل ما في جوفك ، اذا كان هذا امراً ممكناً . »

ـ « لست في حاجة الى إفراغ ما في جوفي باستثناء ضرورة اصطناع المدافع على نحو يتفق والقواعـــد العسكرية . أنا لن انقِم منهم اذا ما اصطنعوها في إحكام حتى ولو أصابوا منكِ مقتلاً . ولكنْ أعطيني ، لإمداد المشاة ودعمهم ، رجلاً مثل بيْت كيزادا Pete Duesada . ذلك رجل قادرٌ على طردهم برفسة من نعله . »

ـ « ارجوك . »

ـ « اذا ما رغبت ذات يوم في التخلي عن رجل متهدم مثلي فخليق بذلك الفتى ان يمدّك بالعون . »

ـ « انت لست متهدماً ، اياً ما كان معنى ذلك ، وأنا احبك . »

ـ « ارجوكِ ان تعطيني قرصين من تلك الزجاجة ، وان تملأي كأس الفالبوليشيلا التي اهملت ملأه ، ولسوف اروي لك طرفـــاً من بقية القصة . »

ـ « لا داعي لا تروي لي بعد شيئاً . اجل ، لا داعي لذلك ؛ وانا أعلم الآن ان هذا يؤذيك . وخاصة اذا كان الكلام عن يوم « اكسبريس فالهالا » ذاك . أنا لست مستنطقاً ، او أياً ما كان مؤنث المستنطق . فلنكتفِ بالاضطجاع في سكون والاطلال من النافذة ، ومراقبة ما يجري في قناتنا العظمى . »

ـ « لعل هذا خير لنا . ومن ذا الذي يبالي بالحرب على اية حال ؟ »

– « انت وانا ، ربما . » كذلك قالت وهزت رأسها . « دونك الشيئين اللذين طلبتهما من الزجاجة المربعة . وها هي ذي كأس «الفينو» المروّقة . سوف أبعث اليك من اطياننا بخمر أفضل . ارجوك ، دعنا ننام فترة قصيرة . ارجوك ان تكون غلاماً صالحاً ، وان نكتفي بالاستلقاء معاً وبتبادل الحب . ضع يدك هنا ، ارجوك . »

– « يدي السليمة أم يدي المشوهة ؟ »

فقالت الفتاة · « يدك المشوهة . اليد التي احبها والتي يتعين عليّ أن افكر فيها طوال الاسبوع . انا لا استطيع ان احتفظ بها كما تحتفظ انت بأحجار الزمرد . »

فقال الكولونيل : « إنها في الصندوق الحديدي . » وصمت لحظة ثم أضاف : «على اسمك » .

– « فلنكتف بمجرد النوم ولنقلع عن الكلام على ايما شيء عادي وعن أيما ضرب من ضروب الأسى . »

– « الى الجحيم بالأسى كله ، » كذلك قال الكولونيل ، مُغمضاً عينيه ، مُسْنداً رأسه في رفق على الكنزة السوداء التي كانت وطنه الأم . ان المرء لفي حاجة الى ان يكون له وطن أمٌ ، كذلك قال في ذات نفسه . وها هو ذا وطني الأم . »

وسألته الفتاة : « لماذا لم تُنتخب رئيساً للولايات المتحدة ؟ لقد كان خليقاً بك ان تكون رئيساً ممتازاً . »

– « أنا رئيساً ؟ لقد خدمت في حرس مونتانا الوطني حين كنت في السادسة عشرة . ولكنني لم ألبس في حياتي عقدة رقبة على شكل فراشة ، ولست – ولم اكن في ايما يوم قط – بائع كرافتات وقمصان رجالية فاشلاً انا لا اتمتع بأيّ المؤهلات التي تساعد المرء على ارتقاء سدة الرئاسة . بل لم يكن في إمكاني ان أرئس المعارضة ، حتى على الرغم من

اني غير مضطر للجلوس على «حوليات التلفون» لكي تؤخذ صُوَري . وفوق هذا فلست جنرالاً لا محارباً . يا للجحيم ، فأنا لم اكن في ايما يوم من الأيام عضواً في «القيادة العليا للقوات الحليفة الموجّهة الى اوروبة» SHAEF . بل اني لم اوفق الى أن اكون رجل دولةٍ أرَشدَ . فأنا لا أزال دون السن التي تؤهلني لذلك . إننا نُحْكَمُ اليوم ، بطريقة ما ، بالحثالة . نحن نُحْكَمُ بما قد تجدينه في قعر كؤوس الجمعة الميتة التي غمست فيها البغايا سكايرهن . ان المكان لا يُكنَس ولو مجرد كنسٍ حتى الآن ، وإن ثمة عازف بيان هاوياً يضرب على الصندوق . »

– « انا لا افهم هذا لأن معرفتي باللغة الاميركية ناقصة الى حد بعيد . ولكنه يبدو رهيباً . ولكن لا تغضَبْ بسبب من ذلك . دعني اغضب نيابةً عنك . »

– « هل تعرفين ما بائع الكرافتات والقمصان الرجالية الفاشل ؟ »

– « لا . »

– « إنه ليس شيئاً معيباً . وان عندنا كثيراً منهم في بلادنا . هناك واحد ، على الاقل ، في كل بلدة . لا يا بُنيّتي ، انا مجرد جنديٍ مقاتل ، وهذا أحطّ شيء على سطح الأرض . وبهذا الوصف استطيع ان اخوض الانتخابات مرشحاً عن آرلينغتون [1] ، اذا ما أعادوا الجثة . إن لأسرتي عندئذ حق الاختيار . »

– « هل آرلينغتون لطيفة ؟ »

فقال الكولونيل : « لست ادري . أنا لم أُدْفَنْ هناك قط . »

– « أين تُؤْثِر ان تُدفن ؟ »

– « هناك في الهضاب ، » كذلك قال متخذاً قراراً سريعاً . « في ايما جزء من اجزاء النجاد التي هزمناهم فيها . »

---

١ – Arlington ، المقبرة الوطنية الاميركية . وتطلق ايضاً على قبر الجندي المجهول . (المعرب)

- « يخيّل اليّ أنه ينبغي لك أن تُدفن في الغرابا[1] . »

- « في الزاوية الميتة من ايما منحدر مجدور الوجه بالقنابل ، شرط ان يرعوا الماشية فوقي في ايام الصيف . »

- « وهل لديهم ماشية هناك ؟ »

- « طبعاً . إن لديهم دائماً ماشية في المواطن التي ينبت فيها العشب الصالح أيام الصيف . وبنات البيوت العليا - القوية البناء ، اعني البيوت والبنات معاً - التي تقاوم الثلج في الشتاء ، ينصِبْن الاشراك للذئاب في فصل الخريف بعد أن ينزلن الماشية من الأعـالي . إنها تغتذي على اكداس التبن المثقّلة بالاعمدة الخشبية . »

- « ولست تريد آرلينغتون أو « الاب لاشيز »[2] أو ما عندنا هنا ؟ »

- « اريد مقبرتكم البائسة . »

- « انا أعلم انها أتفهَ ما في البلدة (town) . أو على الأصح أتفه ما في المدينة city . لقد تعلّمت منك أن ادعو كل مدينة بلدة ، ولكني سأحرص على أن اراك تذهب حيث تشاء الذهاب ، ولسوف اذهب معـــك اذا احبَبْتَ ذلك . »

- « لست احب ذلك . ان هذا هو الشيء الوحيد الذي يقوم به كل منا على انفراد . مثل الذهاب الى الحمّام . »

- « لا تكن وعراً ، ارجوك . »

- « عنيت اني احب ان تكوني معي . ولكن هذه عملية أنانيةٌ جداً ، وبشعةٌ جداً . »

وامسك عن الكلام ، واستغرق في تفكير عميق ، ولكنْ في موضوع آخر وقال : « لا . سوف تتزوجين ، وترزقين خمسة اولاد ، وتسميّنهم

---

١ - Grappa مرتفعات جبلية من الألب الشرقي في ايطالية ، وقد مر ذكرها من قبل . (المعرب)

٢ - Pere Lachaise مقبرة باريس الرئيسية . (المعرب)

كلهم ريكاردوس ... »

ـ « قلب الأسد » كذلك قالت الفتاة ، مُرتضية الوضع من غير ان تلقي ولو مجرد نظرة ، لاعبةً بالورقات التي في يديها كما يلقي المرء بجميع اوراقه بعد ان يكون قد حسب في دقة وضبط .

فقال الكولونيل : « قلب القملة . الناقد الظالم اللاذع الذي يطعن في الناس جميعاً . »

فقالت الفتاة : « لا تكن خشناً في حديثك ، أرجوك . وتذكّر انك تطعن أسوأ ما تطعن في نفسك . ولكنْ ضمّني اليك بأقصى الإحكام الذي نستطيعه ، ولنحاول أن لا نفكر في شيء . »

وضمّها الى صدره بأقصى ما استطاع من إحكام ، وحاول ان لا يفكر في شيء .

٣٠

كان الكولونيل والفتــاة مستلقيين على السرير ، في سكون ، وحاول الكولونيل ان لا يفكر في شيء ، كفعلِهِ حــين احجم عن التفكير في ايما شيء مرات كثيرة في مواطن كثيرة . ولكن ذلك امتنع عليه هذه المرة . لقد امتنع عليه منذ اليوم ، لأن الاوان كان قد فات .

انهما لم يكونا ُعطيلاً ودَيدمونة ، بحمد الله ، برغم أنهما كانا في المدينة نفسها ، وبرغم ان الفتاة كانت من غير ريب أملح وجهاً من بطلة شكسبير ، وبرغم ان الكولونيل قد خاض غمرات القتال بقدر ما خاضها المراكشي المهذار [1] أو اكثر .

إنهم جنود ممتازون ، كذلك قال في ذات نفسه . اولئك المراكشيون الراعبون . ولكن ما اكثر الذين ُصرِعوا منهم في ايامي ! احسب اننا قتلنا منهم اكثر من جيل كامل اذا مـــا ادخلتَ في الحساب آخر حملة ُجرّدت على عبد الكريم [2] . ولقد كان عليك ان تقتل كلاً منهم على ِحدَة. ان ايما امرىء لم يقتلهم قطّ جماعاتٍ ، كما قتَلْنا النمساويين قبل أن

---

١ – يقصد عطيلاً . (المعرب)

٢ – يقصد الامير عبد الكريم الخطابي ، البطل المراكشي الشهير . (المعرب)

يكتشفوا آينهايت . »

وقال : « بنيّتي ! هل تريدينني فعلاً أن احدثك عن الحرب ، لكي تعلمي ، اذا لم اكن خشناً في حديثي عنها ؟ »

– « اني لأحب ان تحدثني عنها اكثر مما احب اي شيء آخر . إذ يصبح في ميسوري عندئذ ان اشاركك إياها . »

– « هي ارق من ان استطيع قطعها لتشاركيني اياها . إنها كلها لكِ ، يا بنيّتي . وحديثي عنها سوف يقتصر على الخطوط الكبرى ليس غير . فأنتِ لن تطيقي فهم الحملات في تفصيل ، وقليلٌ هم اولئك الذين يطيقونه . ان رومل قد يطيق ذلك . ولكنهم كانوا يبقونه دائماً تحت غطاء كثيف في فرنسة ؛ والى هذا فقد كنا دمّرنا مواصلاته . لقد دمرها سلاحا الطيران الحربيان . سلاحنا وسلاح الطيران الملكي RAF ولكني أتمنى لو استطيع ان اجاذبه اطراف الحديث في بعض الشؤون . اني لأحب ان أتحدث اليه والى ارنست أوديت . »

– « حسبُكَ أن تخبرني ما الذي تتمناه ، وخذ كأس الفالبوليشيلا هذه ، وأمسك عن الكلام اذا كان فيه مـــا يوقع في نفسك الاشمئزاز . أو أحجم عن رواية ذلك كله بالمرة . »

– « كنت عند البدء كولونيلا رديفا او كولونيل «تبديل» ، كذلك شرح في احتراس . وكولونيلات التبديل كولونيلات متسكعون يوضعون تحت تصرف قائد الفرقة العسكرية لكي يحلّوا محل زميل لهم صُرع في الميدان ، او أُعفي من القيادة . ان أياً منهم ، تقريباً ، لم يُصرع في الميـدان ؛ ولكن كثيراً منهم كانوا يُعفون من القيــادة . ان جميع الكولونيلات المتازين يُرَقّون . ويُرَقّون في سرعة عندما تبدأ الحرب في اضرام ما يشبه نيران الغابات »

– « تابع من فضلك . هل آن لك أن تأخذ دواءك ؟ »

فقال الكولونيل : « الى الجحيم بدوائي . وإلى الجحيم بالقيادة العليا للقوات الحليفة الموجّهة الى اوروبة SHAEF . »

فقالت الفتاة : « لقد شرحت ذلك لي من قبل . »

– « لشدّ ما أتمنى لو كنت جندياً بما تتمتعين بـــه من عقل نـّير وذاكرة حلوة . »

– « اني لأتمنى ان اكون جندياً اذا استطعت أن اقاتل تحت إمرتك . »

فقال الكولونيل : « حذارِ أن تقاتلي تحت إمرتي في أيما يوم . أنا حذِر . ولكني غير محظوظ . كان نابوليون يريد من جنوده ان يكونوا محظوظين ، ولقد كان على صواب . »

– « لقد كان لنا بعض الحظ . »

فقال الكولونيل : « نعم . حظ حسن وحظ سيّء . »

– « ولكنه كان كله حظاً . »

فقال الكولونيل : « طبعاً . ولكن المرء لا يستطيع أن يقاتل استناداً الى الحظ ليس غير . انه مجرد شيء يحتاج اليه المقاتل . والذين قاتلوا استناداً الى الحظ ليس غير ماتوا كلهم ميتة ماجدة مثل سلاح الفرسان في جيش نابوليون . »

– « لماذا تكره سلاح الفرسان ؟ ان الكثرة الكبيرة من الفتيان الطيبين الذين عرفتهـم كانوا في فرق الفرسان الثلاث الممتـــازة أو في الاسطول . »

– « أنا لا اكره ايما شيء ، يا بنيّتي ، » قـال الكولونيل ذلك ، ورشف قليلاً من الخمر الحمراء الخفيفة الصِرف التي كانت ودوداً مثـل بيت اخيك ، ان كنت انت واخوك صديقين حميمين . « كل ما في الأمر ان لي وجهة نظر خاصة ، انتهيتُ اليها بعد تفكير مُروّىً فيه ، وعلى اساس من تقدير لمقدراتهم . »

- « هل هم غير صالحين فعلاً ؟ »

فقال الكولونيل : « إنهم تافهون . » ثم اضاف ، وقد تذكّر ان يكون دمثاً : « في عصرنا هذا . »

- « كلُّ يوم يزيل الغشاوة عن أبصارنا »

- « لا . كلُّ يوم هو تمويه جديد ورائع . ولكن في ميسوركِ ان تقطعي كل مـــا هو خادع في ذلك التمويه وكأنكِ تقطعينه بحدّ موسى مستقيمة النصل . »

- « ارجوك ان لا تقطعني ابداً . »

- « انتِ لست قابلةً للقطع . »

- « هل لك ان تقبّلني وتضمّني الى صدرك في قوة ، ثم وبعد ذلك ذلك نرنو معاً الى القناة العظمى حيث النور فاتنٌ الآن ، وتزيدني من حديثك ؟ »

وفيما هما يرنوان الى القناة العظمى حيث كان الضوء ، في الواقـــع ، فاتناً ، تابع الكولونيل حديثه فقال : « لقد ُقدْت كتيبة لأن الجنرال أعفى من المهمة غلاماً كنت قد عرفتـُه ُ منذ كان في الثامنة عشرة من العمر . إنه لم يكن غلاماً حين أعفي ، طبعاً ، ولكن قيـــادة تلك الكتيبة كانت فوق ما يطيق ، على حـين كانت هي اقصى ما طمحت اليه في ايما يوم من الايام ، في هذه الحياة ، حتى خسرتُها . » ثم أضاف : « بحكم الأوامر ، طبعاً . »

- « ولكن كيف يخسر المرء كتيبة من الكتائب ؟ »

- « عندما تحاول ان تصعّد في النجاد ويكون كل ما يتعين عليك ان تفعله هو ان تلوح براية ، فيتداولون في الأمر ، ويبرزون اذا كنت مصيباً . ان المحترفين شديدو الذكاء ، ولقد كان هؤلاء النمساويون كلهم

محترفين ؛ لا المتعصبون . ويرن جرس الهاتف ، ويتلفن شخص ما من الضباط ، شخص مزوّد بأوامر من الجيش ، او ربما من « القيادة العليا للقوات الحليفة الموجهة الى اوروبة SHAEF » نفسها ، لأنهم كانوا قد قرأوا اسم البلدة في صحيفة ما – ولعل احد المراسلين هو الذي بعث بـه من «سْبا» [1] – وينقل اليك الاوامر : أن تستولي على البلدة بالسلاح الأبيض . وهذا شيء مهم جداً ، لأن المسألة تسرّبت إلى الصحف . ان عليك أن تهاجم وتستولي على المدينة بالسلاح الأبيض !

« وهكذا تُخَلـّفَ إحدى السرايا مَيـْتة على طول الجزء الأعلى من الوادي . وتخسر سَريّةٌ اخرى برمّتها ، وتدمّر ثلاثاً اخريات . ان الدبابات لتُسحَقُ بمثل السرعة التي تتحرك بها ، ولقد كان في ميسورها أن تتحرك في خفة الى أمام والى وراء .

« ويقذفونها بالقنابل : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة .

« ان ثلاثة رجال يخرجون عادة من اصل الخمسة (الذين هم في داخلها) ، ويركضون في غير نظـــام مثل لاعبين شاعت الفوضى في ساحتهم حين تكونين انتِ مينيزوتا ، ويكون الآخرون بيلوا من اعمال ويسكونسون . [2]

« هل اوقِـع الضجر في نفسك ؟ »

– « لا . انا لا أفهم هذه الإشارات المحلية . ولكن في استطاعتك ان تشرحها حين يحلو لك ذلك . ارجوك ان تواصل تحديثي . »

– « وتدخلين البلدة ، فيشُنُّ غرٌّ وسيمٌ حملةً جوية من فوقك . ومن الجائز أن تكون هذه الحملة تنفيذاً لأمر قد صدر ، ثم لم يُلغَ البتة . فلنمنح

---

١ – Spa منتجع صحي في شرقي بلجيكة، جنوب شرقي ليبج ، Liege وهو مشهور بينابيعه المعدنية .

Minnesota وويسكونسون Wisconsin ولايتان اميركيتان، وبيلو Beloi مدينة في ولاية ويسكونسون . (المعرب)

كل امرىء فرصة الاستفادة من الشك. انا لا ازيد على تصوير الأشياء لك بطريقة إجمالية. فمن الخير أن لا اوغل في التفاصيل، لأن المدني لا يفهمها. حتى انتِ لن تفهميها.

« وهذه الحملة الجوية لا تساعدك كثيراً، يا بنيّتي. اذ ربما تعجزين عن البقاء في البلدة لأن عدد جنودك قد أمسى هزيلاً جداً، ولأنك تكونين منهمكة الآن في رفعهم عن حصباء الطريق أو في تركهم على حصباء الطريق. إن ثمة مذهبين او « مدرستين فكريتين » في هذا الموضوع. وهكذا يطلبون اليك ان تحتلي البلدة بالسلاح الأبيض. وهم يكررون ذلك.

« وقد أُيد هذا تأييداً قاطعاً من قبَل سياسيٍّ يرتدي ثوباً عسكرياً، سياسيٍّ لم يَقْتُلْ احداً في حياته كلها، إلا وفمُهُ فوق سماعة التلفون، أو على الورق، ولم يُصَبْ قط بأيّ جرح. تصوّريه مثل رئيسنا القادم اذا شئتِ. تصوّريه كيفما أحببتِ. ولكنْ تصوّريه وقومَهُ، مؤسسة العمل التجاري العظمى كلها، بعيدين عن الجبهة الى درجة تجعل الطريقةَ الفضلى للاتصال بهم في سرعة هي اصطناعَ حمام الزاجل. باستثناء أنهم قد ينزعون — مع ذلك القدر من الاحتراس الذي التزموه لسلامة اشخاصهم هم — الى تصويب نيران مدافعهم المضادة للطائرات لاسقاط تلك الحمائم. اذا استطاعوا أن يصيبوا منها مقتلاً.

« وهكذا تعاودين ذلك كرة اخرى. ولسوف انبئك، في ما بعد، كيف يكون ذلك. »

ورفع الكولونيل بصره الى اضطراب الضياء على سقف الحجرة. كان الضياء منعكساً، بعضُهُ لا كلُهُ، من القناة العظمى. وقد أحدث حركاتٍ غريبة، ولكنها مطّردة، متغيّرة، كما يتغير تيار جدولٍ

من سمك الاطروط ، ولكنها باقيةٌ ، برغم تغيرّها مع حركة الشمس .

ثم انه نظر الى جميلته الساحرة ، بوجهها الغريب الاسمر ، الشبيه بوجه طفلٍ شب عن الطوق ، فتفطّر قلبه وقد تذكّر انه سوف يرتحل و (ذلك امر لا ريب فيه) . قبل الساعة الثالثة عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين ، فقال : « فلنُقلع عن الكلام على الحرب ، يا بُنيّتي . »

فقالت : « ارجوك ، ارجوك . أنا أريد ان اتزوّد من حديثك لهذا الأسبوع كله »

– « هذا نص حُكمٌ sentence موجز . انا استعمل هذا اللفظة بمعناها الجنائي ، كما تقولين : نص الحكم بالسجن [١] . »

– « أنتَ لا تدري كم قد يتطاول الاسبوع ويتطاول ، حين يكون المرء في التاسعة عشرة . »

فقال الكولونيل : « لقد عرفتُ ، مراتٍ عديدة ، كم قد تتطاول الساعة وتتطاول .. وفي استطاعتي ان اخبرك الى أي حدّ قد تطول الدقيقتان ونصف الدقيقة أيضاً . »

– « ارجوك ان تخبرني . »

– « حسناً ، لقد قضيت اجازة يومين في باريس بين معركة « شني – ايفل » وهذه المعركة . ونظراً للصداقة التي كانت تربطني مع رجل او رجلين من كبار المسؤولين مُنِحتُ شرف حضور اجتماع لم يشهده غير من كانوا موضع الثقة والاعتماد ، اجتماع شرح لنا فيه الجنرال والتر بيدل سميث الى اي حد سوف تكون هينة يسيرةً تلك العملية التي حملت بعدُ اسم عملية غابة هورتجين . انها لم تكن غابة هورتجين فعلاً . لقد كانت قطاعاً صغيراً

---

١ – في الأصل تلاعب لفظي بين كلمة sentence بمعنى « الجملة » ، وكلمة sentence بمعنى « الحكم » .

ليس غير . لا ، لقد كانت هي ستانزوولد ، وكان ذلك هو الموضع الذي اختارته القيادة الالمانية العليا ، بحق ، للقتال بعد ان احتُلت «آخن» وبعد أن قُطِعت الطريق الى المانيا . انا ارجو ان لا يكون في هـذا الكلام ما يُضجركِ . »

– « انت لا تضجرني أبداً . وليس في حديث الحرب مـا يضجرني غير الأكاذيب . »

– « انت فتاة غريبة ! »

فقالت : « نعم . لقد عرفتُ ذلك من عهد بعيد . »

– « هل تحبين ان تقاتلي فعلاً ؟ »

– « لست ادري ماذا كنت استطيع القتـال . ولكنْ خليقٌ بي ان أجرّب اذا ما علّمتني . »

– « لن اعلّمك ابد الدهر . سوف اجتزىء برواية بعض الحكايات على مسمعك . »

– « حكايات حزينة عن موت الملوك . »

– « لا . عن الجنود الاميركيين او الـ GIs كما سمّاهم بعضهم . والله يعلم كم اكره هذه اللفظة وكيف اصطُنِعَتْ . قراء كتب هزلية مصورة . وكلهم من مكان بعينِهِ . ومعظمهم قد سيقوا الى هناك برغمهم . لا كلهم . ولكنهم جميعاً يقرأون صحيفة تدعى «النجوم والخطوط» . ولقد كان يتعين عليك ان تغري كتيبتك بمطالعتها ، وإلا كنت قائـداً مخفقاً . ولقد كنت اكثر القادة اخفاقاً . لقد حاولت أن احب مراسلي الصحف ، وكان فريقٌ من خيارهم يشهدون ذلك الاجتماع . انا لن اسمي اسماء ، لأني قد أُغفِلُ بعض الممتازين منهم ، وفي ذلك ظلم وعدم إنصاف . لقد كان ثمة مراسلون صالحون غابت اسماؤهم عن ذاكرتي . ثم كان هناك مراوغون اختيروا بالقرعة ، وزائفون كان من دأبهم ان يزعموا انهم

جُرحوا اذا مستهم قطعة معدنٍ مُستَنفَدة ، وجماعة يحملون وسام « القلب الارجواني» بسبب من حادث سيـــارة جيب ، ومطلعون على بواطن الامور ، وجبناء ، وكذابون ، ولصوص ، ومسرفون في اصطنـــاع التلفون . ولقد غاب عن هـــذا الاجتماع بعض الموتى . فقد كان لهم موتاهم . نسبةٌ منهم كبيرة . ولكن اياً من الموتى لم يشهد الاجتماع ، كما قلت . لقد شهده بعض الناس ولكن في ثياب عسكرية رائعة . »

- « ولكن كيف تزوجت في يوم من الايام واحدة منهم ؟ »

- « بالغلط ، كما اوضحت لكِ من قبل . »

- « تابع تحديثي . » .

- « كان في الحجرة عدد من الخرائط اكثر من ذلك الذي يستطيع سيدنا المسيح أن يقرأه في احسن ايامه . » كذلـــك تابع الكولونيل « فهناك الخرائط الكبيرة ، والخرائط المبالغ في تكبيرها . ولقد تظـاهر اولئك القوم كلهم بأنهم فهموها ، كما فعل الجنود حاملو المؤشرات ، وهي ضرب من عِصِيّ البليارد نصف الشرجية وكانوا يصطنعونهـــا للشرح والتفسير . »

- « لا تنطق بكلمات فاحشة . ومع ذلك فأنا لا ادري مـــا معنى نصف الشرجية هذه . »

- « انهـا تعني : مختصرة ، او موجزة على نحو لا يفي بالمرام . » كذلك شرح الكولونيل . « وقد تستعمل لوصف اداة مـا ، أو خُلق ما ، بالنقص . إنها كلمة عتيقة . ولعلك تجدينها في السنسكريتية . »

- « ارجوك ان تواصل تحديثي . »

- « ولمَ ؟ وما الذي يحملني على تخليد العار بفمي ؟ »

- « سوف اكتب ذلك اذا شئتَ . في استطاعتي ان اكتب ، في أمانة ، ما اسمعه او افكر فيه . وخليقٌ بي طبعاً ان ارتكب بعض الاخطاء . »

ـ «إذا استطعت ان تكتبي ، في أمانة ، كل ما تسمعينه او تفكرين فيه كنت فتاة محظوظة من غير ريب . أما أنا فلن اكتب ، أبد الدهر ، كلمة واحدة من هذا . »

واستأنف حديثه قائلاً : «كان المكان غاصاً بمراسلين صحفيين ارتدى كل منهم ما شاء له ذوقه ان يرتديه . كان بعضهم نزاعين الى السخرية ، وكان بعضهم شديدي الشوق الى المعرفة .

« ولتوجيههم كما يوجّه الراعي البارع القطيع ، ولاصطناع المؤشرات على احسن وجهٍ كان ثمة مجموعة من «صافقي الغدارات» . إننا نطلق لقب «صافق الغدارات» على الرجل اللامحارب ، المتنكر في بذلة عسكرية او ربما استطعت ان تدعوها ثوباً رسمياً ، والذي يهتاج كلما صفق السلاح على فخذيه أو مسّها مسّاً رفيقاً . وبالمناسبة يا بنيّتي فإن الغدارة ، لا الغدارة القديمة ، ولكن الغدارة الحقيقية ، قد أخطأت عدداً من الناس في المعركة اكبر ، في اغلب الظن ، من عدد الذين اخطأهم ايما سلاح في العالم كله . فلا تدعي احداً يعطيك غدارة إلا اذا أردتِ أن تضربي الناس بها على رؤوسهم في حانة هاري . »

ـ « انا لم ارد في ايما يوم من الايام ان اضرب احداً ؛ إلاّ ـ ربما ـ آندريا . »

ـ « اذا قدّر لك ذات مرة ان تضربي آندريا فاضربيه بأنبوبة الغدارة ، لا بعَقِبها . فالعَقِبُ بطيء الى حد رهيب ، وهو يخطىء الهدف ، فاذا اصابه وجدتِ الدم على يديكِ حين تطّرحين البندقية . وارجوك ، أيضاً ، أن لا تضربي آندريا ابد الدهر لأنه صديقي . وعلى أية حال ، فلست أحسب انه سوف يكون لقمة سائغة بالنسبة الى من يرغب في ضربه .»

ـ « وانا لا احسب ذلكِ ايضاً . ارجوك أن تزيدني علماً بأمر ذلك

الاجتماع ، او المؤتمر . يخيّل اليّ ان في استطاعتي الآن أن أميّز صافقي الغدارات من غيرهم ولكني أريد أن يكون علمي بهذه الأشياء أدق وأعمق . »

– « حسناً ، لقد كان صافقو الغدارات ، بكامل فخار اصطفاق غداراتهم ، ينتظرون وصول الجنرال العظيم المكلّف بشرح العملية .

« كان المراسلون يغمغمون أو يغرّدون ، وكان الاذكياء منهم عابسين أو مبتهجين ابتهاجاً سلبياً . لقد استوى كل منهم على كرسي قابلة للانطواء وكأنه اقبل لسماع محاضرة من محاضرات مركز التربية الصيفي في تشوتوكا [1] . أنا آسف لاصطناعي هذه التعابير المحلية ، ولكننا شعبٌ محليّ . »

– « ويدخل الجنرال الحجرة . إنه ليس صافق غدارات » ، ولكنه رجل أعمال كبير ؛ وسياسي ممتاز ، من الضرب التنفيذي وكان الجيش ، آنذاك ، هو اكبر المشروعات التجارية في العالم . ويتناول الجنرال الموشّرة نصف الشرجية ، ويُرينا ، في ايمان كامل ، ومن غير هواجس مشؤومة ، كيف سيجري الهجوم تماماً ، والسبب الذي من اجله نشنّه ، وكيف سينجح في سهولة ويُسْر . فليس ثمة مشكلة . »

فقالت الفتاة : « تابع . ارجوك ان تدعني أترع كأسك ، وارجوك ان تنظر أنت الضوء المنعكس على السقف . »

– « أترعيها ولسوف انظر الى الضوء ، واتابع الحديث .

« وحدّثنا بائع ضغط الدم العالي هذا – ولست اقول ذلك في غير احترام ، ولكن أقوله في اعجاب بمواهبه كلها أو بموهبته – عن الاشياء الضرورية التي ستـُوَفر لنا . إن أيما شيء مهما يكن لن يُعْوِزنا . وكانت

---

١ – Chautauqua قرية جنوب غربي نيويورك ، على بحيرة تشوتوكا . (المعرب)

المنظمة المدعوّة « القيادة العليا للقوات الحليفة الموجّهة الى اوروبا » SHAEF تتخذ من بلدة تدعى فرساي ، خارج باريس ، مقراً لها . وكان علينا ان نشنّ هجوماً الى الشرق من « آخن » على مسافة تبعد ٣٨٠ كيلو متراً من مقرها ذاك .

« في استطاعة الجيش ان يصبح ضخماً ، ولكن في استطاعتك ان ترصّ صفوفه بعض الشيء . واخيراً تقدّموا حتى رايمس ، الباعدة ٢٤٠ كيلو متراً عن ميدان القتال . وكان ذلك بعد شهور عديدة .

— « انا افهم الضرورة التي تقضي بأن يكون الرجال التنفيذيون الكبار في نجوة من الاحتكاك برجالهم العاملين. وأفهم شيئاً عن احجام الجيوش ومختلف المشكلات . بل إني لأفهم علم اطعام الجنود وايوائهم في الميدان ، وهو شيء غير عسير ولكن التاريخ لم يعرف أيما قائد قادَ جيوشه من على مثل هذا البعد . »

— « حدثني عن المدينة . »

فقال الكولونيل : « سوف أحدّثكِ ، ولكنني لا أريد أن أؤذيك . »

— « انت لا تؤذيني أبداً . إن مدينتنا مدينة عتيقة ، ولقد كان لنا دائماً رجالنا المقاتلون . إننا نحترمهم اكثر من احترامنا جميع الفئات الاخرى ، وأحسب اننا نفهمهم كأناس ، يوقعون اعظم الضجر في نفوس النساء . »

— « هل أوقع أنا الضجر في نفسك ؟ »

فسألته الفتاة : « ما رأيك انت ؟ »

- « أنا أُضْجر نفسي ، يا بُنَيَّتي . »

— « لست أظن ذلك ، يا ريتشارد . لقد كان خليقاً بك ان لا تعمل ايما شيء طوال حياتك . لا تكذب عليّ ، ارجوك ، يا حبيبي ، بعد ان لم يبق لدينا غير متسع من الوقت قصير . »

— « لن اكذب . »

- « ألا ترى انك في حاجة الى إنبائي ببعض الاشياء لكي تنفض عن نفسك غمّها ؟ »

- « أنا أعلم اني انبئك بها . »

- « ألا تعلم اني اريدك ان تموت متمتعاً بنعمة موت سعيد ؟ أوه ، لقد بدأت ارتبك . لا تدعني ارتبك اكثر مما ينبغي . »

- « لن أدَعكِ ، يا بُنَيّتي . »

- « زدني من احاديثك ، واستسلم للمرارة والغمّ ما شئت . »

٣١

وقال الكولونيل : « اسمعي ، يا بنيّتي . سوف نكف الآن عن كل اشارة الى السحر الخـــادع والى النحاس الاصفر الرفيـع [١] ، حتى ولو كان من كانساس [٢] ، حيث ينمو النحاس الاصفر ويرتفـــع الى أعلى مما يرتفع « برتقال اوسايج [٣] » على طريقك . إن هـذا البرتقال يحمـــل ثمراً لا يستطيع المرء أن يأكله ، وهو كانساسيّ خالص . فلم يقدّر قط لأحد غـــير أهل كانساس ان تكون له علاقة به ، ربمـــا باستثنائنا نحن الذين خضنا غمار الحرب . لقد اكلنا منها كل يوم ، من برتقالات اوسايج أعني .» «كذلك اضاف الكولونيل ،» ولكننا كنا ندعوها جرايات كانساس K . Ratioas . انها لم تكن رديئة . (اما جرايات مخزن التموين العسكري C . rations فكانت رديئة .) كانت كثرتها الكبرى جيدة .

« وهكذا قاتلنا . ان ذلك رتيب ولكنه مُتقشّف . وفيما يلي الطريقة

---

١ – يرمز بذلك الى قادة الجيش الكبار . (المعرب)

٢ – ولاية في اواسط الولايات الاميركية المتحدة . (المعرب)

٣ – شجر يشبه ثمره برتقالاً كثير التآليل والبثور ، وهو ينسب الى نهر اوسايج Osage بالولايات الاميركية المتحدة ، الذي يجري من شرقي ولاية كانساس الى نهر الميسوري، ويتخذ منه المزارعون أسيجة أو وشائع لحماية اراضيهم من الواغلين والمتطفلين . (المعرب)

التي يتم بها القتال اذا كان ثمة من يتوق الى معرفة ذلك ، وهو ما أشك فيه.

« انه يجري هكذا : الساعة الثالثة عشرة « ريد أس ثري» Red S - 3 : لقد وثب «هوايت» (الابيض) في الميقات المعين . وقال «ريد» (الاحمر) انهم كانوا ينتظرون ريثما يندفعون في آثار هوايت وفي الساعة ٥ و١٣ (يعني الساعة الواحدة وخمس دقائق بعد الظهر ، اذا استطعت ان تتذكري ذلك ، يا بنيّتي) يقول «بلو (الازرق) اس ثري » Blue S - 3 — واحسب انك تعرفين ماذا تعني S-3 هذه ـ : « دعونا نعرف متى ينبغي ان نتحرك » فيقول «ريد» انهم كانوا ينتظرون ريثما يندفعون في آثار هوايت.

« في ميسورك ان ترَيْ ان ذلك هين جـداً . » كذلك قال الكولونيل للفتاة . « كان على كل امرىء ان يفعل ذلك قبل فطور الصباح . »

فقالت له الفتاة في رقّة : « ليس في استطاعتنا كلنا ان نكون مشاةً مقاتلين . انا احترم سلاح المشاة اكثر من اي شيء آخر ، ما عدا الطيارين البارعين الامناء . تحدّث ، ارجوك ، إني أعنى بك . »

فقال الكولونيل : « الطيارون البارعون بارعون ، ويجب ان يُحترموا بهذا الوصف . »

ورفع بصره الى الضياء المضطرب على السقف ، واستبد به الغم لتذكره كيف خسِر كتائبه ، وأناساً بأعيانهم . وعلى اية حال ، فإنه لم يحلم بأن تكون له مثل تلك السّرية . إنه لم ينشئها إنشاءاً . لقد ورثها وراثة . ولكنها كانت ، الى حين ، مبعث ابتهاجه الأعظم . وها إن واحداً من كل اثنين من رجالها قد مات ، على حين اصيب سائرهم تقريباً ، بجراح مختلفات في البطن ، في الرأس ، في القدمين او اليدين ، في العنق ، في الظهر ، في العَجُز المحظوظ ، في الصدر النكِد الطالع ، وفي مواطن اخرى . لقد أدى انفجار القنابل خلف الاشجار الى اصابة رجاله بجراح في حيثما نجَوْا من تلك الجراح في الارض الفضاء . ولقد كانت جـراح

الجرحى كلهم سرمدية .

وقال : لقد كانت مَمرِيّة جسنة . بل ان في امكانكِ ان تقولي انها كانت مَمرية ممتازة الى أن أملكتُها بتنفيذي اوامر اصدرها الآخرون إليّ . »

ـ « ولكن ما الذي حملك على تنفيذ كل الأوامر ما دمت مدركاً خطلها ؟»

فأجابها الكولونيل موضحاً : « في جيشنا ينفّذ القائد الأوامر كالكلب. ان أحدنا ليتوهم دائماً ان سيده رجلٌ طيب . »

ـ « ومن أي «نوع اسيادك ؟ »

ـ « لقد حظِيتُ حتى الآن بسيدين صالحين . بعد أن بلغت مستوى ما في القيادة ، حظيت بكثير من الجنود الممتازين ، ولكني لم أحظ بغير سيدين اثنين صالحين . »

ـ « وهل هذا هو السبب الذي من أجلِه لستَ الآن جنرالاً ؟ لقد كنت اوثر أن اراك جنرالاً . »

فقال الكولونيل : « وانا ايضاً كنت اوثر أن ارى نفسي جنرالاً . ولكن ليس بهذه الشدة كلها ، في أغلب الظن . »

ـ « هل لك أن تحاول الاستسلام للرقاد ، لكي تدخل السرور على نفسي ؟ »

فقال الكولونيل : نعم . »

ـ « الذي يتراءى لي هو انك إن نمتَ تخلّصت منهم جميعاً ، لمجرد استغراقك في الرقاد . »

فقال : « نعم » ، اشكرك شكراً جزيلاً .»

لم يكن في اليد حيلة ، أيها السادة . كل ما على المرء أن يفعله هو الطاعة .

٣٢

- « لقد نمتَ نوماً عميقاً جداً فترةً من الزمن ، » كذلك قالت الفتاة له في محبة ورفق . « هل ثمة أيما شيء تريدني ان أفعله ؟ »

فقال الكولونيل : « لا شيء . شكراً . »

ثم إن السخرية اللاذعة غلبت عليه فجأة ، فقال : « في استطاعتي ، يا بنيّتي ، ان أنام نوماً عميقاً حتى على الكرسي الكهربائي وقد شُقّ بنطالي[1] بالطول ، وجُزّ شعر رأسي جزّاً . انا أنام كيفما احتجت الى النوم واينما احتجت . »

فقالت الفتاة وقد داعب النعاس جفنيها : « انا لا استطيع ان اكون هكذا البتة . انا انام حين يستبد بي النعاس . »

فقال لها الكولونيل : « انتِ فاتنة . وإنك لتنامين خيراً مما نام ايما امريء في أيما يوم . »

فقالت الفتاة جدّ ناعسة : « انا لست فخوراً بذلك . انه مجرد شيء أقوم به ليس غير . »

- « قومي به ، أرجوك . »

- « لا . حدثني في كثير من الاناة والرقة ، وضع يدك الشائهة في يدي . »

فقال الكولونيل : « الى الجحيم بيدي الشائهة . منذ أن أمست شائهة الى هذا الحد . »

---

١ - البنطال: البنطلون .

فقالت الفتاة : « انها شائهة . اشدّ شَوْهاً مما سوف تعلم في أي يوم من الأيام ، ارجوك ان تحدّثني عن القتال من غير ان تكون وحشياً اكثر مما ينبغي . »

فقال الكولونيل : « مهمة سهلة . سوف أطوي الزمان على نحو خاطف : الجو غائم ، والمكان هو ٩٨٦٣٤٢ . ما الموقف ؟ نحن نُدْخِنُ العدوّ بقنابل المدفعية والهاون . ويُعلمنا « اس ثري » S-3 أن « اس سيكس » S-6 يريد من « ريد »أن يضرب ضَرْبته في الساعة السابعة عشرة . إن « اس سيكس » S-6 يريدك أن تضرب ضربتك وأن تستخدم عدداً كبيراً من المدافع . ويبعث « هوايت » بتقرير يقول فيه ان وضعهم حسن . ويحيطنا « اس سيكس » S-6 علماً بأن السَّرِيّة « أ » A سوف تستدير وتنضم الى السرية « ب » B .

« لقد صدّ العدو السرِيّة « ب » B ، باديء الأمر ، عن سبيلها ؛ ومن ثمّ لبثت هناك بطَوْعها . ان أحوال « اس سيكس » S-6 ليست على يرام . ولكن هذا نبأ غير رسمي . انه يريد عدداً من المدافع اكبر ، ولكن لم يعد ثمة مزيد من المدافع .

« لماذا اردت ان تسمعي حديث القتال ؟ انا لا أدري ، في الواقع، لماذا . أو ادري ، في الواقع ، لماذا . ومن ذا الذي يرغب في القتال الحقيقي فعلاً ؟ولكن اليك به ، على التلفون اولاً ، وبعد ذلك سوف أُضيف الاصوات والروائح والحكايات عن اولئك الذين قُتلوا ، ومتى واين ، اذا اردت ذلك . »

-- « انا لا اريد إلا ما سوف تنبئني به . »

فقال الكولونيل : « سوف انبئك كيف كان ذلك . والجنرال والتر بيدل سميث لا يزال جاهلاً ، حتى اليوم ، كيف كان ذلك . ولكن من الراجح ان اكون مخطئاً ، كما كنت مراتٍ كثيرة . »

فقالت الفتاة : « أنا سعيدة لعدم اضطرارنا الى معرفته او الى معرفة الرجل النايلوني النعومة . »

فأكد لها الكولونيل : « لن نكون مضطرين الى معرفتهم في هذا الجانب من الجحيم . ولسوف أقيم على أبواب الجحيم حرساً لكي يحولوا بين شخصيات كهذه وبين الدخول . »

فقالت ناعسة : « في كلامك هذا ما يذكرني بدانتي . »

فقال : « أنا مستر دانتي . مؤقتاً على الأقل . »

ولقد كان كذلك ، في الحق ، طول برهة قصيرة ، ورسم جميع الدوائر . كانت جائرة كدوائر دانتي ، ولكنه رسمَها .

٣٣

وقال الكولونيل : « سوف أغفل الجزء التفصيلي ما دمتِ ـ وهذا من حقك بل من واجبك ـ قد غلب عليك النعاس » وراقب ، كرة اخرى ، اضطراب الضوءِ العجيبَ على السقف . ثم نظر الى الفتـــاة التي كانت أجمل من ايما فتاة قدر له ان يراها عُمْرَه كله .

كان قد رآهن يجئن ويرُحْن ، وانهن ليرُحن - حـــين يَرُحنَ - بأسرع مما يروح أيما شيء من ذوات الاجنحة . ان في استطاعتهن أن يرُحن من الجمال النَّضْر الى البشاعة المسّنة بأسرع من ايما حيوان آخر ، كذلك قال في ذات نفسه . ولكنني أعتقد ان هذه الفتاة قـادرة على كبح جماح الُخطى ، ومواصلة السير حتى النهـــاية . إن السمراوات ليحتفظن بجمالهن أكثر من غيرهن ، كذلك قال في ذات نفسه . وانظر الى التكوين المعروق في ذلك الوجه . وهذه الفتاة ذات محتدٍ كريم ، وفي استطاعتها أن تَخْـلُـدَ على الدهر . إن الكثرة الكبرى من جميلاتنا الفاتنات يتحدَّرْن من الحاجز الخشبي في مشارب الصودا ، ولسنَ يعرفن الجزء الأخير من اسم جدّهن ، إلاّ اذا كان شولتز Schultz أو ربمـــا شليتز Schlitz ؛ كذلك قال في ذات نفسه .

ـ « هذا هو الموقف الخاطىء يتخذه المرء ، » كذلك خاطب نفسه ، اذ لم يكن راغباً في التعبير عن ايّ من هذه المشاعر للفتاة ، التي لن

تحبُّها على أية حال ، والتي كانت الآن مستغرقة في نوم عميق ، شبيه بنوم الهرة حين ترقد ملتفّة على نفسها .

ـ « نامي نوماً جيداً ، يا اعزّ حبيب ، ولسوف أتابع حديثي على غير طائل . »

كانت الفتاة نائمة ، وهي لا تزال ممسكةً بيده الشائهة ، التي ازدراها ، ولقد كان في ميسوره أن يستشعرها تتنفّس ، كما يتنفس الصغار حين يستسلمون للرقاد في سهولة ويسر .

وحدثها الكولونيل بكل شيء عن القتال ، ولكنه لم ينطق به نطقاً .

وهكذا بعد أن حظينا بسماع الجنرال والتر بيدل سميث يشرح سهولة الهجوم ، قمنا به . كان ثمة « الفريق الاحمر الكبير » الذي آمن بشعبيّته الخاصة . وكان ثمة الفرقة التاسعة ، التي كانت افضل منا نحن . وكان ثمة نحن ، الذين قمنا دائماً بالهجوم كلما سئلنا ان نقوم به .

ولم يكن لدينا متسع من الوقت لقراءة الكتب الهزلية المصورة ، ولم يكن لدينا متسع لأيما شيء تقريباً ، لأننا كنا نزحف دائماً قبل بزوغ الفجر ، وهذا أمرٌ عسير ، وإن عليك ان تنبذ « الصورة العظمى » وان تكوّن فرقة عسكرية .

وارتدينا شارة البرسيم ذات الورقات الأربع ، التي لم تكن لتعني شيئاً عند احد من الناس ، ما عدانا نحن الذين أحببناها كلنا . وكنت أنا كلما وقع نظري عليها يحدثُ في احشائي شيء لا يتبدّل البتة . لقد حَسبَها بعض الناس لبلاباً ، ولكنها لم تكن كذلك . لقد كانت برسيماً ذا ورقات أربع متنكّراً في صورة لبلاب .

وكانت الأوامر تقتضينا ان نشنّ الهجوم مع « الفريق الأحمر الكبير »

فرقة المشاة الاولى في جيش الولايات المتحدة الاميركية ، وكانوا ومنشدهم المُطْلِق أغنية «برو» Pro لا يدعونك تنسى ذلك ابد الدهر . لقد كان غلاماً ظريفاً ؛ ولقد كانت تلك هي مهنته .

ولكنك سرعان ما تضيق ذرعاً بروث الخيل ، إلا اذا كنت تحب شذاه او طعمه . أما أنا فلم اكن احب ذلك . برغم اني أحببت ان أسير ، وانا غلام ، عبر روث البقر وان أستشعره بين أصابع رجليّ . ولكن روث الخيل يضجر المرء . وهو يضجرني انا في سرعة بالغة ، وفي استطاعتي أن استروحه من على مسافة الف ياردة ونيّف .

وهكذا شننّا الهجوم ، وثلاثتنا في خط النار ، حيث ارادنا الألمان أن نشنه تماماً . إننا لن نشير الى الجنرال والتر بيدل سميث بعد الآن . إنه ليس الرجل الوغدَ في تلك المسرحية . لقد أغدق علينـــا الوعود ليس غير ، وشرح كيف يُنتظر أن تسير الامور . وليس ثمة ، في ما احسب ، اي اوغاد في ايما دولة ديموقراطية . كل ما في الأمر انه كان مخطئاً الى حد جهنمي . علامة وقف ، كذلك اضاف بينه وبين نفسه .

وكانت العصائب الدالة على هوّيتنا قد نُزعت كلهـا حتى عن أذرُع جنود المؤخرة القصوى لكي لا يتمكن ايما ألماني من معرفـة من نحن ، وكانوا يعرفون الفرق الثلاث التي ستقوم بالهجوم احسن معرفة .. وكنـا نعتزم ان نشن الهجوم مندفعين كلنا الى خط النار غير مُبقين احـداً بعيداً عنه على سبيل الاحتياط . أنا لن احاول أن أشرح لك ما الذي يعنيه ذلك ، يا بنيّتي . ولكنه ليس بشيء صالح البتة . وكان الموطن الذي سنقاتل فيه ، والذي كنتُ قد ألقيت نظرة مليّة عليه ، هو باشينديل بالالغام المنثورة حول أشجارها . أنا اكرر هذا أكثر ممـا ينبغي . ولكنني أفكر فيه أكثر مما ينبغي أيضاً .

وكانت الفرقة الثامنة والعشرون ، تلك الفرقة المسكينة الزاحفة الى يميننا ، قد دَبقت أقدامها في الاراضي السبخة فترة من الزمان ، وهكذا تيسّرت لنا معلومات دقيقة الى حد غير قليل عن الأحوال التي ستواجهنا في تلك الغابة . وأحسب ان في استطاعتنا ان نصفها ، في اعتدال ، فنقول انها كانت غير ملائمة .

ثم إننا أُمِرنا بأن نقذف بإحدى الكتائب الى خطوط العدو قبل بدء الهجوم . وهذا يعني أن العدو سوف يأسر جندياً واحداً على الأقل ، مما يجعل نزع العصائب الرامزة الى الفِرَق عملاً أبلهَ ساذجاً . إنهم سوف يتربصون الدوائرَ برجالنا حاملي شعار البرسيم ذي الورقات الأربع ، اولئك الرجال الذين يخلُقُ بهم أن يندفعوا الى الجحيم مباشرة مثل بغل من البغال ، وأن يفعلوا ذلك طوال مئة وخمسة ايام . ان هذه الأرقام لا تعني شيئاً عند المدنيين ، طبعاً . لا ، ولا تعني شيئاً عند شخصيات « القيادة العليا للقوات الحليفة الموجهة الى اوروبة » الذين لم نرهم قط في هذه الغابة . وتشاء المصادفة – ولا ريب في أن هذه الأحداث تكون دائماً تصادفيةً بالنسبة الى القيادة العليا – أن تُفنى الكتيبة عن بكرة أبيها . ولم تكن هذه غلطة أحد ، ولم تكن – بخاصةٍ – غلطة الرجل الذي أَمرَ بها . فقد كان رجلاً يجدر بي أن أسعَد بانفاق نصف عمري معه في الجحيم . ومن يدري ، فقد أفعل ذلك ذات يوم .

ولا ريب في أنه سوف يكون عجيباً اذا ما تعيَّن علينا بدلاً من أن نذهب الى الجحيم ، كما كنا نأمل دائماً ، ان نذهب الى واحدة من تلك الحانات النمساوية الرخيصة الشبيهة بـ «الفالهالا» [1] ، وان لا نوفق الى الانسجام مع القوم . ومن يدري ، فقد نستطيع أن نفوز بمائدة منزوية

---

١ – الفالهالا Valhalla ، في الميثولوجيا السكندينافية ، حجرة الخلود التي تستقبل فيها ارواح الابطال الذين سقطوا في ميدان القتال .

نجلس اليها مع «روميل» و «اوديت» ، ولسوف يكون ذلك الموطن أشبه شيء بأيما فندق من فنادق الرياضة الشتوية . وأغلب الظن انه سيكون جحيماً ، برغم اني لا اؤمن بالجحيم .

وعلى اية حال ، فقد رُمِّمت هذه الكتيبة ، كما تُرَمَّمُ الكتائب الأميركية دائماً ، من طريق نظام الاستبدال . أنا لن أصف ذلك ، لأن في استطاعتكِ دائماً أن تقرأي عنه في ايما كتاب ألَّفه رجلٌ كان هو نفسه جندياً مستبدلاً . وهو يتلخص في هذه الحقيقة : انك تبقى هناك حتى تصاب اصابة خطرة او تُصْرَع ، أو تُخَبَّلَ ، او تُمَزَّق أقساماً ثمانية . ولكني أحسب انه نظام منطقي ، ولا يقلّ صلاحاً عن ايما نظام آخر ، اذا أخذنا مصاعب المواصلات بعين الاعتبار . وأياً ما كان فإنه يخلّف نواةً من بعض الشخصيات التي لم تُصرَع في الميدان ، والتي تعرف نتائج المعركة ، وليس بين هؤلاء من احب طلعة هذه الغابة كثيراً .

وفي استطاعتك أن تُجمل موقفهم في هذه العبارة : « لا تمسَسْني ... يا جاك . »

وإذ كنت شخصية لم تُصرَع في الميدان طوال ثمان وعشرين سنة فقد كان في استطاعتي أن أفهم موقفهم . ولكنهم كانوا جنوداً ، وهكذا فإن أكثرهم صُرِع في تلك الغابة وعندما احتللنا تلك المدن الثلاث التي في غاية البراءة والتي كانت في الواقع قلاعاً ومعاقل . لقد بُنِيت على هذا النحو بالذات لاغرائنا ، ولم نكن قد سمعنا اية كلمة عنها البتة . ولكي اواصل اصطناع لغة صناعتي السخيفة اقول : ان هذا قد يكون مثلاً على «الاستخبارات الخاطئة» وقد لا يكون .

— « ان قلبي ليتفطّر حزناً على تلك الكتيبة . » كذلك قالت الفتاة . كانت قد استيقظت وتكلمت والنوم في عينيها .

فقال الكولونيل : « أجل ؛ وكذلك أنا . دعينا نشرب نخبها مرةً . وبعد ذلك تستسلمين للرقاد ، يا بنيّتي ، ارجوكِ لقد انتهت الحرب وأمست خبراً منسياً . »

« أرجوك أن لا تتوهمي انني مغرور ، يا بنيّتي » ، كذلك قال من غير أن يتكلم . كانت فتاته التي يحبها حباً صادقاً قد استغرقت في النوم كرة اخرى . لقد نامت بطريقة تختلف عن طريقة فتاته المحترفة . ولم يُحب أن يتذكر كيف كانت فتاته المحترفة تنام ؛ بل لقد أحبَّ . ولكنه أراد أن ينساها . إنها لم تكن تنام على نحو عذب ، كذلك قال في ذات نفسه . لم تكن تنام مثل هذه الفتاة التي رقدت وكأنها يقظى مفعمة بالحياة ؛ مع فارق واحد وهو انها كانت نائمة . نامي نوماً عميقاً ، ارجوك ، كذلك قال في ذات نفسه .

ومن أنتِ ، بحق الجحيم ، حتى تنتقد الفتيات المحترفات ؟ كذلك تساءل الكولونيل بينه وبين نفسه ، وأيــة حرفة بائسة حاولتَها أنت وأخفقتَ فيها ؟

لقد رغبت في ان اكون ، ولقد كنتُ ، جنرالاً في الجيش الاميركي . ولكنني اخفقت ، فأنا أغمز من قناة جميع اولئك الذين نجحوا .

ولم تدم توبته طويلاً ، فقال في ذات نفسه : « باستثناء ذوي الانوف السمراء » ، وأصحاب الخمسة بالمئة والعشرة بالمئة والعشرين بالمئة ، وجميع اولئك الأغرار الآتــين من كل مكان والذي لم يقاتلوا قط ولم يتولوا القيادة قط .

لقد قتلوا رجالاً كثيرين من الأكاديمية في جيتيسبورغ . وكان ذلك يوم مجزرة المجازر ، يوم كان ثمة قَدْر من المقاومة من الفريقين جميعاً . لا تكن كئيباً . لقد قتلوا الجنرال ماك نير Mc Nair خطأً يوم أقبلت

الطائرات البريطانية التي دعوناها « اكسبريس فالهالا »[1]. إخلعْ عنك هذه الكآبة. لقد قُتِل ناسٌ من الأكاديمية، وثمة احصاءات تثبت ذلك.

كيف أستطيع أن أتذكر ان لم اكن كئيباً؟

كن كئيباً ما شئت، وحدّثِ الفتاة الآن في صمت، فلن يؤذيها ذلك أبداً لأنها نائمة نوماً فاتنا جداً. ولقد قال « فاتناً » في ما بينه وبين نفسه لأن تفكيره كان في كثير من الأحيان غيرَ نحويّ.

---

١ ـ راجع الفصل التاسع والعشرين من الرواية. (المعرب)

٣٤

نامي نوماً رفيقاً ، يا من أحبها في صدق ، وعندما تفيقين يكون حديثي هذا قد انتهى ، ولسوف اعلّمك كيف تقلعين عن محاولة الاطلاع على تفاصيل «صناعة الحرب الكئيبة» ، وسنذهب لنشتري الزنجي الصغير، او المراكشي الصغير المنقوش على الآبنوس ، بسِماتهِ الساحرة وعمامته المرصعة بالجواهر . وعندئذ تعلّقينه بالدبوس على صدرك ، ولسوف نمضي لنشرب كأساً في حانة هاري ، او نعود الى هنـــا ، ولسوف احزم امتعتي استعداداً للرحيل . اننا سنتبادل كلمات الوداع ، ولسوف اركب السيارة مع جاكسون ، وأرشق المايسترو الاعظم بمزحةٍ بهيجة ، والوّح بيدي الى ايما عضو آخر من اعضاء «منظمتنا» ولن يُقَدّر لأحدنا — ألفاً في المئة ، كما اشعر في هذه اللحظة — أن يرى الآخر ، بعـــدُ ، أبد الدهر .

يا للجحيم ، كذلك قال للا أحد وفي صوت غير عال طبعاً ، لقد استشعرت مثل هذا الشعور قبل كثير من المعارك ، وفي فترة من خريف العام ، دائماً تقريباً ، ولدُنْ مغادرتي باريس دائماً . واغلب الظن انه لا يعني شيئاً .

ومن ذا الذي يبالي ، على اية حال ، غيري وغير المايسترو الاعظم وهذه الفتاة ؟ أعني على صعيد القيادة .

إني انا نفسي ابالي اكثر مما ينبغي . ولكن عليّ من غـير ريب ،

بعد أن بلغت هذا السن ، أن اروض نفسي على اللامبالاة بأي شيء . مثل تعريف البغيّ : المرأة التي لا تبالي ... الخ .

ولكننا لا نفكر في ذلك الغلام ، الملازم الاول ، الرئيس ، العقيد ، الكولونيل ، الجنرال يا سيدي . سوف ننساه كرة اخرى ، والى الجحيم به ، وبوجهه القبيح الذي رسمه هيرونيموس بوش فعلاً . ولكن في استطاعتك أن تُغمد منجلك ، يا اخي العجوز الذي يسمونك الموت ، اذا كان لديك غمدٌ له . بل ان في استطاعتك ، كذلك اضاف وقد فكّر الآن في معركة هورتجن ، ان تحمل منجلك وتحصد به ما شئت.

لقد كانت هي باشينداديل بقنابلها المتفجرة من خلف الاشجار ، كذلك قال لا لأحد باستثناء الضوء العجيب المضطرب على السقف . ثم انه رنا الى الفتاة ، ليتيقن من انها نائمة نوماً عميقاً بحيث لا تؤذيها أفكاره

وبعد ذلك نظر الى اللوحة ، وقال في ما بينه وبين نفسه : اني لأراها في وضعين اثنين ، مضطجعةً ومستديرة بعض الشيء ناظرة اليّ مواجهةً على نحو مباشر . اني ابن عاهرة محظوظ ، ويتعين عليّ أن لا أحزن لشيء .

٣٥

في اول يوم من أيامنا هناك خسرنا ثلاثة من قادة الكتائب . فاما الأول فقـُتِل خلال العشرين دقيقة الاولى ، وأما الآخران فصُرعا بعد ذلك . أن هذا ليس غير احصاء يقدّم الى صحافيّ ، ولكن قادة الكتائب الصالحين لم يَنموا في يوم من الأيام على الأشجار ، حتى ولا على شجرات عيد الميلاد التي كانت الشجرة الرئيسية في تلك الغابة انا لا ادري كم مرة خسرنا قادة سرايا أيضاً . ولكن في استطاعتي أن استقصي ذلك .

انهم لا يُصنعون ، ولا يُنَمَّون ، بمثل السرعة التي يُصَنع بها او يُنَمّى محصولُ بطاطا . لقد فزنا ببعض الأمداد ، ولكني اذكر اني فكرتُ آنذاك ان اطلاق النار عليهم في البقعة التي ترجلوا عندها من الشاحنات أسهل وأكثر فعاليةً من محاولة اعادتهم من المكان الذي سيُصْرعون فيه ومواراتهم الثرى. ان اعادتهم هذه لتحتاج الى جند ، والى بنزين ، والى رجال يدفنونهم . وقد يكون هؤلاء الجند واولئك الرجال يخوضون غمار المعركة حيث يلقون مصرعهم ايضاً .

وكان ثمة ثلج ، او شيء ما ، مطرٌ او ضباب ، طوالَ الوقت ؛ وكانت الطرق قد لـُغِمت على نحو عميق يتسع لاربعة عشر لغماً في بعض البقاع . فما تكاد السيارات تهبط مضطربة نحو سلسلة اخرى اعمق ، في جزء آخر من الارض الموحلة ، حتى نخسر دائماً ، بعض تلك السيارات ، ونخسر طبعاً

مَن ُتقِتّله ُ من الرجال .

وبالاضافة الى مجرد ضربها بقنابل المورتر ضرباً جهنمياً ، وجعل خطوط النار كلها ُمشرّطة للمدفعية الآلية السريعة ونيران الاسلحة الاوتوماتيكية ، فقد رتبوا كل شيء و َقنّوه ُ[1] بحيث يتحتم عليك ، مهما تكن تبزّهم اصالة رأي وحصافة ، ان تقع في الشرَك المنصوب . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانوا يقصفونك ايضاً بقنابل المدفعية الثقيلة ، وبمدفع واحد من مدافع السكة الحديدية على الاقل .

كان مكاناً من اعسر العسير على المرء ان يبقى فيه حياً ، حتى ولو كان كل ما عمِله ُ ان « يكون » هناك . وكنا نهاجم على نحو موصول ، وكل يوم .

فلنكفّ عن التفكير في ذلك . الى الجحيم به . ولعل ثمة شيئين سوف افكر فيها ، واتخلص منها . أحدهما هضبة جرداء يتعين عليك أن تجتازها لتبلغ «غروسهاو» Grosshau .

وقبيل اجتياز هذه المسافة ، التي كانت تحت هيمنة نيران من عيار ٨٨ ، كان ثمة قطعة من الارض الموات حيث لم يكن في استطاعتهم أن يصيبوك بغير مدافع الحصار ، او النيران المعوّقة ، او من ناحية اليمين بمدافع المورتر . وحين انجزنا ذلك ، وجدنا أن ما لديهم من مدافع المورتر كان يهيمن على الموقع هيمنة حسنة أيضاً .

كان ذلك موطناً آمناً نسبياً ؛ أنا لست اكذب في الواقع ، لا انا ولا ايما امرىء آخر . إنك لا تستطيع ان تخدع اولئك الذين كانوا في هورتجن ، واذا ما كذبت اكتشفوا ذلك حالما تفتح فمك ، سواء اكنت

---

[1] من « قنّى » ، «يقنّي» الشيء اي اجراه في قناة ونظّمه ، وقد استعملناها مقابل قوله canalized في الاصل .

كولونيلا ام لم تكن .

وفي هذا المكان التقينا شاحنة ، وخففنا سرعتنا . وكان وجهه رمادياً كالعادة ، وقال : « سيدي ، هناك جندي اميركي ميت وسط الطريق أمامكم ، وكلما مرت به سيارة تعيّن عليها أن تجري فوقه ، وأخشى أن يخلّف ذلك انطباعةً سيئة في نفوس الجند . »

– « سوف نرفعه من الطريق . »

وهكذا رفعناه من الطريق .

وفي استطاعتنا أن نتذكر كيف كان ملمسه ، وكيف سُطِّح وسُوِّي بالأرض ، وغرابة تسطّحه .

ثم كان هناك شيء آخر ، في ما اذكر . كنا قد ألقينا على المدينة مقداراً رهيباً من الفوسفور الأبيض قبل أن نستولي عليها نهائياً ، ولك ان تستبدل بلفظ «نستولي» هذا ايّ فعل تشاء . وكانت هذه هي اول مرة رأيت فيها كلباً المانياً يأكل نمساوياً ألمانيـاً مشوياً . وفيما بعد بصُرْت بهرة تنهش من لحمه أيضاً . لقد كانت هرة جائعة ، هرة وسيمة جداً . أنتِ لا تحسبين ان ايما هرة المانية صالحة قد تنزع الى نهش جندي الماني صالح ، أليس كذلك ، يا بنيّتي ؟ أو ان ايما كلب الماني صالح قد ينزع الى نهش حمار لجندي الماني صالح ، حمارٍ شُوِيَ بالفوسفور الأبيض .

كم من مشهد مماثل تستطيع أن ترسمه ؟ مشاهد كثيرة من غير ريب ، ولكن اية فائدة ترتجى من ذلك ؟ ان في امكانك ان تروي الف حكاية من هذا الضرب ، فلن يفضي ذلك الى منع نشوب الحرب . ان الناس سوف يقولون اننا لا نقاتل النمساويين ، والى هذا فالهرة لم تأكلني انا ولم تأكل أخي غوردون ، لأنه كان في المحيط الهادىء . ومن يدري ، فلعل سراطين البرّ قد أكلت غوردون . او لعله ذاب وماع

ليس غير .

وفي هورتجن انجمد الجند انجماداً ؛ كان الجو قارساً الى درجة جعلتهم ينجمدون بوجوه متوردة . شيء غريب جداً . لقد كانوا كلهم شاحبين صُفراً مثل المصنوعات الشمعية ، في الصيف . ولكن ما إن أقبل الشتاء حقاً حتى امست وجوههم متوردة .

ان الجنود الحقيقيين لا يخبرون احداً ، البتة ، كيف بـدا موتاهم ، كذلك قال مخاطباً اللوحة الفنية . ولقد انتهيت من هذا الموضوع كله . ولكن ماذا عن تلك السرية التي أفنِيَتْ عن بكرة أبيها عنـد الجزء الأعلى من الوادي ؟ اجل ، ماذا عن اولئك الجنود المحترفين ؟

لقد ماتوا ، كذلك قال في ذات نفسه . وفي استطاعتي أن اضطرب وان اذهب الى الجحيم .

والآن من ذا الذي يرغب في ان يقاسمني كأساً من الفالبوليشيلا ؟ في اي وقت تظنين ان علي ان اوقظ صِنوَكِ ، ايتها الفتاة ؟ ان علينا ان نمضي الى ذلك الجوهريّ . واني لأتطلع منذ الآن الى ارسال النِكات والى التحدث عن ادعى الاشياء الى البهجة .

ولكن ما البهجة ، أيتها اللوحة الفنية ؟ ينبغي لكِ ان تعرفي . فـأنتِ أذكى مني ، برغم انك لم تطوّفي في الارض بقدر مـا طوّفتُ .

حسن ، ايتها الفتاة القماشية – كذلك قال لها الكولونيل من غير ان يجهر بالصوت – سوف نُغفِل هذا كله ، وبعد احـدى عشرة دقيقة سأوقظ الفتاة الحية وعندئذ نمضي الى المدينة ، ونأخذ بأسباب البهجة ، ونخلّفكِ هنا لكي يلفّوكِ .

انا لم اقصد ان اكون فظاً . كل ما في الامر اني كنت امزح في شيء من الخشونة . اني لا اريد ان اكون فظاً أبد الدهر ، لأني سوف احيا معكِ منذ اليوم . انا ارجو ذلك ، هكذا أضاف وتجرّع كأساً من الخمر .

٣٦

كان يوماً مشرقاً ، بارداً ، لاذعاً ، ووقفا قبالة واجهة دكان الجوهري وتـأملا رأسَيْ وجسمَيْ الزنجيين الصغيرين المنقوشين على الابنوس ، والمرصعين بالجواهر . إن احدهما لا يقل روعة عن الآخر ، كذلـك قال الكولونيل في ذات نفسه .

ـ « ايهما تفضلين يا بنيّتي ؟ »

ـ « الذي الى اليمين ، في ما احسب . ألا تعتقد معي أنـه ذو الوجه الأجمل ؟ »

ـ « ان لكل منهما وجهاً جميلا . ولكني كنت اوثر أن اكلفـه بخدمتكِ لو كنا نعيش في العصور الغابرة . »

ـ « حسن . سوف نشتريه . فلندخل ونرى اليها . يتعيّن عليّ أن اسأل عن الثمن . »

ـ « سوف ادخل معك . »

ـ « ولكن دعني أنا اسأل عن الثمن . فخليقٌ بالجوهري أن يتقاضاني ثمناً أقلّ مما قد يتقاضاك . فأنت على اية حال ، اميركي موسر . »

ـ « وأنتِ ؟ رامبو ؟ »

فقالت له الفتاة : « في استطاعتك ان تنتحل شخصية فيرلـين على نحو مضحك الى حد رهيب . ولسوف ننتحل شخصياتِ مشاهير آخرين . »

ـ « هيا ادخلي ، يا صاحبة الجـلالة ، وسنشتري الجوهرة الذهبية اللعينة . »

ـ « وأنت لن تصلح كثيراً جـــداً لانتحال شخصية لويس السادس عشر ايضاً . »

« ـ أنا مستعد لأن أركب العربة القلابة [1] معكِ ، وأظلّ مع ذلك قادراً على ان ابصق . »

ـ « دعنا ننسى جميع العربات القلابات ، وأحزان الناس كلهم ، ونشتري ذلك الشيء الصغير ، وعندئذ نستطيع ان نتصل تلفونيـــاً بمنزل سيبرياني ، ونصبح من مشاهير القوم . »

وفي داخل المحل نظرا الى الرأسين ، وسألتْ عن الثمن ، ثم دار حديث جدُّ سريع ، وخُفـِّض الثمن تخفيضاً كبيراً ، ومع ذلك فقـد ظل اكثر مما كان في جيب الكولونيل من المال .

ـ « سوف اذهب الى منزل سيبرياني واجيء ببعض المال . »

ـ « لا ، » كذلك قالت الفتاة . ثم التفتت الى المستخدم واضافت : « ضعه في علبة ، وابعث به الى بيت سيبرياني ، وقل ان الكولونيل يريد منهم ان يدفعوا ثمنه ويحتفظوا له به . »

فقال المستخدم : « من فضلك . كما تقولين تماماً . »

وغادرا المحل الى الشارع ، وضياء الشمس ، والريح التي ما تهدأ .

ـ « وبالمناسبة ، » كذلك قال الكولونيل ، « ان احجارك الزمردية هي موضوعة على اسمك في الصندوق الحديدي بفندق غريتي . »

ـ « احجارك الزمردية . »

ـ « لا ، » كذلك قال لها ، ليس في خشونة ، ولكن لكي يجعلهـا تفهم على نحو حاسم . « ان ثمة أشياء لا يستطيع المرء أن يقدم عليها . إنك تعرفين هذا . فأنت لا تستطيعين ان تتزوجيني ، وانا ادرك ذلك ،

---

١ ـ Tumbril وهي العربة التي كان ينقل بها ضحايا الثورة الفرنسية الى المقصلة وكان المؤلف قد شبه الفتاة بماري انطوانيت في العربة القلابة . راجع الفصل الثاني عشر (المعرب)

على الرغم من اني لا اقرؤه . »

فقالت الفتاة : « حسن جداً . فهمت . ولكن ألا نستطيع أن تأخذ واحداً منها استجلاباً للحظ ؟ »

ـ « لا . لست استطيع . انها ثمينة اكثر مما ينبغي . »

ـ « ولكن للوحة الفنية ثمناً ايضاً .

ـ « هذا شيء مختلف . »

فأقرته على ذلك قائلة : « اجل ، أظن ذلك ، يخيّل اليّ اني بدأت أفهم . »

ـ « لقد كان خليقاً بي أن أقبل منك فرساً ، لو كنتُ فقيراً او شاباً أو شديد البراعة في ركوب الخيل . ولكني لا استطيع أن اقبل منك سيارة . »

ـ « الآن فهمتُ المسألة فهماً جيداً . اين نستطيع ان نذهب ، الآن ، في هذه الدقيقة ، حيث يكون في ميسورك ان تقبّلني ؟ »

ـ « فلنذهب الى هذا الزقاق الجانبي ، ان كنت لا تعرفين احداً من المقيمين فيه . »

ـ « لست ابالي بمن يقيمون فيه . أنا اريد ان أحسّ بك تضمني في شدة وتقبّلني » .

وانعطفا الى الشارع الجانبي ، ومشيا نحو نهايته غير النافذة .

وقالت : « اوه ، ريتشارد ! اوه ، يا عزيزي ! »

ـ « أحبكِ . »

ـ « ارجوك ان تحبني . »

ـ « انا افعل . »

وكانت الريح قد طيّرت شعرها الى فوقُ وحول عنقه ؛ وقبّلها كرة اخرى وشعرها يلطمه ، حريريّ الحواشي ، على خديه كليهما .

ثم انها تملصت منه ، فجأة وفي قوة ، ورَنت اليه وقالت : «احسِبُ

ان من الخير لنا ان نذهب الى حانة هاري . »

ـ « احسِبُ ذلك . هل تريدين أن يمثل كل منا شخصية من شخصيات التاريخ ؟ »

فقالت : « أجل ، فلنزعم انكَ أنتَ أنتَ وأنني أنا أنا . »

فقال الكولونيل : « فلنزعم ذلك . »

٣٧

لم يكن في حانة هاري احدٌ غير بعض المصطبحين[١] المبكرين الذين لم يعرفهم الكولونيل ورجلين يعقدان صفقة تجارية في مؤخرة المشرب .

كانت تمر بحانة هاري ساعات تغصّ فيها بأناسٍ تعرفهم ، في النظامية المندفعة نفسها التي يُقبل بها المدّ عند «مونت سانت ميشيل» . مع فارق واحد ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، وهو ان ساعات المد والجزر تختلف كل يوم تبعاً للقمر ، على حين أن الساعات في حانة هاري مثل خط هاجرة غرينتش ، او المتر القياسي في باريس ، او حُسْن رأي العسكريين الفرنسيين في انفسهم .

وسأل الفتاة : « هل تعرفين أياً من هؤلاء الشَّرب الصباحيين ؟ »

ـ « لا . أنا لست ممن يألفون الاصطباح ، ومن اجل ذلك لم ألتقِ بهم البتة . »

ـ « سوف يُكَنْنسون عندما يُقبل المدّ . »

ـ « لا ، انهم سوف يفارقون الحانة ، عندما يُقبل ، من تلقاء انفسهم . »

ـ « هل تعارضين في الاختلاف الى هنا في غير اوان الاختلاف ؟ »

ـ « أتحسبني مُحدثة نعمة لأني انتمي الى اسرة عتيقة ؟ إننا نحن الذين ليسوا بمُحدثي نعمة . ان محدثي النعمة هم اولئك الذين تدعوهم أغراراً

---

١ ـ الشاربين الخمر صباحاً .

حقيرين واولئك الذين يملكون كل الثروة الجديدة . هل قدّر لك ان ترى ثروات جديدة ضخمة الى هذا الحد ؟ »

فقال الكولونيل : « اجل . لقد رأيتها في « كانساس سيتي » عندما كان من دأبي ان أفد اليها من «فورت رايلي» لألعب البولو في نادي الاقليم . »

ـ « هل كانت تجربتك هذه رديئة كما هي هنا ؟ »

ـ « لا . لقد كانت سائغة جدا . لقد احببتُ هذا ، وإن ذلك الجزء من «كانساس سيتي» لجميل جداً . »

ـ « أهو كذلك فعلاً ؟ لشدّ ما اتمنى لو نستطيع الذهاب الى هناك. وهل لديكم هناك ، أيضاً ، تلك المعسكرات التي نعتزم ان ننزل فيها ؟ »

ـ « من غير ريب . ولكننا سوف ننزل في فندق «موليباخ» حيث توجد اضخم السرر في العالم ، ولسوف نتظاهر بأننا من اصحاب الملايين.»

ـ « وأين سنترك الكاديلاك ؟ »

ـ « أهي كاديلاك الآن ؟ »

ـ « أجل ، الا اذا اردت ان تأخذ الـ « بيوويك » ، طراز « سيد الطرق » Roadmaster «ذات القيادة الديناميكية الدافقة» Dynaflow drive لقد ُقدُتها مجتازة بها طرق اوروبة كلها . ولقد رأيت اعلاناً عنها في آخر عدد بعثت به اليّ من مجلة « فوغ » vogue . »

فقال الكولونيل : « لعل من الخير لنا أن يقودها كلٌّ منا في آنٍ . وسواء أقررنا الكاديلاك او البيوويك فسوف نبيّتها في المرأب المحاذي لفندق موليباخ . »

ـ « وهل فندق موليباخ فخم جداً ؟ »

ـ « إنه رائع . ولسوف تحبّينه . وعندما نغادر البلدة سنقود السيارة الى سانت جو ، ونحتسي كأساً في المشرب ، في «الروبيدو» ، وربما

كأسين ، ثم نعبر النهر وننطلق في اتجاه الغرب ؛ وفي استطاعتنا أن نتناوب . »

ـ « وما معنى هذا ؟ »

ـ « معناه ان تقودي انت حيناً واقود انا حيناً . »

ـ « اني اقود السيارة الآن . »

ـ « فلنَجتَزْ الجزء الرتيب ، ونمضي الى «تشيمني روك» ثم الى «سكوتس بلاف» و «تورينغتون» ، وبعد ذلك يقع ناظرك عليه . »

ـ « لديّ خرائط الطرُق ، » وكتب ارشاد المسافرين ، وذلك الرجل الذي يهديك الى حيث تتناول الطعام ، ودليل A.A.A الى المعسكرات والفنادق »

ـ « هل تنفقين في هذه الدراسة وقتاً طويلاً ؟ »

ـ « اني اقوم بها في الأمسيات ، مستعينة بالأشياء التي زوّدتني بها . اي نوع من الاجازة سوف يكون لنا ؟ »

ـ « ميسّوري . ولسوف نشتري السيارة في كانساس سيتي . اننا نركب الطائرة الى كانساس سيتي ، ألا تذكرين ؟ أو ربما استطعنا ان نقصد اليها على متن قطار فخم حقاً . »

ـ « لقد حسبتُ اننا ركبنا الطائرة الى آلبوكيرك . »

ـ « كان ذلك في مناسبة اخرى . »

ـ « ولسوف نقف في ساعة مبكرة من الأصيل عند افضل فندق مذكور في دليل .A.A.A ، من تلك الفنادق التي تؤوي السياح وتؤدي سياراتهم ايضاً ، ولسوف أُعدّ لك ايما شراب ترغبين فيه ، وانت تطالعين الصحيفة أو تقرئين مجلة «لايف» او «تايم» أو «نيوزويك» ، في حين اقرأ أنا العدد الجديد من «فوغ» او « هاربرز بازار . »

ـ «اجل ، ولكننا سوف نرجع الى هنا ، أيضاً . »

ـ « طبعاً مع سيارتنا . على باخرةٍ ايطاليّة . افخم باخرة نقع

عليها آنذاك . ولسوف نركب السيارة من جنوا الى هنا مباشرة . »

— « ألا تريدين ان نبيت ليلتنا تلك في ايما مكان ؟ »

— « لماذا ؟ اننا نريد ان نمضي الى بيتنا على التوّ . »

— « واين سيكون بيتنا ؟ »

— « في ميسورنا ان نقرر ذلك في ايما وقت . ان ثمة دائماً عدداً وافراً من البيوت في هذه البلدة . هل تحب ان تقيم في الريف ايضاً ؟ »

— « اجل » ، كذلك قال الكولونيل . « لم لا ؟ »

— « عندئذ يكون في استطاعتنا ان نرى الاشجار حين نستيقظ . أيّ ضرب من الاشجار سوف نرى في هذه الرحلة ؟ »

— « الصنوبر في الأعم الأغلب ، والقطن على ضفاف الجداول ، والرّجاج[1] . انتظري حتى ترَيْ الرجّاج يصفرّ في الخريف . »

— « أنا منتظرة . أين سنقيم في ويبومنغ ؟ »

— « سوف نذهب الى شيريدان ، اولاً ، ثم نقرر بعد ذلك . »

— « هل شيريدان جميلة ؟ »

— « إنها فاتنة . وسنقود السيارة الى حيث جرت معركة عربات نقل البضائع ، ولسوف احدثكِ عن ذلك . ثم نواصل انطلاقنا ، في الطريق الى بيلينغر ، الى حيث قتلوا ذلك المعتوه جورج آرمسترونغ كاستر[2] ، وفي استطاعتك ان ترَيْ شواهد القبور حيث مات القوم جميعاً ، وسأشرح المعركة لك . »

— « سوف يكون هذا رائعاً . اي المدن أشبه بشيريدان : مانتوفا ، أم فيرونا ، ام فيسينزا ؟ »

— « ان شيريدان لا تشبه أياً من هذه . انها قائمة قِبالة الجبال

---

١ – ضرب من الحور .

٢ – Custer جنرال اميركي قاتل الهنود الحمر ١٨٣٩ – ١٨٧٦ . (المعرب)

مباشرة ، مثل سكييو تقريباً . »

– « أهي تشبه كورتينا اذن ؟ »

– « لا ، لا ، هي لا تشبهها بأية حال . ان كورتينا وادٍ في الجبال . أما شيريدان فتقع قبالة الجبال تماماً . وليس ثمة ايما هضاب مُفضِية الى « القرن الكبير » [1] . انها تنبثق سامقةً من النجد . وفي ميسورك ان ترَي « قمة السحاب . » [2]

– « وهل ستتسلقها سيارتنا كما ينبغي ؟ »

– « انا واثق من ذلك . ولكني اوثر ان لا نصطنع ايمـــا سيارة هيدروماتيكية القيادة . »

فقالت الفتاة : « في استطاعتي ان استغني عن ذلك . » ثم انها تماسكت لكي لا تتفجر الدموع من عينيها ، واضافت : « كما استطيع ان استغني عن اي شيء آخر . »

وقال الكولونيل : « ما الذي تشربين ؟ اننا لم نطلب حتى الآن شيئاً ما . »

– « لست احسب انني سأشرب شيئاً . »

فقال الكولونيل للمشربيّ : « كأسين من المارتيني الصِرف ، وزجاجـة ماء بارد . »

ومد يده الى جيبه ، وأدار لولب زجاجة الدواء ثم هزها متناولاً بيده اليسرى اثنين من اقراصها الضخمة . وبعد ذلك أعاد ادارة اللولب والقرصانِ في يده . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير بالنسبة الى رجل ذي يمين معطوبة .

---

١ – Big Horns سلسلة من الجبال في شمال ويومنغ بالولايات المتحدة (المعرب)

٢ – Cloud's peak هي اعلى قمة في سلسلة جبال «القرن الكبير» ويبلغ ارتفاعها ١٣١٦ قدماً. (المعرب)

ـ « لقد قلت اني لا اريد ان اشرب شيئاً . »

ـ « ادري ، يا بنيّتي . ولكني حسبت انك سوف تحتاجين الى كأس . في استطاعتنا ان نبقيها فوق المشرب . او لعل في استطاعتي ان اشربها انا . » ثم اضاف : « ارجوكِ . أنا لم ارِد أن أكون فظاً . »

ـ « نحن لم نسأل عن الزنجي الصغير الذي سيُعنى بأمري . »

ـ « لا . لأني لم أرِد أن أسأل عنه الا بعد ان يعود سيبريياني وأصبح قادراً على دفع ثمنه . »

ـ « أيكون كل شيء صارماً الى هذا الحد ؟ »

فقال الكولونيل : « عندي أنا ، في ما احسب . أنا آسف ، يا بنيّتي . »

ـ « قل يا بنيتي ثلاث مرات في الحال . »

ـ « هيجا Hija ، فيغليا figlia بنيّتي . »

فقالت : « لست ادري . يخيل اليّ ان علينا ان نغادر هذا المكان . انا احب أن يرانا الناس ، ولكني لا اريد أن أرى احداً . »

ـ « العلبة المشتملة على الزنجي موضوعة فوق الآلة الحاسبة . »

ـ « ادري . لقد رأيتها منذ فترة . »

وأقبل المشربيّ حاملاً الكأسين ، مثلوجتَين من برودة الزجاج المثلجة ، والى جانبهما كأس ماء .

وقال الكولونيل : « أعطني تلك الرزمة الصغيرة التي جاءت باسمي ، والموضوعة فوق الآلة الحاسبة . قل لسيبريياني اني سوف ابعث اليه بثمنها على صورة شيك . »

ـ « هل تريدين كأسكِ ، يا بنيتي ؟ »

ـ « اجل ، اذا لم يكن لديك مانع يحول بيني وبين تغيير رأيي أيضاً . »

وشربا ، بعد ان قرعا كأسيهما قرعاً رفيقاً .. رفيقاً الى درجة جعلت احتكاكهما لا يكاد يُلحظ .

ـ « لقد كنتَ على حق » ، كذلك قالت مستشعرة دفئها وقضاءهـا المؤقت على الأسى .

ـ « وكنتِ أنتِ على حق أيضاً » ، وخبأ القرصين في راحة يده .

لقد بدا له ، الآن ، ان أخذهما مع الماء ينمّ عـــن ذوق سقيم وهكذا لم تكد الفتاة تدير وجهها لحظة لتراقب احد المصطبحين يغادر المكان حتى ازدردهما مع المارتيني .

ـ « هل ننصرف ، يا بنيتي ؟ »

ـ « نعم . من غير ريب . »

ونادى الكولونيل المشربيّ وقال : « ما ثمن هاتين الكأسين ؟ ولا تنس أن تخبِر سيبريياني اني سأرسل اليه شيكاً مقابل هذا الهراء . »

٣٨

وتناولا طعام الغداء في فندق «غريتي» ، وكانت الفتاة قد نزعت الغطاء عن الزنجي الأبنوسي الصغير وعلّقته بدبوس على كتفها اليسرى . كان طوله نحواً من ثلاث بوصات ، وكان رائعاً في عينيك اذا كنت مولعاً بمثل هذا الضرب من الاشياء . واذا لم تكن فأنت أبله ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه .

وخاطب نفسه بقوله : ولكن عليك ان تقلع حتى عن مجرد التفكير الفظ ان الواجب يقتضيك الآن ان تكون دمثاً في كل شيء الى ان تلفظ كلمة الوداع . وفكّر : يا لها من كلمة ... كلمة «وداعاً» هذه ! انها تبدو مثل شعار غرامي .

good bye bonne , chance , hasta la vista[1] . لقد كان من دأبنا دائما ان نكتفي بقول merde[2] وينقضي الأمر ان كلمة farewell ، كذلك قال في ذات نفسه ، لفظة حلوة . إن لها في الآذان لوقعاً حسناً ، كذلك فكر ، اذن farewell ،[3] بل farewell طويلة ، تأخذينها معك حيثما تذهبين . والى أقصى درجة ممكنة ، كذلك فكر .

---

١ – هذه التعابير كلها تفيد تمني الخير عند الفراق ، الاولى انكليزية . والثانية فرنسية ، والثالثة اسبانية . (المعرب)

٢ – لفظة فرنسية من معانيها «بئس» و «البراز» و «الغائط» . (المعرب)

٣ – تعبير انكليزي بمعنى «وداعاً» (المعرب)

وقال : « يا بنيتي ! منذ متى قلت لك اني احبك آخر مرة ؟ »

– « ليس منذ ان جلسنا الى المائدة . »

– « اني اقول لك ذلك الآن . »

وكانت قد سرّحت شعرها في أناة عندما وفدا على الفندق ، وكانت قد شخصت الى الحجرة المخصصة للنساء كانت تُبغض تلك الحجرات .

وكانت قد اصطنعت اصبع الشفاه لتكوّن الفم الذي عرفت انــه يحبه اكثر من اي فم آخر ؛ وكانت قد قالت لنفسها وهي ترسم ذلك الفم على الوجه الصحيح : « لا تفكري البتة . وفوق كل شيء لا تحزني لأنــه سوف يمضي الآن لسبيله »

– « انت تبدين جميلة . »

– « شكراً . اني لأحب ان اكون جميلة من اجلك اذا استطعت ، واذا استطعت ان اكون جميلة . »

– « الايطالية لغة حلوة . »

– « اجل ، هكذا كان يظن مستر دانتي . »

وقال الكولونيل : « ايها المايسترو الاعظم . ماذا عندك من طعام في هذه الـ wirtchaft ؟ »

وكان المايسترو الاعظم يلاحظ ، من غير ملاحظة ، في محبة ومن غير حسَد .

– « هل تريد لحماً ام سمكاً ؟ »

فقا الكولونيل : « اليوم يوم سبت ، السمك ليس إلزامياً . وهكذا سوف آخذه . »

فقال المايسترو الاعظم : « إنه سمك موسى . ماذا تريدين يا سيدتي ؟ »

– « ايما شيء تقرره انت . انت أعلم مني بشؤون الطعام ، وأنا أحب كل ما تختاره لي . »

... « اتخذي قراراً ، يا بنيّتي . »

ــ « انا اوثر أن أترك ذلك لمن هو أعلم مني . إن لي شهوة الى الطعام كشهوة تلميذ في مدرسة داخلية . »

ـ « سوف اجعلها لكِ مفاجأة ، » كذلك قال المايسترو الاعظم بوجهه الطويل المحبّ ، وحاجبيه الاشيبين فوق عينين مُقَلْنَسَتَين [1] ووجه سعيد ابداً كوجه الجندي العتيق الذي لا يزال على قيد الحياة ، والذي يقدر هذه الواقعة حق قدرها .

وسأله الكولونيل : « هل لديك أية أنباء عن المنظمة ؟ »

ــ « ليس ثمة شيء باستثناء ان زعيمنا ، إياه ، في محنة . لقد صادروا كل ما يملك أو لقد تدخلوا ، على الاقل . »

ـ « ارجو أن لا يكون ذلك جدّياً . »

ـ « سوف نمنح زعيمنا الثقة . لقد خرج ظافراً من عواصف اسوأ من هذه . »

فقال الكولونيل : « فلنشرب نخب زعيمنا ! »

ورفع كأسه ، التي كانت قد أترعت بخمر فالبوليشيلا حقيقية جديدة مروّقة . واضاف : « إشربي نخبَهُ ، يا بنيّتي . »

فقالت الفتاة : « انا لا استطيع ان اشرب نخب ذلك الخنزير . والى هذا فأنا لست عضواً في المنظمة . »

فقال المايسترو الاعظم : « انت الآن عضو فيها . بفضل الحرب « Por merito di guerra

فقالت : « سوف اشرب نخبه اذن . هل أنا عضو في المنظمة حقاً ؟ »

فقال المايسترو الأعظم : « نعم . انتِ لما تتلقّيْ وثيقة عضويتك ،

---

١ ــ كأن كلا منهما تعتمر بقلنسوة .

ولكني اعيّنك سكرتيرة شرفٍ عليا. أدلِ اليهـــا بأسرار المنظمة، أرجوك، يا زعيمي.»

فقال الكولونيل: «سوف أدلي. أليس حولنا ايّ رجل مجدور؟»

ـ «لا. لقد انصرف مع سيدته. مسّ بيديكر.»

فقال الكولونيل: «حسن، اذن. سوف أدلي بالأسرار. ان ثمة سراً رئيسياً واحداً يتعين عليكِ ان تعرفيه. سدّدني، ايها المايسترو الأعظم، اذا ما تورّطت في خطأ ما.»

فقال المايسترو الاعظم: «هيّا، استهلّ حديثك.»

فقال الكولونيل: «سوف استهل. إنتبهي جيداً، يا بنيّتي. هذا هو السر الأعظم. اسمعي: الحب حبّ والمزاح مزاح. ولكن الهدوء الساجي يرين كلما ماتت السمكة الذهبية.»

فقال المايسترو الاعظم: «لقد أدليَ بها.»

فقالت الفتاة: «انا جد فخورة وسعيدة بأن اكون عضواً في المنظمة. ولكنها، بطريقة ما، منظمة فظة بعض الشيء.»

فقال الكولونيل: «انها كذلك حقاً. والآن، ايها المايسترو الاعظم، ما الذي نستطيع أن نأكله، فعلاً، من غير أسرار؟»

ـ «بعض انشيلادا السراطين، على طريقة هذه البلدة، ولكنها باردة، أولاً. ومسكوبة في الصّدفة. وبعد ذلك تطعَمُ انت سمك موسى، وتطعَمُ سيدتي شيئاً من اللحم المشويّ المخلّط. ما الخضَر التي تفضلها؟»

فقال الكولونيل: «أيما ضرب موجود عندك.»

ومضى المايسترو الاعظم لسبيله، ورنا الكولونيل الى الفتاة، ثم الى القناة العظمى خارج النافذة، ورأى البقـــع السحرية وتغيرات الضوء المضطربة حتى هنا، في أقصى المشرب، الذي كان قد حوّل بيد ماهرةٍ صَناعٍ، الى حجرة طعام، وقال: «هل قلت لك، يا بنيّتي، اني

احبك ؟ »

ـ « انت لم تقل لي ذلك منذ فترة طويلة . ولكني احبك . »

ـ « ما الذي يحلّ بالذين يحبون بعضهم بعضاً ؟ »

ـ « أحسب أنهم يُصيبون ما يصيبونه ، وانهم أعظم سعادة من غيرهم. ثم ان واحداً منهم يستشعر الفراغ الى الأبد . »

فقال الكولونيل : « لن اكون فظاً . كان في ميسوري ان أطلق جواباً خشناً . ولكن ارجوك ، لا تستشعري أيّ فراغ . »

فقالت الفتاة : « سأحاول . ولقد حاولتُ منذ أفقتُ من نومي . بل لقد حاولت منذ أن عرف احدنا الآخر . »

فقال الكولونيل : « تابعي المحاولة ، يا بنيتي . »

ثم التفت الى المايسترو الاعظم ، الذي عاد الى الظهور بعد ان اصدر اوامره ، وقال : « زجاجة من تلك الخمر الصرف Vino secco ، من فيزوف[1] ، من أجل سمكات موسى الصغيرة . ان عندنا خمر الـ «فالبوليشيلا» للأشياء الأخرى . »

فسألته الفتاة : « ألا استطيع أن احتسي خمر فيزوف مع اللحم المشويّ المخلّط ؟ »

فقال : « طبعاً ، يا ريناتا ، يا بنيتي . في استطاعتكِ ان تفعلي اي شيء . »

ـ « انا احب ان احتسي عين المسكرات التي تحتسيها انت ، اذا ما احتسيتُ الخمر . »

فقال لها الكولونيل : « الخمر البيضاء ، الجيدة سائغة مع اللحم المشوي، في سنّكِ . »

ـ « كنت اتمنى لو لم يكن بيننا مثل هذا الاختلاف في السن . »

---

١ ـ بركان «فيزوف» الشهير ، قرب نابولي . (المعرب)

فقال الكولونيل : « أنا احب ذلك كثيراً . » ثم اضاف : « باستثناء .. » ولكنه لم يتم ما كان يريد ان ينصّ عليه . وقال : «فلنكن ناضرَينْ متوردَّينْ كشأننا يوم المعركة fraîche et rose comme au jour de bataille

« من قال هذا الكلام ؟ »

« ليس لديّ اقل فكرة . لقد تلقّفتُهُ يوم تلقّيتُ بعض الدروس في «كلية المارشالات» Collége des maréchaux . انه اسمٌ ينمّ عن شيء من الادعاء . ولكني تخرّجتُ . إن ما اعرفه احسن المعرفة تعلمته من النمساويين .. من دراستي اياهم ومقاومتي لهم . انهم خير الجنود . ولكنهم يضيعون النصر ، دائماً لفرط اجهادهم النفس من اجل الفوز به.»

– « فلنكن مثل ما قلتَ ، وارجوك ان تقول لي انك تحبني . »

فقال : « احبكِ . ذلك شيء تستطيعين ان تثقي به . فأنا أصدُقُكَ القول . »

وقالت : « اليوم السبت ، ما سيكون السبت القادم ؟ »

– « السبت القادم عيدٌ غير ثابت التاريخ ، يا بنيتي . أعطيني رجلا يستطيع أن يحدثني عن السبت القادم . »

– « كان في استطاعتك ان تحدثني لو شئتَ . »

– « سأسأل المايسترو الاعظم ، فلعله يعرف . أيها المايسترو الأعظم ، متى سيقع السبت القادم ؟ »

فقال المايسترو الاعظم : «في الفِصح او في عيد الثالوث الأقدس . »

– « لماذا لا تصلنا من المطبخ اية روائح تنعشنا ؟ »

– « لأن الريح تهب من الوجهة المعاكسة . »

أجل ، كذلك قال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه . ان الريح تهب من الوجهة المعاكسة ، وكم كان خليقاً بي أن اسعد لو حظيت بهذه الفتاة بدلاً من تلك المرأة التي ادفع لها نفقةً ، والتي عجزت حتى عن انجاب ولد . لقد أجّرَتْ نفسها من اجل ذلك . ولكن من ذا الذي

يجب ان ينتقد «أنابيب» الآخر ؟ انـــا لا انتقد غير «غودريتش» ، او «فايرستون» او «جنرال . »

وقال لنفسه : احتفظ بنظافة تفكيرك . وأحِبّ فتاتك .

كانت الآن الى جانبه ، تتمنّى لو تُحَبّ ، اذا ما كان لديه شيء من الحب يمنحه .

وعاودَتْه ، كما عاوَدتْه دائماً ، عندما رآها ، وقال : « كيف انتِ بشعر جنـــاح الغراب وبالوجه الذي يكسر القلب ؟ »

– « انا في أحسن حال . »

فقال الكولونيل : « ايها المايسترو الاعظم . أنفحنـا ببعض الروائح أو بشيء من مطبخك الخلفيّ المحجوب ، حتى ولو كانت الريح ضدنا . »

كان بواب الردهة قـــد تلفن ، بأشارة من بواب الفندق ، وكان الزورق البخاري هو عين ذلك الذي امتطيا متنه من قبل .

وكان جاكسون في الزورق ، ومعه الامتعـــة والصورة الزيتية ، ملفوفة على نحو حسن محكم . وكانت الريح لا تزال تهب عاصفة .

وكان الكولونيل قد دفع فاتورته ومنح البخاشيش المناسبة . وكان مستخدمو الفندق قـــد حملوا الامتعة والصورة الى الزورق ورأوا ان جاكسون قد استوى قاعداً فيه . ثم انقلبوا الى الفندق .

وقال الكولونيل : « حسناً يا بنيتي . »

– « ألا استطيع أن أمضي معك الى المرأب ؟ »

– « سوف يكون الوضع على مثل هذا السوء في المرأب . »

– « ارجو أن تجيز لي ركوب الزورق الى المرأب . »

فقال الكولونيل : « حسن جداً . انها فرصتك المتاحة ، حقاً . إنزلي . »

ولم يتحدثا قط . وكانت ريحاً خلفية بحيث بدا ، أيا ما كانت السرعة التي انطلق بها المحرك العجوز التالف ، وكأنه لم يكن ثمة ريح البتة .

وعند المهبط ، حيث راح جاكسون يدفع الامتعة الى احد الحمالين ويُعنى بالصورة الزيتية بنفسه ، قال الكولونيل : « هل تريدين ان تقولي لي كلمة الوداع هنا ؟ »

– « أيتعين علي ذلك ؟ »

– « لا . »

– « هل تسمح لي أن امضي الى مشرب المرأب ريثما تنزلون السيارة ؟ »

ـ « سوف يكون هذا أشد سوءاً . »

ـ « لست ابالي . »

ـ « إحمل هذه الاشياء الى المرأب وكلّف شخصاً ما بالمحافظة عليها ريثما تُنزل السيارة » ، كذلك قال الكولونيل لجاكسون . « افحص بنادقي واحزم هذه الاشياء بحيث تُبقي أكبر حيّز ممكن في المقعد الخلفي . »

فقال جاكسون : « سمعاً وطاعة ، يا سيدي . »

وسألته الفتاة : «أنا ذاهبة اذن ؟ »

فقال لها الكولونيل : « لا . »

ـ « لماذا لا استطيع ان اذهب ؟ »

ـ « انت تعرفين جيداً . انك غير مدعوة . »

ـ « لا تكن خبيثاً ، ارجوك . »

ـ « يا للمسيح ! ليتك ، يا بنيتي ، تعرفين كم احاول ان لا اكون كذلك . إنه لمن اليسير على المرء ان يكون خبيثاً . والآن ، فلندفع الى هذا الرجل اجرته ، ولنمض فنجلس على المقعد الذي هناك ، تحت الشجرة . »

ودفع الاجرة الى صاحب الزورق البخاري وقال له انه لم ينسَ ما كان قد وعدَهُ به من تزويده بمحرك سيارة « جيب » . وقال له ان لا يتكل عليه كل الاتكال ، ولكن أمله كبير في أن يوفق الى الفوز بالمحرك .

ـ « سوف يكون محركاً مستعملا . ولكنه سيكون خيراً من ركوة القهوة هذه التي تدير زورقك الآن . »

وارتقيا درجات السلم المبرِيَّة ، ومشيا عبر الحصى ، وجلسا على مقعد تحت الاشجار .

كانت الاشجار سوداء ، وكانت تتمايل مع الريح ، ولم يكن عليها اوراق البتة . كانت الاوراق قد تساقطت في وقت مبكر ، تلك السنة ،

وكانت قد كُنِست منذ عهد بعيد .

وأقبل رجلٌ فعرض عليها شراء بعض البطاقات البريدية ، ولكن الكولونيل قال له : « اغرب من هنا ، يا بنيّ . لسنا الآن في حاجة اليك . »

كانت الفتاة تبكي ، اخيراً ، برغم أنها كانت قد عقدت العزم على ان لا تبكي ابداً .

وقال الكولونيل : « انظري ، يا بنيّتي . ليس ثمة شيء نقوله . إنهم لم يضعوا «ممتصّات الصدمات» في هذه العربة التي نركبها الآن . »

فقالت : « لقد كَفَفْتُ عن ذلك . انا لست هستيرية المزاج . »

— « لست انزع الى القول انكِ كنتِ كذلك لا ، يخيَّل اليّ أنك أبهى فتاة ، وأجمل فتاة ، قدّر لها أن تحيا على ظهر هذه الارض . في ايما زمان . وايما مكان . »

— « لو صحّ هذا فأيّ فرق يُحدثه ؟ »

فقال الكولونيل : « لقد غلبْتِني في ذلك . ولكنه صحيح . »

— «والآن ما الذي سنفعله ؟ »

— «الآن سوف ننهض ، ونتبادل القُبَل ، ونقول وداعاً ! »

— « وما ذاك ؟ »

فقال الكولونيل : « لست ادري . يخيّل الي أنه احد الأشياء التي يتعيَّن على كل امرىء أن يتصورها بنفسه . »

— « سأحاول أن أتصوره »

— « ليس عليك إلا أن تهوّني عليك ، جهد طاقتك ، يا بنيّتي . »

فقالت الفتاة : « اجل ، في العربة غير المزوّدة بممتصات صدمات ! »

— « لقد كنتِ طعاماً للعربة القلابة [1] منذ البدء . »

— « ألا تستطيع أن تفعل ايما شيء بلطف ودماثة ؟ »

---

١ — هي العربة التي كانت تنقل ضحايا الثورة الفرنسية الى المقصلة (المعرب)

- « احسب اني لا استطيع . ولكني حاولت . »

- « ارجوك ان تواصل المحاولة ذلك هو كل الأمل الذي لنا . »

- « سوف اواصل المحاولة . »

وهكذا شدّها اليه وشدته اليها في احكام ، وتبادلا القبَل في قوة وحرارة ، وقاد الكولونيل الفتاة عبر المجاز المفروش بالحصى ومن ثم الى السلم الحجرية .

- « يتعين عليكِ أن تأخذي زورقاً جيداً . لا ذلك الزورق البخاري العتيق ذا المحرك المنفيّ من وطنه . »

- « اني لأوثر ان آخذ الزورق البخاري العتيق اذا لم يكن لديك مانع . »

فقا الكولونيل : « مانع ؟ لست انا من يمانـــع . انا اصدر الاوامر وأطيع الأوامر ليس غير . لا ، لستُ امانع . وداعـــاً ، يا حلوتي العزيزة الفاتنة ! »

فقالت : « وداعاً ! »

٤٠

كان في البرميل السندياني الغائر الذي كان من دأبهم ، في البندقية ، أن يتخذوا منه حجاباً واقياً . والحجاب الواقي هو كل أداة تصطنعها لكي تخبىء القانص عما يحاول أن يقنصه . اي عن البط في هذه الحالة .

كانت رحلة ماتعة مع الفتية ، منذ أن التقوا في المرأب ، وليلةٌ سعيدة مع طعام ممتاز مَطهُوٍّ في المطبخ ذي المستوقد العتيق المكشوف . وركب ثلاثةٌ من القناصة في المقعد الخلفي ، في طريقهم الى موطن القنص . وكان الذين لم يكذبوا قد اجازوا لأنفسهم مقداراً من المبالغة ، على حين كان الكذابون في أوج ازدهارهم .

ان الكذاب ، في اوج ازدهاره ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه ، بديعٌ مثل شجرات الكرز ، او شجرات التفاح ، حين تكون منوّرة . ومن ذا الذي ينزع الى تثبيط كذاب من الكذابين ، كذلك فكر ، إلا اذا كان يعين لك موقع نقطة او خط وما اليهما ؟

كان الكولونيل قد جمع الكذابين طوال حياته ، كما يجمع بعض الناس طوابع البريد . انه لم يصنّفهم الا موقتاً ، ولم يكنزهم في حرصٍ حريص . لقد اكتفى بمجرد الاستمتاع ، على نحو كامل ، بسماعهم يكذبون في اللحظة العابرة ، الا اذا شمل الكذب شيئا ذا صلة بالواجب ، طبعاً. والليلة البارحة راجت للكذب الصالح سوق حسنة بعد أن اديرت الـ « غرابّا» ؛ ولقد استمتع الكولونيل بذلك .

وكان الدخان المنبعث من نار الفحم المكشوفة قد انتشر في الحجرة ؛ لا ، لقد كان ثمة حطب ، كذلك قال في ذات نفسه . وعلى اية حال ، فالكذاب يكذب على النحو الأفضل حين يكون ثمة قليل من الدخان، او حين تكون الشمس قد توارت بالحجاب .

وكان هو نفسه قد حاذى الكذب مرتين اثنتين ، ثم استعصم ، واجتزأ بمجرد المبالغة اني ارجو هذا ، كذلك فكر .

والآن ها هو ذا اللاغون [1] المتجمد الذي يفسد كل شيء . ولكنه لم يُفسِد شيئاً .

وفجأة اقبل زوج من البُلبُول [2] ، من لا مكان ، وانحدرا بسرعة في ضرب من الغَوْص لم تقم بمثله ايما طائرة من الطائرات في ايما يوم ، وسمع الكولونيل مسارهما الرائش وقتل الذَّكر . لقد انطرح الطائر الصريع على الجليد مرتطما بـه كأقسى ما تستطيع بطة أن ترتطم بالجليد . وقبل أن يمسّ الأرض كان الكولونيل قد قتل انثاه ، التي كانت تصعّد طويلة العنق مسرعة .

لقد سقطت في محاذاة الذكر

واذن فهذه جريمة قتل ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . وايّ شيء ليس جريمة قتل في هذه الأيام ؟ ولكنك لا تزال قادراً ، ايها الغلام ، على اطلاق النار . يا للجحيم ، ايها الغلام ، كذلك فكر . ايها النغل العجوز البالي . ولكن أنظر اليها الآن وهي تُقبل .

كانت من ذلك البط المعروف بالبط الأصلع ، ولقد أقبلت في سرب

---

١ – Lagoon المستنقع او البحيرة الضحلة ، وخاصة ما اتصل منها بالبحر والنهر أو كان قريباً منها . (المعرب)

٢ – pin- tail وهو نوع من البط . (المعرب)

تراصّت وَحَداتهُ ثم انتشرت على غير طائل ، ثم تراصّت من جديد وشرعت البطة الخادعة التي على الجليد تتحدث اليها .

وقال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه : دعها تستدير كرة اخرى . أبقِ رأسك منكساً ولا تحرك حتى عينيك . انها تعتزم أن تفِد .

ووفدت على خير وجه ، وقد تحدّث الخداع اليها .

وفجأة مالت أجنحتها الى الهبوط كشأنك حين تخفض أهداب شراع . ثم انها رأت انها انما تحط على جليد فنهضت ، مصعّدة .

ونهض القانص — الذي لم يكن الآن كولونيلاً ، او ايما شيء آخر غير صيّاد بندقية في البرميل الخشبي وأصاب بناره بطتين . لقد سقطتا على الجليد بمثل الصلابة التي تسقط بها البطات الضخام تقريباً .

وقال الكولونيل : « حسبي اثنان من اسرة واحدة . أم انها كانت قبيلة واحدة ؟ »

وسمع الكولونيل طلقة وراءه ، من حيث كان يعرف أنه لم يكن ثمة اي حجاب آخر واقٍ ، فالتفت لينظر عبر اللاغون المنجمد الى الشاطىء البعيد المكتنَف بنبات الحلْفاء .

إن هذه لتؤلف قبيلة ، كذلك فكـّر .

كان سِرْب من البط البري ، الوافد على ارتفاع منخفض ، يحلّق في السماء محنَقا غاضباً ، وقد بدت كل بطة منه في تصعيدها ، وكأنها واقفة على ذيلها .

وبصُر بواحدة تهوي ، ثم سمع طلقة اخرى

كان المراكبيّ النكد يطلق النار على البطات التي كان خليقاً بها أن تفِد على الكولونيل .

وقال الكولونيل : « كيف ، كيف أجاز لنفسه ان يفعل ذلك ؟ »

كانت لدى الرجل بندقية رشٍّ يطلق منها النار على أيما طائر أعرج يفر بنفسه الى حيث لا يستطيع الكلب أن يمسك به . وكان اطلاقه

النار على البطات الوافدة على حجاب الكولونيل الواقي يُعتَبر ، في القنص، اسوأ شيء يستطيع امرؤ أن يغيظ به امرءاً آخر .

وكان المراكيّ أبعد من أن يسمع أيما صيحة . ومن اجل ذلك أطلق الكولونيل النار تجاهه مرتين . ان الشقة ابعدُ من ان تجتازها الرصاصات الصغار ، كذلك فكّر ، ولكنه سوف يعرف على الأقل أني اعلم ما يفعل . علام هذا كله ، بحق الجحيم ؟ وفي قنص رائع التنظيم مثل هذا ايضاً ؟ ان هذا القنص خير قنوص البط التي أتيحت لي عمري كله حسْنَ تنظيم وبراعة تدبير . ولقد استمتعت هنا بالقنص اكثر مما استمتعت به في ايما يوم من ايام حياتي . فما الذي عرا ابنَ العاهرة ذاك ؟

كان يعلم مدى الغضب الذي استبد به . وهكذا أخذ اثنين من الاقراص ، وازدردهما بشربة من «جن» غوردون من قارورته ؛ اذ لم يكن ثمة ماء .

وكان يعرف ان الـ «جن» يؤذيه . وقال في ذات نفسه : كل شيء يؤذيني ما عدا الراحة وبعض التمرينات الرياضيات الخفيفة جداً . حسن ، الراحة والتمرينات الرياضية الخفيفة ، ايها الغلام . هل تحسب هذا تمريناً رياضياً خفيفاً ؟

أنتِ يا تمثال الجمال ، كذلك قال في ذات نفسه . لشدّ ما أتمنى لو كنتِ هنا الآن ، ولو كنا ضمن الحجاب المزدوج ، ولو استطعنا ان نستشعر أعقاب منكبَينا تتماسّ وتتلاقى ! إذن لكان خليقاً بي أن التفت وأرنو اليكِ ، وإذن لسدّدتُ النار الى البطات المحلقات تسديداً موفقاً، إظهاراً لبراعتي وتباهياً بها ، وإذن لحاولت أن أسقِط واحدة منها في الحجاب الواقي من غير أن أدعَها تمسُّكِ . سوف احاول ان أسقِط واحدة هكذا ، كذلك قال ، سامعاً حفيف الأجنحة في الهواء . ونهض

واستدار ، وبَصُر بالذكر المفرد ، طويل العنق وسياً ، وقد صفق بجناحيه مندفعاً في سرعة مرتحلاً نحو البحر . لقد رآه رشيقاً جليا وفي السماء وقد بدت الجبال وراءه . وواجهه ، وسدّد بندقيته اليه ، وضغط على زنادها ، فيما كان يرتد الى الوراء ما وسعه الارتداد .

وهوى ذكر البط على الجليد ، خارج حدود الحجاب الواقي تماماً ، ولقد كسر الجليد عندما هوى . كان هو ذلك الجليد الذي سبق ان كُسِر لاقتلاع الطيور الخشبية الخادعة ، وكان قد انجمد كرة اخرى انجماداً خفيفاً . ونظرت البطة الداعية اليه وهو ينطرح على الجليد ، وازاحت قدميها .

وقال الكولونيل للبطة : « أنتِ لم تريه في حياتكِ قط من قبل ، بل لست أعتقد انك رأيتهِ يُقبل . برغم انك ربما رأيتهِ . ولكنك لم تقولي شيئاً . »

كان ذكرُ البط قد هوى ناكس الرأس ، وكان رأسه تحت الجليد . ولكن الكولونيل استطاع ان يلمح الريش الشتوي الجميل على صدره وجناحيه .

لشدّ ما أتمنى لو اقدم اليها صورة مصنوعة من كامل ريش البط ، على نحو ما كان اهل المكسيك القدامى يفعلون تزييناً لآلهتهم ، كذلك قال في ما بينه وبين نفسه . ولكني احسب ان هذه البطّات يجب ان تمضي الى السوق ، ولن يكون ثمة من يعرف كيف يسلخها ، وكيف يدبغ جلودها على اية حال . ومع ذلك ، فخليق بتلك الصورة ان تكون جميلة ، وقد جُعل ظهرها من جلد ذكور البط البري ، ورُسم على صدرها غصنٌ طريٌ موشّحٌ بخطّين طوليّين من جلد الحذَف [1] الشتوي . وكل خط منها ينحدر فوق واحد من الثديين . انها سوف تكون صدرة فاتنة الى حد جهنمي ! أنا على اتم اليقين من انها سوف تعجبها .

---

١ – ضرب من البط البري .

وفكّر الكولونيل : اني لأتمنى لو تطير . إن بعض البطات الحمقاوات قد تَفِد . ويتعين عليّ أن أبقى مستعداً لها اذا ما فعلَتْ . ولكن أيّاً منها لم تفِد . فكان عليه ان يفكر .

ولم تنطلق من الحُجُب الاخرى اية طلقات نارية ، على حين انطلقت بين الحين والحين ، من البحر طلقات معدودات .

ومع سطوع الضياء امسى في استطاعة الطير أن ترى الجليد ، فكفّت عن الوفود منطلقة - بدلاً من ذلك - الى عرض البحر لكي تشكل طوفاً عائماً . وهكذا لم يعاود اطلاق النار ، وأنشأ يفكر من غير قصْد ، محاولاً ان يكتشف ما الذي اوقع في قلبه حبها ، أول ما أوقعه . لقد عرف أنه لا يستحقه ، ولقد قبله بقبول حسن ، وعاش به ، ولكنه حاول - دائماً - أن يفهمه .

لقد كان السبب في ذلك ، مرةً ، جنديين من جنود الاسطول ، فيما كان يتمشى مع الفتاة في مَوهن من الليل . كانا قد «عاكساها» بالصفير ، وكان هذا - كذلك فكر - شيئاً لا ينطوي على كبير أذىً ، وكان عليه ان يغضّ الطرف عنه .

بيد انه كان في ذلك الصفير معنى لا يدعو للارتياح . لقد أحس به قبل أن يعرفه . ثم عرفه معرفة اليقين ؛ ذلك بأنه وقف تحت مصباح ما لكي يكون في ميسورهما أن يريا ما الذي يزّين كتفيه ، عساهما يمضيان الى الجانب الآخر من الطريق .

كان ما زيّن كتفيه نسراً صغيراً مبسوط الجناحين . كان مطرّزاً على السترة التي ارتداها بخيط فضيّ . انه لم يكن جليا ، ولقد كان ثمة منذ عهد بعيد . ولكنه كان مرئياً .

وصَفَر الجنديان البحريان كرة اخرى .

وقال الكولونيل للفتاة : « إبقَيْ هنا في محاذاة الجدار اذا كنت راغبة في رؤية ما سيحدث ، وإلاّ أشيحي بوجهك . »

- «إنهما ضخمان فتيّان .»

- «لن يظلا ضخمين طويلاً ،» كذلك وعدها الكولونيل .

وتقدم الكولونيل نحو الصافرَين .

وسألهما : «أين خفَركما الساحلي ؟ .»

فقال اضخم الرجلين : «ومن أين أعلم ؟ كل مـــا اريده هو نظرة طويلة الى السيدة .»

- «هل لأمثالكما من الناس أسماء وأرقام متسلسلة ؟»

- «وكيف لي أن أعرف ؟» كذلك قال واحد منهما .

وقال الآخر : «حتى لو عرفت لما انبأت بذلك كولونيلاً غِراً .»

إنه جندي عتيق ، كذلك فكر الكولونيل قبل أن ينقض عليه . محامٍ بحري . يعرف حقوقه كلها .

ولكنه لكمه بيسراه لكمات قاسية ، ولكمه ثلاث مرات فيما هـــو ينصرف لسبيله

امـا البحري الآخر ، الصافر الأول ، فردّ على الكولونيل بضربات مكينة ، بالنسبة الى رجل ثمِل ، فأقحم الكولونيل مرفقه في فمه ، ثم سدد اليه - على ضوء المصباح - لكمة قوية بيده اليمنى . حتى اذا تم له ذلك نظر الى الصافر الثاني ، ورأى ان كل شيء حسن .

ثم انه لكمه بيسراه ، وغرس ذراعه اليمنى في جسده ، وبعد ذلك سدد اليه بجمع كفه الأيسر لكمة اخرى ، ثم استدار ، وتقدم نحو الفتاة ، لأنه لم يرد ان يسمع الرأس يرتطم بحصباء الطريق .

وألقى نظرة على الذي تلقّى لكماته أولاً ولاحظ انه يرقد في سلام ، ناكس الذقن ، وان الدم كان يتفجر من فمه . ولكنه كان لا يزال طبيعياً ، كذلك قال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه .

وقال للفتاة : «حسناً ، هكذا تضيع حياتي أياً ما كان معنى ذلك . ولكن هؤلاء الناس يرتدون سراويل مضحكة .»

فسألته الفتاة : « كيف انت الآن ؟ »

- « انا في حالة رائعة . هل شهدت المعركة ؟ »

« نعم . »

- « سوف أشكو ألماً في اليدين غداً صباحاً ، كذلك قال الكولونيل شارد الذهن . « ولكني أحسب ان في استطاعتنا ان ننأى بنفسينا عن هذا المكان . ولكن فلنمشِ على مهل . »

- « ارجوك ان تمشي على مهل . »

- « انا لم اقصد الى ذلك . لقد قصدت ان اقول : يحسُن بنا أن لا نتعجل الرحيل . »

- « سوف نمشي بأبطأ ما يستطيع شخصان أن يتحدثا . »

ومشيا على ذلك النحو .

- « هل تريدين أن تقومي بتجربة ما ؟ »

- « طبعاً . »

- « فلنمشِ بحيث تبدو حتى أعقابُ أقدامنا خطرةً مخيفة . »

- « سأحاول . ولكني لا احسب انيِ أستطيع ذلك . »

- « حسن . فلنكتف بمجرد المشي اذن . »

- « ولكن ألم يسدّدا إليك ضربة ما ؟ »

- « أجل ، ضربة قوية واحدة خلف الأذن تماما . سدّدها اليّ الغلام الثاني حين أقبل . »

- « أعلى هذا النحو يجري القتال ؟ »

- « حين يكون المرء محظوظا . »

- « وحين يكون غير محظوظ ؟ »

- « عندئذ تلتوي ركبتاكِ أيضا . إما الى الأمام وإما الى الوراء . »

- « ألا تزال تبالي بي بعد أن خضت غمار تلك المعركة ؟ »

– « انا احبك الآن اكثر مما احببتكِ من قبل بكثير ، اذا كان ذلك ممكناً . »

– « أهو أمر متعذر ؟ لو أمكن هذا اذن لكان رائعاً ! لقد أصبحتُ احبك اكثر منذ رأيت ذلك الشيء . أسائرةٌ أنا ببطء كافٍ ؟ »

– «أنتِ تسيرين مثل أيّل في الغابة ، وفي بعض الاحيان تسيرين مثل ذئب ، او مثل قيُّوط[1] ضخم عجوز حين لا يكون مُعجَلاً . »

– « لست متأكدة من اني احب ان اكون قيُّوطاً ضخماً عجوزاً . »

فقال الكولونيل : « انتظري حتى ترَيْ واحداً . وعندئذ سترغبين في ان تكوني مثله . انت تسيرين مثل جميع الحيوانات الضارية الكبرى حين تسير في رفق . ولستِ انتِ بحيوانٍ ضارٍ . »

– « هذا شيء استطيع ان اعِدك به . »

– « تقدميني في المشي ، بعض الشيء ، حتى أستطيع ان ارى . »

ومشت أمامه ، فقال الكولونيل : «انت تسيرين مثل بطل رياضي قبل ان يصبح بطلاً رياضياً . ولو قد كنتِ فرساً اذن لاشتريتكِ ولو تعين عليّ أن اقترض المال بفائدة مقدارها عشرون بالمئة في الشهر الواحد . »

– « لن يتعين عليك أن تشتريني . »

– « اعرف ذلك . لم يكن هذا هو موضوع نقاشنا . كنا نتحدث عن مشيتكِ . »

فقالت : «قل لي ما الذي سيحل بذينك الرجلين ؟ هذا واحد من الاشياء التي لا اعرفها عن القتال . ألم يكن من واجبنا أن نبقى ونُعنى بهما ؟»

فأجابها الكولونيل : « لا ، على الاطلاق . تذكـّري هذا : على الاطلاق . ارجو ان يتقاسما صدمة عنيفة . ان في استطاعتهما ان يُنتِنا . انهما هما اللذان سببا الحادث . وليس ثمة قضية من قضايا المسؤولية المدنية . لقد

---

١ – cayote ضرب من الذئاب الاميركية . (المعرب)

كنا كلنا مؤمنين . ليتني استطيع ان اخبرك شيئاً واحداً ، يا ريناتا ، عن القتال ! »

– « اخبرني ، ارجوك . »

– « اذا ما قدّر لكِ ، ذات يوم ، ان تقاتلي فعندئذ يتعين عليكِ ان تكسبي المعركة . هذا هو الشيء الوحيد ذو القيمة . وكل مـــا بقي فهو كرنب او ملفوف ، كما عبّر صديقي القديم الدكتور روميل . »

– « هل احببت روميل حقاً ؟ »

– « حباً جماً . »

– « ولكنه كان عدوّك . »

– « انا احب اعـدائي ، في بعض الأحيان اكـــثر من اصدقائي . الاسطول كما تعلمين ، يكسب جميع المعارك التي يخوضها. ذلك شيء تعلّمته في مكان يدعى مبنى البانتاغون[1] ، عندما كان لا يزال مجازاً لي أن أدخل ذلك المبنى من الباب الامامي . ان في استطاعتنا ، اذا شئتِ ، ان نتمشى عائدين في هذا الشارع ، او ان نجتازه في سرعة ونطرح هذا السؤال على ذينك الرجلين . »

– « اصدُقكَ القول ، يا ريتشارد . لقد رأيت من القتال مقـــداراً يكفيني لهذة الليلة . »

– « وأنا ايضاً ، اذا اردت ان اصدُقكَ القول . » قـــال الكولونيل ذلك ، ولكنه قاله بالايطالية ، ولقد استهل كلامه بـ Anche io[2] ثم أضاف : «دعينا نذهب في جملة الأماكن التي نذهب اليها الى فندق هاري ، وبعد ذلك سأوصلك سيراً على الاقدام الى بيتك . »

---

١ – هو المبنى الذي يضم معظم دوائر الجيش الاميركي ، (المعرب)

٢ – وتعني بالايطالية: «وانا ايضاً»(المعرب)

— « ألم تؤذِ يدك المعطوبة ؟ »

فأوضح قائلاً : « لا . لقد قذفتُ بها مرةً الى الرأس ليس غير . أما في المرات الأخيرة فقد لكمتُ بها الجسد . »

— « هل تجيز لي ان المسها ؟ »

— « إذا وَعدِتني بلمسها في رفق . »

— « ولكنها متورمة على نحو رهيب . »

— « ليس فيها ايما شيء مكسور ؛ وهذا الضرب من الورم من دأبه دائماً ان يتطامن[1] . »

— « هل تحبني ؟ »

— « نعم . انا احبك بيدين متورمتين في اعتدال ، وبكل قلبي . »

---

١ – ينخفض وتزول حدته .

٤١

واذن فقد كان ذلك الحادث، وربما كان ذلك اليومُ او ربمـــا يومٌ آخر، هو الذي اجترح المعجزة.[١] انك لم تكن في أيما يوم واثقاً من هذا، كذلك قال في ذات نفسه. كانت المعجزة الكبرى قائمة، ولم يكن هو قد عمل على تحقيقها شعورياً، البتة. لا، ولكنك يا ابن العاهرة، كذلك فكر، لم تقاومها قط.

كان الجو ابرد منه في ايما وقت مضى، وعاد الجليد المحطّم فـانجمد كرة اخرى، ولم ترفع البطة المغرّرة حتى بصرهـــا الآن. كانت قد هَجَرت الخداع، في محاولة التماس السلامة.

يا لكِ من عاهرة، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. برغم ان هذا ظلم.. انها حرفتكِ. ولكن ما الذي يجعل البطة اقدر على التغرير من ذكر البط؟ ذلك امرٌ ينبغي ان لا يغيب عن فطنتك، كذلك قال في ذات نفسه. وحتى هذا غير صحيح. ولكن ايّ شيء، بحق الجحيم، هو صحيح؟ ان ذكور البط، في الواقع، أقدر على التغرير والخداع.

والآن لا تفكر فيها. لا تفكر في ريناتا، لأن ذلك لن يعود عليك بأي خير، أيها الغلام. بل انه قد يكون مؤذياً لـك ايضاً. ثم انك قلت لها كلمة الوداع. وما اروعها من كلمة وداع! كانت كاملة بكل ما

---

١ – يقصد معجزة حبها له. (المعرب)

في الكمال من معنى . ولقد كان خليقاً برينانا أن تصعد معك ايضا الى العربة القلابة اللعينة . ما دامت عربة قلابة حقيقية . إنها صناعة جد وعرة ، كذلك قال في ذات نفسه ، ان يحب المرء ثم يرحل . فالناس قد يصابون من جراء ذلك بأذى .

من الذي اعطاك حقاً في معرفة فتاة مثل هذه ؟

لا احد ، كذلك اجاب . ولكن آندريا قدمني اليها .

ولكن كيف استطاعت ان تحب ابن عاهرة كئيباً مثلك ؟

لست ادري ، كذلك فكر صادقاً مع نفسه . اني ، في الحق ، لست ادري .

انه لم يكن يدري ، في جملة ما كان يجهله ، ان الفتاة احبته لأنه لم يكن في ايما صبح من أصباح حياته محزوناً ، سواء أكان ثمة هجوم أم لم يكن ثمة هجوم . لقد ذاق الألم المبرّح والأسى . ولكنه لم يكن في ايما يوم من الايام محزوناً في الصباح .

ان الألم والأسى نادراً ما يجعلان المرء كذلك . ولقد عرفت الفتاة، برغم انها كانت فتاة صغيرة ، واحداً من هؤلاء عندما رأت واحداً .

وقال الكولونيل في ذات نفسه : انها الآن في البيت ، مستسلمة للرقاد . ذلك هو المكان الذي ينبغي لها أن تكون فيه ، لا في أي من حُجُب الصيد اللعينة هذه ، وقد انجمدت الطيور الخشبية الخادعة من حولنا .

ومع ذلك ، فلشدّ ما أتمنى لو انها كانت هنا ، لو كان هذا الحجاب الواقي مزدوجاً ، ولشد ما اتمنى لو كانت الى جانبي ترنو الى الغرب ، لحظة وفَد سرب من اسراب البط . ولسوف يكون كل شيء جميلا اذا ما استشعَرَتْ دفئاً كافياً ، ومن يدري ، فلعلي استطيع ان اشتري

من امرىء ما احدى هذه السترات الحقيقية التي لم يبِعها قط احدٌ ممن فاز بها . تلك السترات التي وزعوها ذات يوم ، خطأ ، على رجال سلاح الطيران .

في استطاعتي ان اكتشف طريقة تضريب تلك السترات ، وان اصنعَ واحدةً من جلد البط المصيد هنا ، كذلك قال في ذات نفسه . ولسوف اعهد في تفصيلها الى خياط بارع ، ولسوف نجعلها بصفّيْ أزرار ، من غير ما جيب في الجانب الأيمن ، ونضع فوقها عصابة صيد من جلد الشّموة لكي لا يعلق عقِبُ البندقية بها البتة .

سوف اصنعها ، كذلك قال مخاطباً نفسه . سوف اصنعها ، وإلا اخذت واحدة من بعض الجان وفصّلتها لها . ولكم اتمنى لو آتيها ببندقية جيدة من نوع بوردي عيار ١٢ ، ليست بالخفيفة الى حد لعين اكثر مما ينبغي ، أو بزوج من نوع « بوس » احداهما فوقيّة والأخرى تحتيّة . يجب ان ازوّدها ببنادق لا تقل جودةً عنها هي ؛ أنا احسب ان زوجاً من بوردي هو خير ما ازوّدها به ، كذلك فكّر .

وفي تلك اللحظة بالذات سمع حفيف الأجنحة الرفيق ، وهي تصفّق في الهواء خفيفةً رشيقة . فنظر الى فوق . ولكنها كانت محلقةً اكثر مما ينبغي . لقد نظر الى فوق بعينيه ليس غير . ولكنها كانت من الارتفاع بحيث استطاعت ان ترى البرميل وتراه هو فيه وترى الطيور الخشبية الخادعة المنجمدة مع البطة المكتئبة التي رأت هي ايضاً البطات المحلّقة فراحت تبطبط بقوة في مخادعتها الوفيّة . أما البطات ، وكانت من بط البُلبول ، فواصلت طيرانها نحو البر .

★ ★ ★

أما لم أعطها في أي يوم شيئاً ، كما لاحظتْ هي ذات مرة . كان

ثمة رأس المغربي الصغير . ولكن هذا لا يفيد ايّ معنى . انها هي اختارته وانا اشتريته . وليست هذه هي الطريقة التي تقدّم بها الهدايا .

ان ما احب ان اقدمه اليها هو الأمن ، الذي لم يعد يوجد البتة ؛ كلّ حبي ، الذي هو شيء تافه ؛ كل ممتلكاتي الدنيوية ، التي هي شيء لا وجود له عملياً باستثناء بندقيتي صيد جيدتين ، وبذلاتي العسكرية ، والمداليات والاوسمة مع الاشارات بالبسالة وبعض الكتب . وراتب كولونيل متقاعد ايضاً .

إني أَهبُكِ كل ممتلكاتي الدنيوية ، كذلك قال في ذات نفسه .

ولقد اعطتني هي حبها . وبعض الحجارة الصلبة ، التي ارجعتُها ، والصورة الزيتية . حسناً ، ان في ميسوري دائماً أن أُرجع الصورة اليها . كان في امكاني ان اقدّم اليها خاتمي من V-M-I ، كذلك فكر ، ولكن اين بحق الجحيم أضعتُ ذلك الخاتم ؟

انها لن تكون في حاجة الى وسام «صليب الخدمة الممتازة» (D.S.C) مع نموذجه المعدني او الى مداليات وطنها . لا ، ولا الى مداليات فرنسة أو مداليات بلجيكة . او المداليات الزائفة . اذ لو احتاجت اليها لدل ذلك على انحراف عقلي .

من الخير لي ان أهَبها حبي ليس غير . ولكن كيف تستطيع ، بحق الجحيم ، ان تبعث به اليها ؟ وكيف تبقيه غضاً طرياً ؟ انهم لا يستطيعون ان يرزموه بجليد جافّ .

لعلهم يستطيعون . يتعين عليّ ان استطلع ، ولكن أنـّى اجيء بمحرك الـ «جيب» اللعين ذاك الذي وعدتُ به ذلك الرجل العجوز ؟

حُلّ عُقدة هذا ، كذلك قال في ذات نفسه لقد كان حَل عُقِد الأشياء هو صناعتك . ثم أضاف حلُّ عُقد الاشياء حين كان العدو يطلق النار عليك .

كنت أتمنى لو كان مع ابن العاهرة ذاك الذي يُقلّي صيد البط غدارة . وعندئذ كان في امكاننا ان نكتشف على جناح السرعة أيّنا يستطيع حل عقدة الاشياء حتى في برميل حقير في ارض سبخة حيث لا يقوى المرء على المناورة . سوف يكون عليه ان يقترب لكي يصيبني بناره .

كُفَّ عن هذا ، كذلك قال في ذات نفسه ، وفكّر في فتاتك . انت لا تريد ان تقتل ايما امرىء بعد اليوم . البتة .

لن تلحّ بهذا ، كذلك خاطب نفسه . هل تريد ان ترشح نفسك كمسيحي ؟ في استطاعتك ان تقوم في هذه السبيل بمحاولة أمينة . وخليقٌ بفتاتك ان تحبك اكثر لو سلكت هذه الخطة . ولكن هل انت واثق من ذلك ؟ لست ادري ، هكذا قال في صراحة . انا اقسم بالله اني لا ادري .

لعلك سوف تصبح مسيحياً في خاتمة المطاف . اجل ، كذلك قال ، لعلك أن تصبح مسيحياً . من ذا الذي يريد أن يراهن على ذلك ؟

– « أتريدين ان تراهني على ذلك » كذلك سأل البطة الخادعة . ولكنها كانت رافعة بصرها الى السماء ، خلفــهُ ، وكانت قد استهلت الصفير المُقَوْقِي .

وأقبلت اسراب البط محلقة اكثر مما ينبغي ، ولم تحوّم البتة . لقد اكتفت بأن خفضت أبصارها وواصلت اندفاعها نحو البحر الفضاء .

لا ريب في انها تنجو بنفسها الى هناك ، كذلك فكر الكولونيل . لعل قانصاً في زورق مسطح القعر يحاول الآن أن يصوب اليها النــار خلسة . ولسوف تكون محجوبة عن الريح ، حــين تهبّ ، وليس من شك في أن شخصاً ما يصوب الآن اليها النار خلسة . حسناً ، وعندمــا يطلق ذلك الشخص رصاصه سيرتد بعضها عائداً من هنا . ولكن ما دام

الجليد مُهَيمناً فأحسب ان عليّ ان انصرف بدلاً من أن أمكث هنا مثل رجل معتوه .

لقد قتلتُ عدداً منها كافياً ، ولقد رميت احسن ما استطيع الرماية او احسن مما استطيع الرماية . الى الجحيم بـ «أحسن» الثانية هذه . ان احداً لا يرمي احسن منك ، هنا ، مـــا عدا آلفاريتو ، وهو شاب ويطلق النار في سرعة اعظم . ولكنك تصيد عدداً من البط اقل ممـا يصيده كثير من الرماة الارديا وغير البارعين .

أجل ، أنا ادري ذلك ، وأدري لماذا ، ونحن لم نعد مجرد جنود ذوي أرقام ، ولقد اطـّرحنا الكتاب ايضاً ، هل تتذكر ؟

لقد تذكـّر كيف شاءت معجزة من معجزات الحظ في الحرب ان يكون مع احب اصدقائه اليه ، في ساحة المعركة في «الآردين» Ardennes وكانا يطاردان العدوّ .

كان ذلـــك في اوائل الخريف ، فوق مرتفع من الارض شامخ ذي طرق وشعاب [1] ، وكانت الاشجار صفصافـــاً قصيراً وصنوبراً . وكانت آثار دبابات العدوّ وعجلات سياراته تبدو جلية في الرمل النديّ .

كان المطر قد هطل في اليوم السابق ، ولكن السماء كانت الآن قد اخذت تصفو ، وكانت الرؤية حسنة ، وكان في استطاعتك ان ترى جيداً عبر الريف السامق المتموِّج كلهِ ، وكان هو وصديقه يستكشفان ارجاءه بمنظاريهما في دقة بالغة وكأنهما منهمكان في صيد من الصيد .

وكان الكولونيل ، الذي كان آنذاك جنرالاً ومساعد قـــائد لفرقة عسكرية ، يعرف الآثار الفردية لكل عربة مقطورة مـــن العربات التي كانوا يقتفونها .

---

١ – جمع شعب ، بكسر الشين ، وهو الطريق في الجبل .

ولقد عرف ايضاً متى خرجت العربات العدوة من حقول الالغام وعدد الطلقات الجماعية التي بقيت لها تقريباً . وكان قد تصور أيضاً اين تعيّن عليهم ان يقاتلوا قبل ان يبلغوا خط زيغفريد . كان واثقاً من انهم لن يقاتلوا في اي من هذين الموطنين ، ولكنهم سوف ينطلقون الى طيّتهم [1] في سرعة جنونية

وقال لصديقه الأعز : «لقد أوغلنا في التقدم بأكثر مما يليق بأمثالنا من أصحاب الرتب العسكرية العليا ، يا جورج . »

— « لقد تخطّينا الحد ، أيها الجنرال . »

— « لا بأس » كذلك كان الكولونيل قد اجابه . « والآن سوف نطرح الكتاب ونطارد العدو الى الابد . »

فقال صديقه الأعز : « ليس في ميسوري ان اوافق على شيء اكثر من موافقتي على هذا . لأني وضعت الكتاب بنفسي ولكن لنفرض أنهم تركوا شيئاً هناك ؟ »

وأشار الى موطن الدفاع المنطقي .

وكان الكولونيل قد قال : « انهم لم يتركوا ايما شيء هناك . فلم يبق لديهم ذخيرة كافية حتى للقتال بالاسلحة النارية . »

— « كل امرئ يظل على صواب حتى يثبت خطأه ، » كذلك قال صديقه الأعز ، ثم اضاف : « ايها الجنرال . »

فقال الكولونيل : « أنا على صواب . » وكان هو على صواب ، أيضاً برغم انه في حصوله على معرفته المضبوطة لم يحقق الروح الكاملة لميثاق جنيف الذي زُعِم أنه يهيمن على عملية الحرب .

وكان صديقه الأعز قد قال : « فلنطاردهم مطاردة حقيقية . »

— « ليس ثمة ما يعوقنا البتة ، وانا زعيم لك بأنهم لن يتوقفوا في اي من ذينك الموطنين . أنا لم أفز بذلك من اي جندي نمساوي

---

١ — طية المرء : المكان الذي يقصد اليه .

أيضاً . هذا من بنات افكاري . »

وسرّح طرفه في الريف كرة اخرى ، وسمع حفيف الريح تخلل الأشجار ، واستروح نبات الخلنج تحت حذاءيها العسكريين ، وألقى نظرة اخرى على آثار العجلات في الرمل النديّ ، وكان هذا هو خاتمة تلك القصة .

ليت شعري ، هل ستحب ريناتا ذلك ، كذلك قال في ما بينه وبين نفسه . لا ، انه يظهرني امامها بمظهر الالمعية ، اكثر مما ينبغي . ومع ذلك ، فمن الخير ان اكلف شخصاً آخر رواية ذلك على مسمعيها وتعزيز اعتباري لديها . ان جورج هو الشخص الوحيد الذي كان في إمكانه ان يرويه لها ولكنه لا يستطيع ذلك . انا واثق ، ثقتي من الجحيم ، انه لا يستطيع ذلك .

لقد كنت على جادة الصواب اكثر من خمسة وتسعين بالمئة من الوقت ، وهذه نسبة من الاصابة عالية الى حد جهنمي حتى في شيء هين كالحرب . ولكن تلك الخمسة بالمئة التي هي نسبة الخطأ تستطيع من غير ريب أن تكون شيئاً .

أنا لن احدثك أبد الدهر عن ذلك ، يا بنيتي . انها مجرد ضجة مسموعة خلف المسرح في قلبي . قلبي الدجاجيّ الحقير . ان ذلك القلب النغل لم يستطع أن يجاري خطواتي .

ومن يدري ، فلعله ان يستطيع ، كذلك قال في ذات نفسه ، واخذ قرصين من تلك الاقراص وجرعة من الـ «جن» ، ونظر عبر الجليد الرمادي .

اني سوف ادعو ، الآن ، تلك الشخصية المتجهمة الى الاقتراب من الشاطىء وجمع ادوات الصيد ، وسأمضي الى البيت الريفي او الى الكوخ ، كما احسب ان عليّ ان اسميه . لقد انتهى القنص .

٤٢

وكان الكولونيل قد اوعز الى المراكبيّ بالتقدم الى الشاطيء بأن نهض واقفاً في البرميل الغائر ، مطلقاً عيارين ناريين نحو السماء الخالية ، ثم ملوّحاً له بيده نحو الحجاب الواقي .

وأقبل المركب وئيداً ، كاسراً الجليد طوال الطريق . وجمع الرجل الطيور الخشبية الخادعة ، وأمسك بالبطة الداعية ، ووضعها في كيسها ، والكلب ينزلق على الجليد ، ثم جمع البط المقتنَص . كان غضب المراكبي قد خمد في ما يبدو ، وحل محله ارتياحٌ حقيقي .

وقال للكولونيل : « لقد اصطدتَ عدداً قليلاً جداً »

– « بمساعدتك . »

كان ذلك كل ما قالاه ، ووضع المراكبي البطات في عناية ، وصدورها إلى أعلى ، فوق مقدم الزورق . وناوله الكولونيل بنادقه وصندوق الخرطوش ومقعد القنص فوضعها في الزورق .

ودخل الكولونيل الزورق ، واستلم المراكبي الحجاب الواقي ، وفكّ الأداة المُحَبَّبة الشبيهة بالمئزر والمدلاة في داخل الحجاب الواقي لحمل القذائف . ثم إنه دخل الزورق أيضاً ، وشرعا يبتعدان عن الشاطىء في بطء وجهد ، مجتازَيْنِ الجليد الى مياه القناة السمراء الجارية . وجذّف الكولونيل بمثل النشاط الذي جذّف به حين أقبلا للقنص . ولكنهما عملا معاً الآن – في أشعة الشمس الساطعة ، وجبال الثلج إلى شمالها ،

وخطٌ نبات الحلفاء الذي يميز القناة امامها - في تناغم كامل .

ثم إنهما انتهيا الى القناة ، مبتعدين على نحو متكسر عن بقية الجليد الباقية . وفجأة غمرها الضياء ، ودفع الكولونيل الجذاف الكبير الى المراكبي ، وقعد كان العرق يتصبّب من جسمه .

واتخذ الكلب ، الذي كان يرتعد عند قدمي الكولونيل ، سبيله فوق حافة المركب متشبّثاً بها ببراثنه حــذَر السقوط ، وسبح الى ضفة القناة . ثم انه نفض الماء عن سترته البيضاء المتسخة ، واندفع نحو أجمة نبات الحلفاء الأسمر ، وراقب الكولونيل تقدمه الى موطنه من خلال حركة الأجمة . إنه لم يتناول لقانقه البتة .

وإذ استشعر الكولونيل العرق يتصبب من جسده ، برغم ادراكه انه كان في نجوة من الريح بفضل سترته العسكرية ، فقد تناول من العلبة قرصين اثنين ، واخذ رشفة «جن» من قارورته .

وكانت القارورة مسطحة ذات كساء فضي وغطاء من جلد . وتحت الغطاء الجلدي ، الذي كان بالياً وملطخاً ، نُقِشت في جانبٍ ما ، هذه الكلمات : « الى ريتشارد من ريناتا ، مع الحب » . إن أحداً لم يرَ هذا النقش قط غير الفتاة ، والكولونيل ، والرجل الذي نقشه . والقارورة لم تُنقَش حيث اشتريت . لقد كان هذا في الأيام الاولى ، كذلك فكر الكولونيل . أما الآن فمن يبالي ؟

وفي أعلى سدادة القارورة اللولبية نُقِش : « من ر . الى ر . س . »
وقدم الكولونيل القارورة الى المراكبي الذي نظر اليه ، والى القارورة ، وقال : « ما هذا ؟ »

— « غرابًّا انكليزية . »

— « سوف أجرّبها . »

وأخذ منها جرعة طويلة ؛ ذلك النوع من الجرعة التي تعوّد الفلاحون

اخذه من قارورات الخمر .

– « شكراً . »

– « هل وُفـِّقت الى صيد سمين ؟ »

– « لقد اقتنصت أربع بطات . ووجد الكلب ثلاث بطات تصيّدها اناس آخرون . »

– « لماذا اطلقت النار ؟ »

– « انا آسف لإطلاقي النار . لقد فعلت ذلك في سورة غضب . »

لقد فعلت انا ذلك في بعض الأحيان ، هكذا قـال الكولونيل في ذات نفسه . ولم يسأله علام كان غضبه .

– « يؤسفني انها لم تطرْ على نحو أفضل . »

فقال الكولونيل : « تلك هي الطريقة التي تجري بها الأشياء . »

وكان الكولونيل يراقب الحركة التي قام بها الكلب في العشب العالي ونبات الحلفاء . وفجأة لمحه يتوقف ؛ لقد جمد في مكانه لا يريم . ثم إنه وثب . كانت وثبةً عالية ، وغوصَةً الى أمام وإلى أدنى .

وقال للمراكبي : «لقد عثر على بطة جريح .»

وناداه المراكبي : « بوبي ! إيتِ بها ، إيتِ بها ! »

وتحرّك نبات الحلفاء ، وانقلب الكلب عائداً وبين فكـّيه ذكرُ بطّ برّي وكان عنقه الأبيض الرمادي ورأسه الأخضر يترنحان عُلواً وسفْلا كما يتحرك ثعبان من الثعابين لقد كانت حركة من غير أمل .

واندفع المراكبي بزورقه نحو الشاطىء اندفاعاً قوياً .

– « سوف آخذه أنا » كذلك قال الكولونيل . ثم اضاف : « بوبي ! »

وأخذ ذكر البط من بين فكـّيْ الكلب الممسكـيْنِ به في غـير إحكام فألفاه سليماً لم يُمَس ، ورفعه بإحدى يديه فوجده وسيمـاً بهيّ الطلعة ، وقد راح قلبه يخفق وبدا اليأس على عينيه الأسيرتين .

ونظر الكولونيل اليه في حنان ، ملاطفاً اياه كما يلاطف المرء جواداً .

وقال : « انه مصابٌ في جناحه ليس غير . سوف نحتفظ به لنستعين به على صيد امثاله او لنطلق سراحه في الربيع . هيّا ، خذه وضعه في الكيس مع البطة .»

وأخذه المراكبي في رفق ووضعه في الكيس الخيشيّ الذي كان تحت مقدّم السفينة . وسمع الكولونيل البطة تتحدث اليه . او لعلهـا كانت تحتج ، كذلك قال في ذات نفسه . انه لم يستطع ان يفهم حديث البط من خلال كيس خيشي .

– « خذ جرعة من هذا » كذلك قال للمراكبي . « إنه يوم قارسٌ الى حد لعين . »

وتناول المراكبي القارورة ، واخذ جرعة أخرى طويلة .

وقال : « أشكرك . إن هذه الغرابا جيدة جداً ، جداً .»

٤٣

وعند المهبط ، أمام البيت الحجري الطويل المنخفض القائم على ضفة القناة ، كان البط ملقىً على الأرض في صفوف منظمة .

لقد رُصِف بمجموعاتٍ غير متكافئة . وكان ثمة عدد قليل جداً من الفصائل ، ولم يكن سرايا البتة ، أما انا - كذلك قال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه - فلا اكاد املك شرذمة صغيرة .

وكان كبير حرس الصيد واقفاً على الضفة بجذائه العالي الساق ، وسترته القصيرة ، وقبعته العتيقة المردودة الى الوراء ، ولقد ألقى نظرة ناقدة على عدد البطات التي كانت فوق مقدّم المركب فيما هما يتقدمان في محاذاة الشاطىء .

وقال الكولونيل : «كان الجليد غالباً على موقعنا . »

وقال كبير الحرس : « لقد قدّرت ذلك . انا آسف . لقد ظُنّ أنه افضل المواقع . »

- « من كان مجلّياً في القنص ? »

- « لقد قَنَص البارون اثنتين واربعين . كان ثمة تيارٌ ضعيف هناك أبقى المياه جارية فترة من الزمن . ولعلك لم تسمع اطلاق الرصاص لأنه كان مضاداً للريح . »

- « وأين افراد الجماعة ? »

- « لقد مضَوا جميعاً ما خلا البارون الذي ينتظر عودتك . ان سائقك نائم في البيت الريفي . »

فقال الكولونيل : « لست أستغرب ذلك . »

- « أنشر هذه نشراً حسناً » ، كذلك قال كبير الحرس للمراكبي الذي كان هو أيضاً حارس صيد . « اريد أن اذكرها في سجل القنص . »

- « هناك ذكر بط أخضر الرأس في الكيس . وهو غير مصاب إلا في جناحه . »

- « حسن ، سوف أعنى به عناية جيدة . »

- « سوف ادخل وأرى البارون إني سأراك في ما بعد . »

فقال كبير الحرس : « يتعين عليك ان تدفىء نفسك . لقد كان نهاراً قارساً جداً ، يا زعيمي . »

واتخذ الكولونيل سبيله الى باب البيت الريفي .

وقال للمراكبي : « سوف اراك في ما بعد . »

فقال المراكبي : « نعم ، يا زعيمي . »

★★★

كان ألفاريتو ، البارون ، واقفاً على مقربة من نار المستوقد المكشوفة في وسط الحجرة . فابتسم ابتسامة الخجول وقال في صوته ذي الطبقة الخفيضة :

- « أنا آسف لأنك لم توفَّق إلى صيد أفضل . »

- « لقد استبد بنا الصقيع استبداداً كاملاً . وعلى اية حـــال فقد استمتعت بالذي كان ثمة الى حد بعيد . »

- « هل تستشعر برداً شديداً ؟ »

- « ليس اكثر مما ينبغي . »

- « في ميسورنا أن َنطعَمَ شيئاً ما . »

ـ « شكراً . انا لست جائعاً . هل أكلت ؟ »

ـ « نعم . لقد مضى الآخرون ولقد تركتهم يأخذون سيارتي . هل تستطيع ان تنقلني بسيارتك الى لاتيزانا او الى ما وراءها بقليل ؟ ان في استطاعتي ان اجد هناك وسيلة من وسائل المواصلات . »

ـ « من غير ريب . »

ـ « كان من العار ان يغلب الصقيع على موقعك . فقد كانت الآمال كبيرة في ان توفق الى صيد سمين . »

ـ « لا بد انه كان ثمة في الخارج عالمٌ من البط كامل . »

ـ « نعم . ولكن اسراب البط هذه لن تلبث بعدُ وقد اصاب الصقيع طعامها . انها سوف تكون الليلة في سبيلها الى الجنوب . »

ـ « هل ستذهب كلها ؟ »

ـ « ستذهب كلها . ما عدا بطّنا المحلي الذي يتوالد هنا . إنها سوف تلبث ما بقي ثمة ايما مياه غير منجمدة »

ـ « انا آسف لإخفاق رحلة القنص . »

ـ « وأنا آسف لأن تكون قد قطعت هذه المسافة كلها من أجل هذا العدد الضئيل من البط . »

فقال الكولونيل : « أنا احب القنص دائماً . وأحب مدينة البندقية . »

وأشاح البارون ألفاريتو بوجهه وبسط يديه نحو النار . وقال : « اجل . نحن كلنا نحب البندقية . ولعلك تحبها اكثر منا جميعاً . »

ولم يسترسل الكولونيل في الحديث عن هذه النقطة ، بل قال : « انا احب البندقية كما تعلم . »

فقال البارون : « اجل ، أعلم . » ولم ينظر الى ايما شيء . ثم اضاف : يتعيّن علينا أن نوقظ سائقك . »

ـ « هل اكلَ ؟ »

ـ « لقد اكل ونام ، واكل ونام . ولقد قرأ بضع صفحات من بعض

المجلات المصوّرة التي حملها معه . »

فقال الكولونيل : « بعض المجلات الهزلية المصورة . »

فقال البارون : « يتعين علي أن اروض نفسي على مطالعتها . » وابتسم ابتسامته الحيية القاتمة . « هل تستطيع أن تأتيني ببعضها من تريبستا ؟ »

فأجابه الكولونيل : « أيّ مقدار منها تشاء . ابتداءً من تلك التي تصوّر الانسان الأمثل الى تلك التي تصوّر كل ما هو متعذر التصديق . طالعْها بالنيابة عني . اسمع ، يا ألفاريتو ، ما خطْب مراقب الصيد ذاك الذي جذّف مركبي ؟ لقد بدا وكأنه يكنّ لي بعض الحقد ، منذ البدء .. وخلال الرحلة كلها أيضا . »

ـ « مردّ ذلك الى السترة العسكرية القديمة . إن بزة الحلفاء تثيره على هذا النحو . »

ـ « تابع . »

ـ « حين اقبل المغاربة الى هنا اغتصبوا زوجته وبنته . »

فقال الكولونيل : « من الخير لي ان آخذ جرعة . »

ـ « هناك شيء من الغرابا على المائدة . »

٤٤

كانا قد انزلا البارون من السيارة في دارة ذات بوابة ضخمة ، ومجاز معبّد ، وبيتٍ شاه حسن حظه ـ اذ كان على مبعدة ستة اميـــال أو يزيد عن ايما هدف عسكري ـ ان ينجو من قذف القنابل .

وكان الكولونيل قد قال كلمة الوداع ، وكان ألفاريتو قد دعاه الى الوفود عليه والاستمتاع بالقنص في ايما «ويك اند»[1] يشاء ، أو في كل «ويك أند» .

ـ « اواثق انت من انك لن تعرّج علينا الآن ؟»

ـ « لا يتعين عليّ أن ارجع الى ترييستا . هل لك ان تحمـــل حبي الى رينانا ؟ »

ـ « سوف افعل . هل هذا الذي لفَفته في مؤخرة السيارة صورتها الزيتية ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « سأقول لها انك وُفّقت الى صيد سمين وان الصورة الزيتية في حال جيدة . »

ـ « وحبي ايضاً . »

ـ « وحبك ايضاً . »

ـ « وداعاً Ciao ، يا ألفاريتو ، واشكرك شكراً جزيلاً . »

ـ « Ciao ، يا زعيمي . اذا كان في امكان المرء ان يقـــول ciao

---

١ ـ نهاية الاسبوع .

لكولونيل . »

ـ « لا تعتبرني كولونيلا . »

ـ « ذلك عسير جداً . الى اللقاء ، يا زعيمي . »

ـ « في حال ايما طارىء غير مرتقب هل لك ان تسألها ان تسترد الصورة الزيتية من فندق غريتي ؟ »

ـ « نعم يا زعيمي . »

ـ « هذا كل ما هنالك في احسب . »

ـ « الى اللقاء ، يا زعيمي . »

٤٥

كانا قد أمسيا على الطريق ، الآن ، وكان الغسق قد اخذ يهبط .

وقال الكولونيل : «إنعطف يساراً . »

فقال جاكسون : « هذه ليست الطريق المفضِية الى تريبيستا ، يا سيدي . »

– « الى الجحيم بالطريق المُفضية الى تريبيستا ، لقد أمرتك بأن تنعطف يساراً . هل تحسب ان هناك طريقاً واحدة ، في العالم ، للذهاب الى تريبيستا ؟ »

– « لا ، يا سيدي . كل مـا اردته هو أن ألفت نظر الكولونيل الى ... »

– « لا تلفت نظري الى شيء لعين . وربما اصدر اليك أمراً مغـايراً لا تخاطبني إلا اذا خاطبتك . »

– « نعم ، يا سيدي »

– « انا آسف ، يا جاكسون . مـا اعنيه هو اني اعرف الى اين انا ذاهب ، واني اريد ان افكر . »

« نعم يا سيدي . »

كانا الآن ينطلقان في الطريق القديمة التي عرفها جيداً ، وقال الكولونيل في ذات نفسه : حسناً ، سوف ابعث بأربع من البطات التي وعدتُ بهـا الى من وعدتهم بهـا في فندق غريتي . إن الصيد لم يكن غزيراً بحيث

يتوفر لزوجة ذلك الغلام قدْر من الريش تستطيع ان تفيد منـــه . ولكنها كلها ضخمة وسمينة ، ولا ريب في ان القوم سيجدون في اكلها متعة بالغة . لقد نسيت ان اقدّم اللقانق الى «بوبي» .

ولم يكن لديه متسع من الوقت لكتابة مذكرة الى ريناتا . ولكن ما الذي استطيع ان اقوله ، في مذكرة ، مما لم َنقُله مشافهة ؟

ومد يده الى جيبه ، فوجد إضمامة ورق وقلماً . وأضاء المصبـــاح الخـــاص بقراءة الخرائط ؛ وبيده المعطوبة راح يكتب رسالة صغيرة بحروف كبيرة منفصلة .

— « ضع هذه في جيبك ، يا جاكسون ، واعمل َوفَقها عند الضرورة . واذا ما حدثت الظروف الموصوفة فيها يصبح ذلك واجب التنفيذ» .
فقال جاكسون : « نعم ، يا سيدي . » وبإحدى يديه أخـــذ الأمر المطويّ ووضعه في جيب سترته العلوي الأيسر .

والآن هوّن عليك ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه . إن كل همٍّ إضافي قد يستبد بك سوف تكون انت ِمحوَرهُ ، وهذا مجرد ترف . انت لم تعُدْ ذا َغناء لجيش الولايات المتحدة . لقد أوِضحَ لك ذلك إيضاحاً لا لبس فيه .

ولقد قلت كلمة الوداع لفتاتك ، ولقد قالت لك هي كلمة الوداع . وهذا بسيط من غير ريب .
لقد اجدت القنص ، وأنفاريتو يفهم . هذا واضح .

وإذن ، فأي شيء بحق الجحيم يتعين عليك أن تقلق من اجله ، أيها الفـــلام ؟ انا ارجو أن لا تكون مثل اولئك الاغرار الذين يقلقون لما قد يصيبهم حين لا يكون في اليد حيلة . فلنرجُ ذلك حقاً .

وفي تلك اللحظة بالذات ألمّت به النوبة ، وكان خيِّل مثل اليقين من انها سوف تفعل ، منذ أن َجمَعا البطات الخشبية الخادعة .

ان ثلاث نوبات قلبية لقادرة على وضع حد لحياة الانسان . ولقد منحوني اربعاً . لقد كنت دائماً ابن عاهرة محظوظاً . »

وألمّت به من جديد عنيفة قاسية .

وقال : « جاكسون ، هل تعلم ما قاله الجنرال توماس ج . جاكسون في احدى المناسبات ؟ . . في مناسبة موته المنكود : لقد حفظته عن ظهر قلب ذات يوم . انا لا استطيع أن أتحمل مسؤولية دقة ذلك القول ، طبعاً ، ولكنهم يروونه على هـذه الصورة : « مُروا أ . ب . هيل بالاستعداد للمعركة . » وتلا ذلك هذيان اضافي . ثم قال : « لا ، لا ، دعونا نعبر النهر ونرقد في ظل الاشجار . »

فقال جاكسون : « هذا جدّ طريف ، يا سيدي . ولا بد ان يكون ستونوول جاكسون [1] هو صاحب ذلك القول ، يا سيدي . »

وشرع الكولونيل يتكلم ، ولكنه أمسك عن ذلك بينا اصابته النوبة للمرة الثالثة ، واستبدت به استبداداً عرف معه انه لن يستطيع الحياة بعد .

وقال الكولونيل : « جاكسون . انعطِف الى جـانب الطريق وأزِر اضواءك الخاصة بالوقوف . هل تعرف الطريق الى تريبستا من هنا ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدى ، عندي خريطتي . »

ـ « حسن . سوف امضي الآن الى المقعد الخلفي الواسع من هـذه السيارة اللعينة ، المترفة ، الضخمة الى حد التطرف . »

وكانت هذه الكلمات هي آخر ما قاله الكولونيل في حياته . ولكنه بلغ المقعد الخلفي في غير مشقة وأوصد الباب . لقد أوصده في عناية وإحكام .

---

١ ـ هو توماس جوناثـان Thomas jonathan المعروف بستونوول جاكسون Stonewoll jackson (١٨٢٤ ـ ١٨٦٣) وكان قائداً اميركياً اتحادياً في الحرب الاهلية الاميركية . (المعرب)

وبعد فترة ، قاد جاكسون السيارة هابطاً الخندق والطريق المكتنَفة من جانبيها بشجرات الصفصاف ، وقد أنار اضواء السيارةِ الكبيرةَ ، وانشأ يبحث عن مكان ينعطف عنده . واخيراً اهتدى الى مكان ، فانعطف في أناة . حتى اذا أمسى على الجانب الأيمن من الطريق ، منعطفاً جنوباً نحو ملتقى الطرق الخليق به ان يُبلِغه الطريقَ العامة المفضية الى تريبستا ، تلك الطريق التي كان يألفها ، أضاء مصباح الخرائط واخرج الأمر المطويّ من جيبه وقرأ :

«في حال وفاتي تعاد الصورة الزيتية الملفوفة وبندقيتي
«الوش" التي في السيارة الى فندق غريتي ، البندقية ،
«حيث ستطالب بها مالكتها الشرعية :
«التوقيع : ريتشارد كانتويل ، كولونيل ، سلاح
«المشاة ، الولايات الاميركية المتحدة» .

– « انهم سوف يعيدونها ، على احسن وجه ، من طريق بعض القنوات .»
كذلك قال جاكسون في ذات نفسه ، وأطلق العنان للسيارة .

(انتهت)

